دراسة فى التراث الأدبى الجاهلى
الحلقة الأولى

ملامح العبقرية وشواهد الإبداع
فى الشعر الجاهلى

دكتور
عبد الله حسين على سليمان
الأستاذ المساعد فى قسم الأدب والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

بســـــم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعيـــن

مقدمـــة : الحمد لله خالق الخلق إجمعين

والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ...

وبعـــــــد

فمن الحقائق الثابته فى حياة الأمم العريقة والشعوب الأصيلة أن يكون لها تراث ترتكز عليه وتعتز به ، وتدافع عنه ، وترجع إليه تلتمس فيه أصالتهـــا وعراقتها وجذورها الممتدة فى أعماق الأرض وأغوار الماضى البعيد . وأن هذا التراث يرتبط فى جوهره بالحلقات الأولى من تاريخ الأمة عقيدة ووجدانـــا ، وثقافة وفكرا ، وفنا وإبداعا ، وتتوالى الحلقات وتقوى أواصرها وتكتمـــــل عناصرها ، لتشيد جسرا ممتدا عبر الماضى إلى الحاضر والمستقبل .

ولعل أقدم حلقة معتمدة معروفة فى تاريخ أدبنا العربى تتمثل فى عصر الجاهلية الذى بلغت فيه أمة العرب شأوا بعيدا فى الفصاحة والبلاغـــــة والبيان وكان للقول فيه مكانة ، وللكلام منزلة ، وللتعبير وزنه وقدره . ومـــع ذلك فإنك لن تجد عصرا من عصور الأدب العربى أشيع ظلما وعدوانا ، واتهم زورا وبهتانا ، وطعن كذبا وادعاء مثلما حدث للعصر الجاهلى الـــــذى حكم عليه ذات يوم بأن الأدب المنسوب إليه منتحل وموضوع وليس له كيان أو وجود ... ثم قيل فيه بعد أن طاش السهم ، وضل السعى ، وخاب القصد إنه أدب سطحى ساذج ، فارغ تافه ، لا نفع فيه ولا غناء ، ولا قيمة لـــــه ولا أهمية ، نثره معدوم وشعره مفكك منحل ، إذا حذفت منه أو قدمـــــت أو أخرت لا تشعر بنقص أو اضطراب فلا وحدة له ولا ترابط فيه ، وهو بذلـــك يخرج عن الأنماط الفنية المعتمدة فى الآداب العالمية فضلا عن أنـــــــه شعر غنائى ذاتى قاصر لا تجد فيه هذه الملاحم المذهلة ولا المسرحيـــات المثيرة التى اشتهرت بها أمة اليونان والرومان من قديم الزمان .

وكان وراء هذه الأقوال والأحكام تلك العقدة المستعصية المتمثلـــة فى هذه النزعة "الاستغرابية" البغيضة التى هيمنت على كثير من الباحثين والدارسين من أبناء أمتنا العربية ، وجعلتهم فريسة سهلة لأفكار بعـــض المستشرقين المتعصبين وآرائهم فتأثروا بهم وساروا على ضلالهم ونسجوا على منوالهم

واتخذوا منا هجهم البراقة مثلا عليا لا يحيدون عنها ولا يقبلون غيرها واعتنقوا نفس الآراء وردد وا نفس الأقوال ، وأثاروا نفس الشبهات ... ونقلوا ذلك كله إلى تلاميذهم والى سائر المثقفين فى كتب تطبع ، ومحاضرات تسمع ، وأحاديث تذاع وتنشر ، وندوات تعقد ، ولقاءات تتم ، ومهرجانات تقام ، وملأوا الدنيا صياحا وضجيجا حتى استوى الباطل عملاقا تضاءل الحق بجواره ، وغصت الحلوق بكلماته ، وصارت الادعاءات الباطلة حقائق ثابتة لا يستطيع أحد أن يتعرض لها من قريب أو من بعيد وإلا رمى بالجهل والتخلف والجمود .... بل إن بعض علمائنا الأجلاء ممن عرفوا بسعة الأفق والاقتدار على الدرس والبحث وقفوا على استحياء وبحذر شديد يدافعون عن التراث الجاهلى ، ينطقون بكلمة حق واحدة منصفة ويرددون إزاءها ألف كلمة هزيلة شاحبة تشككا وارتيابا .... نعم كانت هناك الصفوة الممتازة من علمائنا الأعلام الذين هبوا للدفاع عن هذا التراث بكل ما أوتوا من قوة وبعد نظر وأصالة رأى وصحة فكر ، وسلامة حجة فكانوا بحق وصدق خير المدافعين عن تراث أمتهم ... ولكن ماذا تصنع هذه الصفوة إزاء الكثرة المنتشرة فى المدارس والجامعات والمعاهد والصحافة وسائر أجهزة الإعلام ودور الثقافة ... وكلهم يردد بلا كلل ولا ملل هذه المزاعم والادعاءات حتى أصبحت ـ كما قلت ـ وكأنها حقائق ثابته لا تقبل جدلا .. وانقلب الأمر هزلا مرذولا حين أخذ يتردد على الألسنة اسم " الحارث بن حلزة " وبيت امرئ القيس المشهور " مكر مفر مقبل مدبر معا الخ .. " سخرية وامتهانا على خشبة المسرح وعلى الشاشة البيضاء الكبيرة منها والصغيرة على السواء ..

لقد اخترت الطريق الصعب ، وعقدت العزم على المضى فيه ، متوكلا على الله مستعينا به ، تدفعنى إلى ذلك ثقة بالغة فى تراثنا العربى المجيد وهزة شوق سارية عبر آلاف السنين ، ورغبة متأصلة فى الكشف عن " ملامح العبقرية وشواهد الإبداع فى الأدب الجاهلى " بمنهج جديد ، ورؤية ثاقبة وموضوعية دقيقة ، وبراهين قوية وحجج دامغة ، إذ كان أهم ما ركزت عليه فى هذه الدراسة الفنية الشاملة ، استنباط الأحكام من واقع النصوص الأدبية الثابته المحققة رواية وتدوينا شعرا ونثرا .... وكان لزاما على أن أتناول بعض هذه النصوص تناولا تحليليا نقديا يكشف عن جوهرها وأصالتها ويبين ما تحمله من ملامح العبقرية ، وشواهد الإبداع ، فى سائر فنون الشعر

الجاهلى وأغراضه ، وفى أدق خصائصه وسماته ....

ولم أغفل زيف الادعاء على الشعر الجاهلى بالسطحية وقلة النفع والغناء فكشفت عما فيه من أعماق وأبعاد تشف عنها طبيعة صافية ، وفطرة نقية ، وشاعرية متدفقة ، وخيال خصب ووحدة أوزان وأنغام وعذوبة إيقاع.

وطالما تحدث كثير من الباحثين عن التجسيم والتشخيص فى الشعر العربى وأرجعه بعضهم إلى عناصر أجنبية وقد أثبت بالشواهد والأدلة أن الشعر الجاهلى حافل بهذا اللون المثير من التجسيم والتشخيص الذى يعد بحق أثرا من آثار الخيال النشط والاقتدار على التصوير الحيوى الخصب وحسبنا ما أورده امرؤ القيس من وصف الليل وما جاء به زهير فى وصف الحرب .

ومع التجسيم والتشخيص كانت هناك عناصر جمالية عرفت فيما بعد باسم البديع والجديد التفت اليها شعراء الجاهلية وصاغوها شعرا ومارسوها فعلا بالطبيعة المواتية ، والحس المرهف والشاعرية الموهوبة دون أن يتكلفوها أو يقصدوا إليها .

ومعنى ذلك بوضوح أن مظاهر التجديد الشعري فى العصر العباسى الزاهر كانت لها أصول قوية وجذور عميقة وجسور ممتدة إلى الشعر الجاهلى .. وان هذه الأصول والجذور كانت وما تزال هى الدعائم الثابتة لحركات تجديدية إبداعية مستمرة فى كافة العصور والأجيال وأن تراثنا الأدبى الموروث فيه حياة وقوة وفيه قدرة على البقاء والخلود ومغالبة العصور .

وفى إطار أشهر القضايا النقدية تناولت الأدب الجاهلى وحددت مكانته ومنزلته فى مجالات متعددة من العبقرية والإلهام ، والطبع والصنعة ، والأصالة والصدق ، والوحدة الفنية والأهداف الإنسانية ، والحرية والانطلاق ..... معتمدا فيما أقول على الشواهد والأدلة دون تزيد وافتعال حتى تستقيم الأمور وتتضح ملامح الصورة ، وتعلو أعلام الحق ، وتتهاوى دعاوى المبطلين .

وسيظل التاريخ يذكر أن أدبنا العربى عاش حلقات موصولة من الرقـــى والازدهار منذ عرفناه جاهليا إلى أن تلقاه جيل الرواد فى العصر الحديـــث (البارودى وشوقى وحافظ ومطران والجارم وشفيق جبرى ومعروف الرصافـــى وصدقى الزهاوى وغيرهم) بعد فترة ركود وجمود فبعثوا فيه روحا قويا وأجـــروا عليه تيارا عصريا فعاد جذعا فتيا تسرى فى فنونه خلاصة عصور ذهبية عريقة وتهـــب عليه نسمات إبداعية جديدة وبهذه وتلك يكتب لأدبنا العربى المعاصر الاستمـرار والبقاء ويتحقق له المجد والخلود .

وأقولها كلمة صريحة مخلصة : إن النهضة الأدبية العربية المعاصرة لـــن تتحقق على أيدي هؤلاء الذين تنكروا لتراثنا الادبى وخرجوا عليه وارتموا فـــى أحضان المستشرقين وتعلقوا بآداب الغربيين ونفروا من كل قديم موروث يربطنـــا بماضينا الأدبى العريق .... وإنما تتحقق هذه النهضة على أيدى هؤلاء الذين تمتلئ قلوبهم بالعروبة ثقة واعتزازا ، وارتكزوا على اسس وطيدة ودعائـــم راسخة من تراثنا العربى الأصيل ، والثقافة العصرية الحديثة ، والوجـــدان الحيوى النابض بكل القيم الخالدة فى حياة الإنسانية والإنسان .

والله هو الهادى إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

دكتور عبد الله حسين على سليمـان

الفصـــــل الأول
الأدب الجاهلي : قيمـة وتـــراث

لقد كان أدبنا العربي على مستوى سائر العصور أدبا للحياة يعيش فيها ويندمج في واقعها ويكون صورة حقيقية لمظاهرها و نوازعها ويعبر تعبيرا صادقـــا عن مشاعرها وآلامها وآمالها ويخوض معها غمرات الحروب ، ونكبات الزمان وأهوال الأحداث ويتسامى بها إلى آفاق عليا من المبادئ والمثل وشريف الغايـــات والأهداف ويمسح بيده الرقيقة الحانية على قلوب أبنائها فينهنه العبـــــرات الحزينة وينير السبل المظلمة وينهج للحائرين مناهج الرشد والصواب (١)

واذا اعتبرنا أدبنا العربي في عصوره المختلفة وحلقاته المتتابعة بناء ضخمـا أو قصرا مشيدا قد أحكم بناؤه وتماسكت لبناته وتسامت طبقاته وازدهت ردهاتـــه وشرفاته لكان علينا أن نتصور الأساس المتين لهذا البناء الضخم ممثلا بـــلا جدال في أدبنا الجاهلي بما كان له من الأولية وما استقر عليه من القواعـــــد والأصول التي تعتبر دعائم راسخة استندت إليها وارتكزت عليها عصور أدبيـــه لاحقة على نحو ما قدمنا .

وأدبنا العربي الجاهلي يمثل تراثا موروثا لا ينبغي تغافله أو التشكيـــك فيه أو التقليل من أهميته لأن المضي في هذا الاتجاه يعد تخريبا للأســـــاس وعبثا بالدعائم وفي هذا التخريب والعبث تهديد للبنيان بالانهيار وحاشا لبنـاء أدبنا العربي الحصين أن يتداعى أو ينهار ، إن حرصنا على أدبنا العربـــي في عصوره الأولى واعتزازنا به ، وتقديرنا له إنما هو حرص واعتزاز وتقـــــدير لتاريخنـــــا لانـــــه صلة ماضينا بحاضرنا ومشاعر آبائنـــا وأجدادنا تسري في دمائنا وأعصابنا كما أنه حرص واعتزاز بقوميتنا التي تعد اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب من أعظم أسسها ولولا محافظتنا على أدبنـــا واعتدادنا بتاريخه لما قدر للغتنا العربية الحية وهي لغة القرآن والإسلام البقـاء والخلود .

---

١ ـ الشعر الجاهلي لخفاجي ص ١٥ .

ولتفوضت قوميتنا وتسلطت علينا لغة أخرى تستعبد عقولنا وأفكارنا ومشاعرنا فتصير جسما بلا روح وهيكلا بلا عاطفة وما أشقى الأمم بعبودية العقول والأفكار والمشاعر إنها أشد خطرا وأشرس فتكا من عبودية الأجسام والحطام

والأدب الجاهلى أدب أمة صناعتها الكلام ومفخرتها البيان وفصاحة اللسان فهم أهل فطنة ونباهة ، ولسن وفصاحة وقدرة عجيبة على التعبير البليغ والقول المثير والمنطق البارع ومن هنا أثر لهم من جوامع الكلم وفرائد القول وبدائع الأساليب وبدائه القرائح ما يعد على وجه الزمن من مآثرهم الخالدة ومناقبهم الباقية ، يقول الجاحظ فى حديثه عن العرب : " فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم إلى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الأثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الأنواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وإحكام شأن المناقب والمثالب بلغوا فى ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الأمم أفخر ولأيامهم أذكر (١) ويقول ابن رشيق : " العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم لفضل اللسان على اليد والبعد عن امتهان الجسد .. " ويقول " وكلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد لتهز أنفسها إلى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أى فطنوا ... وقيل ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره (٢) ومن هذه الأقوال يتضح أن الأدب الجاهلى ينحصر فى المأثور المروى من أشعار العرب ومن نثرهم البليغ المعبر عن مكانتهم ومنزلتهم من الفصاحة وسحر البيان فى عصرهم الجاهلى مما جاد به الزمان وسمح بحفظه وروايته .

---

١ ـ رسائل الجاحظ جـ٣ ص٢١٧ ط الخانجى ١٩٧٩ تحقيق عبد السلام هارون

٢ ـ العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٧ ، ٨ ط حجازى

وحول الشعر والنثر انعقدت المفاضلة واختلفت وجهات النظر فهنـــاك من يمجد الشعر ويرفعه على النثر وهناك من يحط من قدره ويرى النثر أشـــرف منه وأرفع قدرا فأنصار الشعر يقولون إن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنســه في معترف العادة ألا ترى أن الدُّرّ وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبــه إذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به وان كان أعلى قدرا وأغلى ثمنا فإذا نظم كان أصون له من الابتذال وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال (١) وقد كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمــع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لأنــه حماية لأعراضهم وذبٌّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم وكانــوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج " (٢) والشعر مشهــود لصاحبه بالفطنة والذكاء والتنبه للمعاني التي لا يتنبه إليها سواه وقد اشتــق العرب لفظ الشاعر من شعر إذا علم بالأمر وفطن له وعقله يقول قدامة : والشاعــر من شعر يشعر شعرا .... وانما سمي شاعرا لانه يشعر من معاني القــول وإصابة الوصف بمالا يشعر به غيره (٣) يريد ان الشاعر يدرك المعاني التي هي مجال القول ويصيب في وصفها . (٤)

أمــا أنصــار النثــر فيقــولــون إن النثر أرفع درجة من الشعــر وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتــاج الشاعر معهما إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير وقصر الممدود ومــد المقصور وصرف مالا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف واستعمال الكلمة المرفوضــة وتبديل اللفظــة الفصيحة بغيرها وغير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه والكلام المنثور لا يحتاج فيه إلى شئ من ذلك فتكون

---

١ ـ العمدة لابن رشيق جـ١ ص ٧
٢ ـ نفسه ص ٤٩
٣ ـ نقد النثر المنسوب لقدامة ص ٧٧
٤ ـ أسس النقد الأدبي عند العرب لأحمد بدوي ص ٢٠

ألفاظه تابعة لمعانيه [١] ويقول المرزوقى " اعلم أن تاخر الشعراء عن رتبه البلغاء موجبة تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين : **احدهما** : أن ملوكهم قبل الاسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة والافتنان فيها ويعدونها أكمل أسباب الرياسة وأفضل آلات الزعامة وكانوا يأنفون من الاشتهار بقرض الشعر ويعده ملوكهم دناءة وقد كان لامرئ القيس فى الجاهلية مع أبيه حجر بن عمرو حين تعاطى قول الشعر فنهاه عنه وقتا بعد وقت وحالا بعد حال ما أخرجه إلى أن أمر بقتله ... **والثانى** : أنهم اتخذوا الشعر مكسبة وتجارة وتوصلوا به الى السوق (جمع سوقة بمعنى الرعية وعامة الناس) كما توصلوا به الى العلية وتعرضوا لأعراض الناس فوصفوا اللئيم عند الطمع فيه بصفة الكريم والكريم عند تأخر صلته بصفة اللئيم حتى قيل .. الشعر أدنى مروءة السرى (الشريف) وأسرى مروءة الدنى " ومما يدل على أن النثر أشرف من النظم أن الإعجاز من الله تعالى جده والتحدي من الرسول عليه السلام وقعا فيه دون النظم وقد قال الله عز وجل فى تنزيه النبى عليه السلام .. وما علمناه الشعر وما ينبغى له .. وقال أيضا " والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون " [٢]

ويذكر بعضهم أن الشاعر فى مبتدأ الأمر كان أرفع منزله من الخطيب لحاجتهم الى الشعر فى تخليد المآثر وشدة العارضة وحماية العشيرة وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل فلا يقدم عليهم خوفا من شاعرهم على نفسه وقبيلته فلما تكسبوا به وتولوا به الأعراض صارت الخطابة فوقه . [٣] ويروى الجاحظ عن أبى عمرو ابن العلاء قال " كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر " [٤] . ومع ذلك فالإقرار ينعقد

١ــ صبح الأعشى للقلقشندى جـ ١ ص ٥٨

٢ــ شرح ديوان الحماسة ص ١٦

٣ــ العمدة جـ ١ ص ٦٦

٤ــ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٧٠

ينعقد بما للشعر من أثر في النفوس يهزها هزا عنيفا ويدفعها إلى ما يرمى إليه دفعا قويا وحسبك أن تعرف من ذلك أنهم حين عللوا نزول القرآن نثرا وذكروا أن نزوله على هذا النهج لكي يقر في النفوس أن تأثيره البالغ في قلوب سامعيه نوع من إعجازه لأن العرب قد ألفوا أن نوعا من هذا التأثير العميق يكون للشعر دون النثر فإذا استطاع القرآن أن يصل إلى ذلك التأثير العنيف وهو نثر كان في ذلك ولا ريب ضرب من الإعجاز ولو انه نزل شعر لكان من المستطاع نسبه هذا التاثير انه نظم موسيقي موزون .(١)

وهذا الخلاف على تقديم أحد فنى القول على صاحبه هو الذى جعل بعض النقاد يرى أن الأديب الكامل هو الذى يجمع بين الشعر والنثر، قال صاحب الصناعتين " ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا "(٢) وقد وازن بعض النقاد بين فنون القول الثلاثة : الرسائل والخطب والشعر من حيث الصياغة فرأى أن لكل منها مجالا لا يصلح له سواه يقول أبو هلال العسكرى : " الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ... إلا أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلا بتكلفة وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة ، ومما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة أنهما مختصان بأمر الدين والسلطان وليس للشعر بهما اختصاص ... ولكن له مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها "(٣) .

وعلى أية حال فالأدب الجاهلى غنى بشعره في فنونه المختلفة من الحماسة والفخر والمديح والهجاء والرثاء والوصف والغزل والعتاب والاعتذار والحكمة ....

---

١ ـ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص٢٢ ط صبيح ١٩٦٠م
٢ ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري ط١ ص١٣٣ ط صبيح .
٣ ـ الصناعتين جـ ١ ص ١٣٠ وما بعدها .

. . . . . الخ . كما أنه لم يحرم من النثر الفني فيما أفلتته عوادى الزمن من الخطب والرسائل والوصايا والمحاورات والمنافرات والأمثال والحكم والقصص والأخبار ففى أدبنا الجاهلى الشعر وفيه النثر ، وفيه المنظوم وفيه المنثور وذلك شئ نزهو به ونعتز ونقدره حق قدره لا نشكك فيه ولا ننتقص من مكانته لأنه تراث أمتنا ودليلها على عظمة لغتها وأصالة أدبها وحيوية ابنائها .

الفصـــل الثانى
الشعر الجاهلى : نشأته ومكانتـــه

الشعر قديم فى حياة المجتمع البشرى وقد نطق به الإنسان وهو فى حالـــة الفطرة والحياة خالية من كل تعقيد والبواعث التى يجوز أن تكون قد استفـــزت الإنسان فى عهد الفطرة إلى النطق بالشعر كثيرة ، وقد لا تكون فى جوهرهـــا مختلفة كثيرا عن البواعث التى ينظم فيها الشعر فى عصرنا الحديث .

والشعر فن جميل يؤثر تاثيرا عاليا بموسيقاه ومعانيه وأخيلته ومخاطبتـــه للعواطف والمشاعر والأحاسيس .. ومجال الشعر فى الحقيقة هو الشعور ولذلـك فإن إثارة الشعور والإحساس مقدمة فى الشعر على إثارة الفكر ، والشاعر فى عملـة الفنى يستثير القارئ أو السامع بوسائله الفنية ، وقوة الشعر تتمثل فى الإيحـــاء بالافكار والخواطر عن طريق الصور ، والعنصر الموسيقى فى التعبير يزيـــد فى الإيحاء ويقوى من شأن التصوير ، والكلمات والعبارات فى الشعر يقصد بهـــا بعث صور إيحائية وفى هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيهـــا التصويرية الفطرية فى اللغة .(١) .

وبهذه المقومات والعناصر يمكننا أن نفهم معنى الشعر بسمته الفنى الراقى وتعبيره الجميل المو ثر ... ولقد عرف العرب هذا الفن من قديم الزمـــان وتعلقوا به وأبدعوا فيه ... وليس من السهل على الباحث أن يهتدى إلى تاريـخ صحيح لمولد هذا الفن الجميل عند العرب فهم أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائعهم وتشدو به ملكاتهم إذا حلوا او ارتحلوا فى ظعنهم وإقامتهم ، وعند الخوف والهلع أو فى حال الأمن والطمأنينه ... فى الحرب أو فى السلام (٢) .

ويرى بعض الباحثين أن نشاة الشعر ترجع إلى ما قبل الإسلام بنحو قـــرن ونصف أو قرنين من الزمان على الأكثر ... يقول ابن سلام الجمحى :

" ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجتـــه وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف" (٣)

١ـ المدخل ص ٤٣٥

٢ـ الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام ص ١٢٢

٣ـ طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٧ .

والأصمعي يقول " إن المهلهل أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر " ويقرر " بروكلمان " أن شعر العرب كان فنا مستوفيا لأسباب النضج والكمال منذ ظهر العرب على صفحة التاريخ ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرا صحيحا عن أولية الشعر " (٢) والواقع أن الشعر العربي نشأ في أول أمره نشأة بسيطة ساذجة بتأثير الطبيعة وما فيها من وحدة الإيقاع والنغم والتكامل المحكم، وبتأثير عوامل الحياة المختلفة ... يقول ابن رشيق " كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الاجواد لتهز نفوسها إلى الكرم وتدل ابناءها على حسن الشيم فتوهموا اعاريض فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لانهم شعروا به اى فطنوا له " (٢) .

وقد ظل الشعر ينمو ويتطور ويتدرج في مراتب الرقي والاكتمال الى ان وصل الى مرحلة القصيدة التي كانت بحق حدثا فنيا جديدا في العصر الجاهلي بعد ان بدا الشعر بالبيت والبيتين ينظمهما الشاعر تعبيرا عن مشاعره الفياضة واحاسيسه المتدفقه ...

والحقيقة التي نطمئن إليها أن الشعر قد تهذب وترقى في زمن لا نعرفه ولا يمكن أن نهتدي إليه لأن العرب لم تساعدهم كتابة ولم يسعفهم تدوين وما حاق بالأمم السابقة من أحداث جسام قد عفى على الآثار وأسدل على آدابها وأشعارها ستائر النسيان والزوال إذ ليس من المعقول أن تظل الشاعرية غافية محتجبة وفجأة على عهد فلان أو غيره تتفتح وتزدهر وانما الأمر قد جرى من غير شك على سنة التطور والارتقاء لا سيما إذا علمنا أن تراثا ضخما لم يصلنا وضاع إلى الأبد ..... يقول أبو عمر وبن العلاء " ما جاءكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم كثير وشعر كثير " (٣) ولعل الشعر قد تدرج وتطور وانتقل من مرحلة السجع الى مرحلة الوزن وانه بدأ بأوزان شبيهة بالنثر مثل الرجز ثم انتقل الى الأوزان الطويلة بعد ذلك (٤) . وقد يعثر الباحث

---

١ ـ تاريخ الأدب العربي جـ١ ص٤٤ ترجمة عبد الحليم النجار .
٢ ـ العمدة جـ ١ ص ٧ ط حجازي .
٣ ـ المزهر للسيوطي جـ٢ ص ٢٩٤
٤ ـ البناء الفني للقصيدة العربية لخفاجي ص٢٤ .

على بعض القصائد يضطرب فيها الوزن ولا يستقيم أو لا يتفق مع الأنماط المعروفة في الشعر الجاهلي وذلك دليل من دلائل التطور الفني في الشعر الجاهلي (١) ومن هنا فإننا نخالف مخالفة تامة من ينكر الطبع في الشعر ويدعي أن الصنعة أول مذهب يصادفنا في الشعر العربي . (٢) إذ أنهم أطلقوا هذا الحكم من واقع المروى المأثور من الشعر ولم ينظروا بعين الاعتبار إلى تلك الفترات المجهولة في تاريخ نشأة الشعر العربي .

لقد بدأ الشعر إذن ببيت أو بيتين ثم بأبيات قليلة وصلت إلى سبعة أو عشرة ثم زادت على ذلك فكانت القصيدة المعروفة وكان للمهلهل ربيعة ابن عدي دور كبير في تقصيد القصائد فقد قالوا عنه إنه أول من هلهل الشعر وأرقه (٣) .

ثم انتقلت القصيدة إلى مرحلة جديدة من النضج والاستواء في صورة فنية متكاملة تمثلت في " المعلقات " ذات الموسيقى الشعرية الواحدة والقافية الموحدة والنهج الفني المتميز وقد ظفرت المعلقات بعناية بالغة من النقاد والدارسين والباحثين من الشرق والغرب مما يدل على مكانتها الممتازة ومنزلتها السامية كما يدل على مدي التطور الفني الذي مرت به القصيدة العربية منذ نشأتها ولعل ما تمتازبه هذه المعلقات من فنية الأداء وإحكام الصياغة قد دعا بعض الباحثين إلى إنكار نسبتها للجاهلية وأضفى عليها سمة الانتحال . (٤) وتعتبر هذه المعلقات من أقوى الأدلة على النضج الفني في الشعر الجاهلي الذي يحلو للكثيرين ويطيب لهم أن يصفوه بالسطحية والسذاجة والبساطة .

وإن من يتأمل الشعر الجاهلي الذي انتهى إلينا وسلم من الضياع لتروعه كثرته وكثرة شعرائه فما بالنا لو انتهى إلينا كله !! وبحسب الدارس أن ينظر في الأغاني والأمالي والحماسة والكامل والمفضليات وطبقات الشعراء والشعر

---

١ ـ العيون الفاخرة لابن برى ص٨٦ وسيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٤
٢ ـ شوقي ضيف " الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٢٤
٣ ـ الأغاني جـ٥ ص٥٧ ط دار الكتب
٤ ـ في الأدب الجاهلي لطه حسين ص٦٥ ط دار المعارف

والشعراء والعمدة وزهر الآداب وغيرها من كتب التراث ليرى ما تروعه رؤيته وما يزيد من شوقه ولهفته ... يذكر المؤرخون أن حمادا كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة وأن خلفا كان يحفظ ستة عشر ألفا (١) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن العرب أقوى الأمم شاعرية وأشعر الأمم السامية وان الشعر أصيل فيهم يقولونه بالفطرة والسليقة ويصدرون فيه عن طبع سمح ونفس فياضة وعواطف متدفقة ومشاعر متألقة . لقد كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب المعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم والمصور لآمالهم وآلامهم والواصف لحياتهم ومشاهد الوجود بينهم أو دعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وآثارهم وذكرياتهم وخواطرهم وخلجات نفوسهم وأوصاف بيئتهم ولذلك كان للشعر سحره وروعه تأثيره في نفوسهم إذ كان صوت القبيلة ولسان القوم والزائد الحامي الذمار والمدافع عن الأحساب والأنساب والناطق بالحجة والبيان والداعي الى المفاخر والمحامد والتمسك بالتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد . (٢)

وأمة العرب هواها بالشعر موصول ، وشهرتها بالفصاحة مأ لوفة ومنزلتها في البلاغة معروفة وطلاقتها في التعبير والبيان مشهود لها بلا جدال ..... و من أسرار شاعرية العرب صفاء قرائحهم وسرعة خواطرهم وتوقد أحاسيسهم وما جبلوا عليه من طلاقة وحرية وعزة وأنفة وإباء للضيم وشهامة وشجاعة ، وجرأة وإقدام وهيام بالجمال ، وعشق للتنقل والترحال ، وكلف بالمفاخر والمحامد والأمجاد وزهو بالبطولة والسيادة وفصاحة اللسان وحسن البيان .. أضف الى ذلك اعتمادهم على الحفظ والذاكرة لا على الكتابة والتدوين لمكان الأمية منهم والشعر أسهل في الحافظة وأعلق بالذهن ... وقد ساعدهم على ذلك لغة غزيرة المادة كثيرة المفردات غنية بشاعرية انغامها وعذوبة موسيقاها عجيبة باقتدارها على تلبية حاجاتهم والتجاوب مع مشاعرهم وعواطفهم ... فليس بعجيب اذن ان يكون العرب اشعر من غيرهم وان يقولوا الشعر بالفطرة والطبيعة والغريزة على اختلاف مشاربهم واهوائهم وتنوع امزجتهم وميولهم وتفاوت مراتبهم ودرجاتهم ... وليس

---

١ ـ الوفيات جـ ١ ص ٢٨٨

٢ ـ الشعر الجاهلي لخفاجي ص ١٩٥ .

غريبا أن تكون للشعر هذه المنزلة الممتازة والمكانة الرفيعة فى نفوسهم وأن يكون للشعراء نصيب موفور من الاحترام والتوقير فى هذه البيئة الجاهلية التى أمدتنا بهذا الفيض الدافق والبحر الزاخر من الشعر الغزير مع أنه قليل من كثير ضاع معظمه وفقد أغلبه بسبب عدم التدوين وموت كثير من الرواة فى الغزوات والفتوح .. يقول ابن خلدون .. " اعلم أن فن الشعر بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون إليه فى الكثير من علومهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشعراء وأهل البصر " (١).

وروى عن الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : كانت الشعراء عند العرب فى الجاهلية بمنزلة الأنبياء فى الأمم حتى خالطهم أهل الحضر فاكتسبوا بالشعر فنزلوا عن رتبتهم " (٢) وكان الرجل لا يسمى الكامل إلا إذا كان يكتب ويحسن الرمى ويحسن العلوم ويقول الشعر (٣) . وكانوا يسمون الشاعر العالم والحكيم . وثمة أخبار تدل على أن العرب كانوا يقدسون الشعر وأن هذا التقديس كان مستمدا من أصله الدينى ولذا كانوا ينشدونه على موتاهم .. (٤) وكانوا يتخذونه وسيلة للتقرب إلى آلهتهم فى موسم الحج فيلبون بأشعار معينة وهم يطوفون حول الكعبة .

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، ووضعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج " (٥) .

---

١ ـ المقدمة ص٥٣٥ ص٥٤٧

٢ ـ الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية لأبى حاتم الرازى تحقيق حسين ابن فيض الله الهمذانى ج ١ ص٩٥ ط١٩٥٧ .

٣ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبه ص١٦٨

٤ ـ الفهرست لابن النديم ص١٣٨

٥ ـ العمدة ج ١ ص ٤٩ .

كذلك كان الشعر قوة فعالة في الحياة الجاهلية وكان له تأثيره في نفوسهم وسلطانه القوي عليهم يرفع الخامل الوضيع ويضع الفذ العظيم وينوه بشأن القبيلة ويزري بأعدائها وخصومها ويتوسل به الشعراء فتقبل شفاعتهم.

يروى أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به فأشارت امرأة المحلق عليه أن يسبق الناس إلى ضيافته فنحر له وسقاه وبالغ في إكرامه فسأله الأعشى عن حالة فعرف البؤس في كلامه وذكر بناته فقال الأعشى: كفيت أمرهن وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته التي يقول فيها:

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوء نار باليفاع تحرَّق
تشبُّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلَّق

فما أتم القصيدة حتى انسل الناس إلى المحلق يهنئونه وتسابق الأشراف الى بناته يخطبونهن فلم تمس واحدة منهن إلا وهي في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف (١).

ويروى أنه لما أسر الحارث الغساني شاس بن عبدة مدحه أخوه الشاعر علقمه بن عبدة بقصيدته التي يقول فيها:

فلا تحرمني نائلا عن جنايةٍ ... فإني امرؤ وسط القباب غريب
وفي كل حي قد خبطت بنعمةٍ ... فحُق لشاس من نداك ذنوب

فقبل الحارس شفاعة الشعر وقال: أي والله وأذنبة وأطلقه مع قومه وأثقلهم بالمنح (٢).

ومما حفظ للشعر مكانته ومنزلته أنه كان ينبع من طبع الشاعر ويتفجر من احساسه لا تتحكم فيه صنعة ولا تستبد به كلفة ولا يعمد صاحبه إلى تنقيح أو تجويد ليكتسب رضا كبير أو يصل إلى عطف عظيم إذ هو معدود في أشراف الناس ومحسوب في مكانة الرياسة والتعظيم. يقول ابن رشيق "كانت العرب لا تتكسب بالشعر

---

١ ـ العمدة جـ ١ ص ٣٥
٢ ـ العمدة جـ ١ ص ٤٢ وما بعدها.

وانما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها .. حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر فسقطت منزلته وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة ... وتكسب زهير بن أبي سُلمى بالشعر يسيرا مع هَرِم ابن سنان .. فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان وقصد حتى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته علما بقدر ما يقول عند العرب.." (١)

وألح الحطيئة في التكسب بالشعر حتى لم يترك أحدا لا يرجى منه نفع الا مدحه طمعا في نواله أو هجاه يأسا من عطائه ، ولئن كان الشعراء يمدحون الملوك ويتزلفون إلى الرؤساء استدرارا لما عندهم من منح فان الحطيئة على جلاله شعره وعظم منزلته فيه لم يانف من ان يقصد العامة ويسترفد اطراف الناس وغمارهم ... ومن غير شك فإن جوهر الشعر قد تأثر حين اتخذه الشعراء سلما الى الأغراض المادية وذريعة إلى الكسب المادي وذلك حين أخذ الشاعر يشحذ همته ويصقل ذهنه ويراجع فكره ويهذب بيانه ويجود فيما تفيض به شاعريته من ألوان القول ليكتسب رضا الممدوح ويستحوذ على إعجابه وتقديره حتى ان زهيرا كانت له قصائد يستغرق في إبداعها ومراجعتها وعرضها حولا كاملا ولذلك سميت " الحوليات " وأطلق على هؤلاء المجودين أصحاب الروية والأناه والتجويد والتحبير " عبيد الشعر " يقول الأصمعي "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما " عبيد الشعر " وكذلك كل من يجود في جميع شعره ويقف عند كل بيت قاله ويعيد النظر فيه حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة وكان الحطيئة يقول " خير الشعر الحولي المحكك المنقح ... " (٢) والجاحظ يقول " ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه (٣) .

ويقول ابن جنّي ليس جميع الشعر القديم مر تجلا بل قد يعرض لهم فيه من الصبر عليه والملاطفة له والتلوم على رياضته وإحكام صنعته نحو مما يعرض

---

١ ـ العمدة جـ ١ ص ٦٤
٢ ـ البيان والتبيين جـ ٢ ص ١١ الشعر والشعراء ص ١٦
٣ ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ٧٠

لكثير من المولدين ألا ترى إلى ما يروى عن زهير من أنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين فكانت تسمى حوليات زهير "(١) .

كذلك كان من نتيجة التكسب بالشعر أن تطامنت منازل الشعراء وغض هذا التكسب من أقدارهم فانصرف عنه كثير من رؤسائهم وأنفوا من قوله وإن ظلوا يرهبون سلطانه ويخشون بأسه وسطوته ويعرفون له قدره ومنزلته .

الفصل الثالث

الشعر الجاهلي : أصالته ومصادره ودفع دعوى الانتحال فيه

العرب أمة أمية لا تعتمد في حياتها على كتابة ولا تستند في أمورها إلى تدوين ، ومن شأن الأمي الذي لا يلجأ إلى صحيفة يستودعها أسراره أو يفزع إلى قلم يملي عليه معارفه أو أخباره أن يعتمد على ذاكرته ويتكئ بكل ما أوتي من قوة على حافظته كي لا يضل ولا ينسى .. وهكذا كان للعرب في باديتهم العتيدة كتبهم الحافظة وسجلاتهم الذاكرة يقول مصطفى صادق الرافعي : " كان العرب أمة أمية لا يقرأون إلا ما تخطه الطبيعة ولا يكتبون إلا ما يلقنون من معانيها فيأخذون عنها بالحس ويكتبون باللسان في لوح الحافظة ـ فكان كل عربي على مقدار وعيه وحفظه كتابا أو جزءا من كتاب وكانت كل قبيلة بذلك كأنها سجل زمني في إحصاء الأخبار والآثار ... "(١) ويقرر الرافعي ذلك ويؤكده فيقول : " كان العرب بطبيعتهم اثبت الناس حفظا واتمهم حافظة وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي ومن ثم نشأ فيهم الأخذ والتحمل فكان كل عربي بطبيعته راويا فيما هو بسبيله من أمره وأمر قومه .. "(٢) وقد ورد في صحيح مسلم والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال .. إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ، الشهر هكذا وهكذا ـ يعني مرة تسعا وعشرين ومرة ثلاثين .. "(٣)

ومع هذه الحقيقة المؤكدة وجدت صنعة الكتابة وتعلق بها بعض من وهبوا نعمة الطموح والرغبة في الامتياز على البيئة التي يعيشون فيها وخاصة في المواطن التي تتسم الحياة فيها بالاستقرار مثل مكة ويثرب والحيرة ولذلك وجدت الكتابة في بلاط المناذرة والغساسنة وعند أهل مكة وظهرت آثارها فيما عقدوه من أحلاف ومعاهدات .. (٤) .

---

١ ـ تاريخ آداب العرب جـ١ ص٢٧٨
٢ ـ نفسه ص٢٧٩
٣ ـ أدب الكتاب للصولي ص ٢٤١
٤ ـ نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي لعبد الحميد المسلوت ص٨ .

لكن وجود الكتابة والكتاب عند العرب في الجاهلية كان أمرا نادرا لا يتأتى معه انتفاء صفة الأمية عن العرب ولذلك ظل اعتمادهم على الذاكرة ثابتا حتى بعد شيوع الكتابة ، فقد كانت الصدور أوثق من الكتب لتوافر الرجال وللحاجة الملحة إلى التحقق من عدالة الرواة ... ولهذا فإننا نتلقى بحذر وبكثير من التحفظ ما يقرره بعض الباحثين من أن الجاهلية العربية عرفت الكتابة معرفة قديمة واسعة واستخدمتها في جل شئونها وكتبت بعض شعرها وأخبارها وأنسابها ودونتها في صحف وكتب ودواوين فالقول إذن بأمية الجاهلية فرض واهم يجب أن نسقط جميع ما رتب عليه من نتائج باطلة ... " (١) .

لقد عرف العرب الكتابة فعلا وفي أشعار الجاهليين ما يدل على أنهم عرفوها فلبيد بن ربيعة يشبه آثار الديار بالكتابة في رقيق الأحجار ويقول إن السيول أزاحت عن الطلول ما علق بها من تراب فأصبحت كأنها كتب طمست فجدد بعضها وترك ما تبين منها فهي مختلفة :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمقامُها ... بمنى تأبَّد غَوْلُها فرِجَامُها
فمدافع الرَّيَّان عُرِّي رسمُها ... خلقا كما ضَمِن الوُحِيَّ سِلامُها
وجلا السيولُ عن الطلول كأنها ... زبر يُجِدُّ متونَها أقلامُها (٢)

ويشبه المرقش الأكبر الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها فيقول :

الدار قَفْرٌ والرُّسوم كما ... رَقَّشَ في ظهر الأَدِيم قلم (٣)

وامرؤ القيس يصف آثار الديار التي عفت بأنها أصبحت كالخطوط في الصحف :

---

١ ـ ناصر الدين الأسد في " مصادر الشعر الجاهلي " ص ١٧١
٢ ـ عفت : درست وانمحت ـ المحل : حيث يحل القوم لأيام معدودة ـ المقام : المجلس الذي تطول الاقامة فيه ـ منى : موضع غير منى الحرم تابد : توحش ـ الغول والرجام : جبلان او موضعان ـ المدافع : الأماكن التي يندفع عنها الماء من الربى ـ الريان : جبل معروف ـ الرسم : آثار الديار ـ خلقا : دروسا ـ الوحي : جمع وحي وهو الكتابة ـ السلام : الحجارة الرقيقة ـ الزبر : الكتب والمفرد زبور ـ تجدد : تجدد .
٣ ـ رقش : زين ونمق .

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ... وربع عفت آياته منذ أزمان
أتت حِجَج بعدى عليها فأصبحت ... كخط زَبُور فى مصاحف رهبان

ويقول حاتم الطائى :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما ... كخطك فى رَقٍّ كتابا منمنما

وقول حسان بن ثابت :

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخط الوَحْى فى الورق القشيب

وهكذا مما يؤكد أن الكتابة كانت معروفة للجاهليين ويدحض رأى المفكرين وادعاءهم أن جميع اشعار الجاهليين منحولة يقول " بروكلمان " " ومن ثم يعد خطأ من " مرجليوث " و " طه حسين " أن أنكرا استعمال الكتابة فى شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام بالكلية ورتبا علىى ذلك ما ذهبا إليه من أن جميع الأشعار المروية لشعراء جاهليين مصنوعة عليهم ومنحولة لأسمائهم .... " (١) .

ثم إننا بعد ذلك نتساءل : هل الكتابة القليلة التى وجدت عند العرب والتى استعملت فى المحالفات والعهود والمصالحات وبعض الرسائل - هل هذه الكتابة استعملت كذلك فى تدوين الشعر وحفظه أو نشره ونقله من مكان إلى مكان ؟؟ وهل كان الشعراء يكتبون هذه الأشعار التى يعرفون قيمتها وقدرها ؟؟ أو بعبارة أخرى .. هل كانت قبائلهم - وهى الحريصة على جمع أشعار أبنائها وتخليدها والمباهاة بها تستعمل الكتابة لحفظ هذا الشعر وإذاعته فى القبائل أو إنشاده فى الأسواق ؟؟ .

---

١ - تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٦٤

يقول ناصر الدين الأسد [١] فإذا كانت القبائل تقيد عهودها ومواثيقها كما مر بنا ـ أفليس من الطبيعي إذن أن تقيد شعر شعرائها الذين يدافعون به عن حياضها ، ويذودون به عن أمجادها ، ويسجلون به وقائعها وأيامها ويعددون فيه انتصاراتها ومآثرها ونحن نعلم أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس .... "ونقول : لقد كان من الطبيعي فعلا أن تقيد العرب شعر شعرائها كما كانت تقيد عهودها ومواثيقها لو أن ذلك كان متيسرا لها ومتاحا لسائر الشعراء في مختلف بيئاتهم لكننا نعلم علم اليقين مدى ما كانت عليه وسائل الكتابة من مشقة وعسر وأدوات مرهقة إذ كانت الصحف الذائعة في ذلك الوقت مكونه في الغالب من الحجارة أو سعف النخل أو العظام او الجلود ونحوها مما يجعل كتابه الاشعار ونقلها بهذه الصور العسر والصعوبة بمكان وليس امر العهود والمواثيق وما اليها من الصعوبة كامر الشعر فانه من الكثرة والوفرة بحيث يحتاج تدوينه الى متاعب وجهود تثقل الكاهل وينوء بحملها الرجال ثم بعد ذلك ياتي على ما فيه ايسر اسباب التلف ايهما كان . [٢]

ومع ذلك فقد يصح أن العرب في بعض المواطن المستقرة من مثل مكه ويثرب والحيرة قد لجأت إلى تدوين بعض أشعارها المتميزة في صحف إجلالا لها وتقديرا لشأنها وتنويها بشرفها وفضلها فقد قالوا إن المعلقات التي رواها حماد الراوية إنما سميت معلقات لأن العرب بلغ من كلفها بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير والمذهبات السبع وقد يقال لها المعلقات " يقول ابن رشيق :

---

١ ـ مصادر الشعر الجاهلي ص١٠٩

٢ ـ الرافعي : تاريخ آداب العرب جـ ١ ص٣١٣

" وكانت المعلقات تسمى " المذهبات " وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال " مذهبه فلان " اذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول ! علقوا هذه لتكون في خزانته ..... ، (١) ولعل هذا الملك هو النعمان بن المنذر الذي كان لديه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو واهل بيته فصار ذلك إلى بني مروان أوصار منه (٢) .

ويرى ابن خلدون أنه لم يكن يتوصل إلى تعليق الشعر بالكعبة إلا من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في " مضر " على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ... (٣) ويذكر البغدادي أن العرب في جاهليتهم كان الرجل منهم يقول الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخرا لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وان لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب .. (٤) .

ويروى كذلك أن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ـ الكراريس ـ ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيد عام ٦٧ هـ قيل له إن تحت القصر كنزا فاحتفره فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة . (٥)

---

١ ـ العمدة جـ ١ ط ٧٨

٢ ـ طبقات الشعراء ص ٢٣

٣ ـ المقدمة ص ٥١١

٤ ـ خزانة الأدب جـ ١ ص ٨٧

٥ ـ الخصائص جـ ١ ص ٣٩٢

هكذا يروي الرواة وهكذا يقول القائلون وذلك كله يمكن أن يكـــــون صحيحا ويمكن أن يستقيم مع ما عرف من تاريخ العرب في بعض مواطنهـــــم لكننا نكاد نجزم بأن أولئك الشعراء الذين يسكنون البادية ويضربون فـــي بطونها وأوديتها ويحلون ويرتحلون ولا يعرفون الاستقرار في مكان ..... أولئك الشعراء لم يعرفوا الكتابة ولم يكونوا ليتخذوها أداة لحفظ أشعارهم حتى لو أتيح لهم أن يعرفوها لأنهم كانوا أساسا يعتمدون على الروايـــة الشفوية ونشرها على الناس بالتناقل والإنشاد . ولذلك نرى أن " بروكلمـان " يقرر أن الكتابة لم تقض على الرواية الشفوية فقد كان لكل شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية يصحبه ويروي عنه أشعاره وينشرها بين الناس وربمـا احتذى اشارة الفنية من بعده وزاد عليها من عنده ، وكان هؤلاء الرواة يعتمدون على الرواية الشفوية ولا يستخدمون الكتابة إلا نادرا .. (١)

الحافظة القوية التي لا تخون كانت إذن هي وسيلتهم في حفظ الشعر ، والرواية الشفوية التي ألفوها ومرنوا عليها حتى أصبحت جزءا من طبيعتهم ولمحة من حياتهم كانت هي الأساس في نشر أشعـــارهم وإذاعتها في الناس فلا يوجد شاعر إلا وحوله رواة وغالبا ما يكونون شعراء يأخذون عنه ويتعلمون منه وينشرون شعره ويتعصبون له ..

فالأعشى كان راوية لخاله المسيب بن علس " و " أبو ذؤيب الهذلي " كان راوية لساعدة بن جؤية ، و "طرفة بن العبد " كان راوية لعمـــــه " المرقش الأصغر " كما كان يروى عن خاله " المتلمس " وكان " زهيـــر بن أبي سلمى المزني " راوية لأوس بن حجر التميمي ، وروى لزهير كعب ابنه والحطيئة وروى عن الحطيئة " هدبة بن خشرم " وروى لجميـــــل كثير وهكذا تتصل الروايات وتلتحم المذاهب والاتجاهات .

---

١ ـ تاريخ الأدب العربي جـ ١ ص ٦٤

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا شعر جاهلي منسوب لأصحابه من شعراء الجاهلية ، وقد تكاتفت على حفظه من الضياع وحمايته من الاندثار شاعرية العرب وقد رتهم العجيبة على الحفظ وما أتيح له من رواة ثقاة كلفوا به وتعشقوه فحفظوه وأذاعوه وأنشدوه في كل محفل وفي كل مجتمع وحملوه وانتقلوا به من جيل إلى جيل ومن قبيل إلى قبيل وانقادت لهم الملكات وتألقت بهم المواهب .. كذلك كان لتلك القبائل التي ينتمي إليها الشعراء دور بارز في حفظ هذا الشعر من الضياع فقد عنوا به وحفظوه وأنشدوه وأذاعوه باعتباره عنوان مجدهم وسجل مفاخرهم وديوان مآثرهم . (١)

وفي عصر صدر الإسلام لم يغفل الشعر ولم يهمل وان كانت الشواغل الصارفة والمهام الجديدة قد حالت بين الناس والانقطاع لروايته أو الاهتمام بكثرة إنشاده وإذاعته ولم يفرغ للشعر بالهم إلا حين يتخففون من متاعب الغزو وأعباء الحياة الجادة في ظلال الدين الجديد متوجهين إلى قصص سالف أو شعر قديم . يقول ابن سلام (٢) : " وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون .... قال عمر ابن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الاسلام واطمانت العرب بالأمصار وراجعوا رواية الشعر فلم يئلو إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير " وقد قيل لبعض الصحابة : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستروح أحيانا بالاستماع إلى شعر الجاهلية وكان ينشد بعض الأبيات على غير وجهها التام الموزون ، وله

---

١ ـ نظرية الانتحال ص ٢٢

٢ ـ طبقات الشعراء ص ٢٢ .

أقوال مأثورة فى الحكم على بعض شعرائهم من مثل ما روى انه صلى الله عليه وسلم استمع الى شعر " أمية بن الصلت " فقال (آمن لسانه وكفر قلبه) (١) وانه استمع الى شعر امرئ القيس فقال (هذا رجل يجئ يوم القيامة ومعه لواء الشعر الى النار ، أو أنه أشعر الشعراء وقائدهم الى النار) (٢) وانه كان يقول (أصدق كلمة قالها لبيد " ألا كل شئ ما خلا الله باطل " (٣) وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه نسابة راوية للشعر ويستشهد به فى مواقف مختلفة (٤) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعلم الناس بالشعر ولا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر على ما يذكره محمد بن سلام الجمحى (٥) وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يحفظ الشعر وينشده فى خطبه وكتبه وكذلك كان على بن أبى طالب كرم الله وجهه يكثر من الاستشهاد بالشعر .

وفى عهد بنى أمية كانت هناك عناية بالشعر الجاهلى وحرص عليه وتقدير له كما كان هناك رواة يحفظونه وينشدونه وينشرونه ويجمعونه من أفواه البدو والأعراب وربما استعانوا على ذلك بما أتيح لهم من معرفة الكتابة والاعتماد على التدوين ، وقد روى أن كتب أبى عمرو بن العلاء التى كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا إلى قريب من السقف ولكنه تنسك فى آخر أيامه فأحرق هذه الكتب يقول الجاحظ : (٦) " فأما أبو عمرو فكان أعلم الناس بأمور العرب مع صحة سماع وصدق لسان ، وحدثنى الأصمعى قال : "جلست إلى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى ، وقال مرة : لقد كثر هذا المحدث

---

١ ـ الشعر والشعراء ص ١٧٦
٢ ـ العمدة جـ ١ ص ٧٦
٣ ـ الشعر والشعراء ص ٣٩
٤ ـ أدب الكتاب للصولى ص ١٨٩ وما بعدها .
٥ ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠٤
٦ ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٥٥ وما بعدها .

وحسن حتى هممت أن آمر فتياننا بروايته يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما ، وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وأيام الناس ، وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان وكانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ثم انه تقرأ أى تنسك فأحرقها كلها فلما رجع بعد الى علمه الأول لم يكن عنده الا ما حفظة بقلبه وكانت أخباره الهامة عن أعراب قد أدركوا الجاهلية .. لقد كان أبو عمرو بن العلاء المتوفى عام ١٥٤هـ أو ١٥٩ هـ على رأس رواة البصرة وكان دقيقا متشددا متعصبا للقدماء لا يحتج ببيت إسلامى .

ومن رواة البصرة " خلف الأحمر " المتوفى عام ١٨٠ هـ وهو ابو محرز خلف بن حيان المعروف بالأحمر كان أعلم الناس بمذاهب الشعراء ومعانيها وأبصرهم بوجوه الخلاف بين ما يتميز به شاعر وشاعر فإذا عمد إلى وضع الشعر ونحله وحاكى شعر الذى يضع عليه فأتقن الصنعة وأحكم المحاكاة فلا يتميز هذا الشعر من ذاك إلا عند عالم ناقد ، يقول ابن سلام :(١) " اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لسانا ، كنا لا نبالى اذا أخذنا عنه خبرا او أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه " ويقول المبرد : (٢) " لم ير أحد قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف وكان يضرب به المثل فى عمل الشعر ، وكان يعمل على السنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ثم نسك فكان يختم القرآن كل يوم وليله وبذل له بعض الملوك مالا عظيما خطيرا على ان يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك....

ومن رواة البصرة الأصمعى المتوفي عام ٢١٥هـ وكان آية في سرعة الحفظ ، وكان يحفظ ستة عشر الف أرجوزه دون الشعر والأخبار وكان ثقة عدلا يقول فيه ابن جنى (٣)

١ــ طبقات الشعراء ص ٢١

٢ــ مراتب النحويين ص ٥٧ وما بعدها

٣ــ الخصائص جـ ٣ ص ٣١١ .

"هو صناجة الرواة والنقلة واليه محط الأعباء والثقلة .. كانت مشيخه القراء وأماثلهم تحضره وهو حدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم كم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته لأنه لم يقو عنده اذ لم يسمعه ، واما إسفاف من لا علم له وقول من لا مسكة به أن الأصمعي كان يزيد في كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفو عنه غير معبوء به " .. وللأصمعي مجموعته التي جمعها من الشعر القديم وسماها الأصمعيات، ورويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة لامرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة ، وكان على رأس رواة الكوفة حماد بن ميسرة ابن المبارك المعروف بحماد الراوية والمتوفى عام ١٥٦ هـ يقول عنه المدائني (١) إنه من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، ولحماد هذا شهرة بوضع الشعر ونحله ولذلك كان متهما ومشكوكا في روايته وانه يقول الشعر وينحله شعراء العرب ، يقول المفضل الضبي " قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصح ابدا ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ولكنه رجل عالم بلغات العرب واشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟!

ويقول محمد بن سلام الجمحي عنه (٢) " وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية وكان غير موثوق به كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار .. "

---

١ ـ معجم الأدباء جـ ١٠ ص ٢٥٨

٢ ـ طبقات الشعراء ص ٤٠

ومن رواة الكوفة الثقاة المفضل بن محمد بن يعلى الضبي المتوفى عام ١٧٠ هـ وكان يقوم في الكوفة مقام الأصمعي في البصرة وقد جمع من أشعار العرب مائة وستا وعشرين قصيدة أو مائة وثمانيا وعشرين قصيدة هي " المفضليات " .

ومنهم "برزخ العروضي " وكان من أكذب الناس في الرواية ومنهم "جنّاد " وكان يخلط في الأشعار ويصحف ويلحن .. وقد يكون هذا الاتهام بالوضع والانتحال على هذه الصفة حقيقة وقد يكون مبالغا فيه لكنه يبقى بعد ذلك أن العلماء تنبهوا له وعرفوه وحذروا منه وبذلوا جهودهم في بيان الزائف والمشكوك فيه ، وكان لهم إجماع أو شبه إجماع على ما هو أصيل متيقن لا يعتريه الشك فلقد هيأ الله لهذه الأمة في كل عصورها صفوة ممتازة من ثقات الناس ، يحفظون لها تراثها ودينها ولغتها وعلومها وفنونها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ..

لقد نظر القدماء في الأشعار المروية وتتبعوا القصائد فقالوا إن هذه صحيحة أو منحولة أو هذه القصيدة لفلان وليست لغيره ممن نسبت اليه زورا .. وهكذا كان الثقاة من القدماء يتعقبون جماعة المنتحلين الوضاعين بالنقد والتمحيص لتخليص هذه الثروة مما لحقها من شوائب او ساورها من كدر وتعكير ، بل ان الرواه انفسهم كان يتعقب بعضهم بعضا كاشفين عما يكون قد لحق رواياتهم من خطأ أو كذب او تزييف (١) والأستاذ لطفي جمعه في الشهاب الراصد (٢) يقرر أن العلامه " تيودور نلدكه " احد اقطاب المشرقيات قال في الفصل الذي عقد للرواه والمعلقات (ج ١١ ص ٥٣٦ من موسوعات العلوم البريطانية المطبوعة التاسعة) ان ابا عبيدة والمفضل كانا من ذوى العناية والتدقيق والضبط في الاحتفاظ بالنصوص الاصيلة للمعلقات ، وان حمادا الراوية

---

١ ـ نظرية الانتحال ص ٥٣

٢ ـ ص ٢٥٧ .

كان من موالى بكر بن وائل ، ولكن نسبته الى بكـــر لم تمنعه من روايـــة مطولة " عمرو بن كلثوم " وفيها تمجيد بنى تغلب ألد أعداء بنى بكـــر فى الجاهلية فحفظها حماد ورواها على ما فيها من المساس بكرامة مواليه من بنى بكر . ويؤكد الدكتور عبد الحميد المسلوت " ان أمر الوضع لـــم يكن بهذه الكثرة وذلك الشيوع ، ولم يكن كذلك مبهما على العلمـــاء أو مستغلقا عليهم ، ولم يفت هؤلاء العلماء أن يتتبعوا أمره ويكشفـــوا حقيقته ، بل كان بعضهم يلتمس الإسناد لروايته مبالغة فى الاطمئنان" (١) ويقول فى موضع آخر (٢) " رأينا أن قدماء العرب من علمائهم ونقادهـــم قد فطنوا الى ما أصاب الشعر الجاهلى أحيانا من آفات الوضع وما لحقه من علل الكذب والاختلاق .. وقد اقتضتهم أمانتهم العلمية أن ينبهوا على كل ما ساورهم من شك أو داخلهم من شبه ، بل وبما أوغلوا فى الشـــك وبالغوا فى الاتهام رغبة فى تخليص الشعر الجاهلى مما يمكن أن يلحقه مـــن قتام أو يتطاير نحوه من غبار ، هذا مع قرب عهدهم بالجاهلية وسهولـــة تثبتهم من المعمرين او ممن روى من المعمرين عن أهل الجاهلية " .

وكانت قضية انتحال الشعر الجاهلى من القضايا التى درسهـــا المستشرقون وكتبوا فيها بنفوس حاقدة موتورة فى أغلب الأحيان فخلفـــوا حولها ظلالا من الشكوك القاتمة وكثيرا من الخرافات والأكاذيب الـــتى استند إليها الواهمون فى ادعاءاتهم الباطلة وأخطائهم الفادحة . يقـــول شوقى ضيف (٣) : " ولقد لفتت هذه القضية ـ قضية انتحال الشعـــر الجاهلى ـ أنظار الباحثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظـــر فيها " نولدكه " سنه ١٨٦٤م وتلاه " آلورد " حين نشر دواويـــن الشعراء الستة الجاهليين :

امرؤ القيس والنابغة وزهير وطرفـــة وعلقمة وعنترة فتشكك فى صحـــة الشعر الجاهلى عامة منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء

---

١ ـ نظرية الانتحال ص ٦٧

٢ ـ نفسه ص ٦٩

٣ ـ العصر الجاهلى ص ١٦٦ وما بعدها .

يمكن التسليم بصحته مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب ابياتها والفاظ كل منها ٠٠ وتابع كثير من المستشرقين " الورد " في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين ، امثال " موير " و " باسيه " و " بروكلمان " وكان " مرجليوث " أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالا مفصلا نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يوليه سنه ١٩٢٥م ٠ جعل عنوانه " أصول الشعر العربي"

وخلاصة ما يذهب اليه " مرجليوث " أنه لم تكن هناك وسيلة لحفظ الشعر الجاهلي سوى الكتابة ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليخلص من ذلك الى انه نظم في مرحلة زمنيه تالية للقرآن الكريم ، ويزعم أن " الوضع" في الشعر الجاهلي كان مستمرا ، ويقرر أن الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم وانما هو شعر اسلامي في روحه وجوهره ٠٠٠ ويتناول " مرجليوث " لغة الشعر الجاهلي فيلاحظ انها لغة ذات وحدة ظاهرة وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب ولو أن هذا الشعر شعر جاهلي صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب ٠٠

وقد تصدي لمرجليوث بعض المستشرقين المعتدلين من أمثال : "بروبلنش" و " ليال " وناقشوه في مزاعمه وردوا عليه ٠٠٠ فالمستشرق " ليال " يحتج عليه بان من وضعوا هذا الشعر ـ على فرض التسليم بذلك كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد ادبية موروثه قلدوها وحاكوها ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل ثابت ونموذج صحيح كانوا يحاكونه ومعنى ذلك أنه إذا كان هناك انتحال فان وراء هذا الانتحال شعر صحيح ينبغي أن نهتدي إليه ونتعرف عليه بالرواية الوثيقة والصفات الشخصية والسمات الفنية والأسلوبية المميزة ويؤكد " ليال " ان رواية الشعر الجاهلي استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دون الشعر

نهائيا في العصر العباسي ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع الى " المعلقات " مثلا يجد أن لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها ويقرر "ليال "ايضا أن تقاليد الشعر في القرن الأول الهجرى تلزم بوجود الشعر الجاهلي الذى يشترك معها في نفس التقاليد ، كما ثبت أن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدم في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على انه صحيح في جوهره وبالإضافة الى ما ذكره " ليال " نقول إن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وان الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها ، وان هذه اللغة الفصحى كانت تمثل اللهجة القرشية التي سادت لأسباب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

وقد كان بوسع اللغة الفصحى لغة قريش في هذه العهود المبكرة أن تمكن لنفسها حتى لدى عرب الجنوب الحميريين الذين هاجروا الى الشمال وهجروا لغتهم القديمة شيئا فشيئا واتخذوا الفصحى آخر الأمر لغة لهم .

ونعيد ما سبق أن قلناه : ان في الشعر الجاهلي صورا من الأساليب والتراكيب الملتوية على القواعد والأصول النحوية المعروفة مما يدل دلالة قاطعة على قدمها وصحة نسبتها الى الشعر الجاهلي وانها ليست من صنع العباسيين ، بل انها تشير الى ما كان من اختلاف قديم في لغة العرب ولهجاتها يقول البستاني في دائرة معارفه (١) " وكان أشد الخلاف بين أهل نجد والحجاز وأهل اليمن الحميرين ، وكانوا كلهم مولعين بقول الشعر ، وأرادوا أن تبقى الاتصالية في الأخبار والأحوال بين قبائلهم على اختلافها ، ولم يكن لهم كتب يدونون فيها الوقائع بحيث يفهمها الجميع فأجمع الشعراء على أن ينظموا شعرهم بألفاظ فصيحة

---

١ — ج ١٠ مادة شعر .

مشهورة شائعة بين كل القبائل وبذلك اشتركت ألفاظ اللغة العربية وشاعت بمنطوق واحد وتقررت من الجميع " .. ويقول " تشارلس ليال " في مقدمة " المفضليات " : " إنه مما لا شك فيه أنه وجد بجزيرة العرب قديما كما يوجد اليوم في كثير من أنحاء الجزيرة لهجات وفروق عظيمة ولكنا نرى فرق اللهجات في لغة الشعر قليلا - إلا في أشعار طيء - ومعناه أن لغة الشعر في أنحاء الجزيرة صارت واحدة ، ومجموعة لغات الشعر الجاهلي وكثرة المترادفات العظيمة إنما وجدت في الشعر بامتصاص تدريجي ، وبذلك نشأت لغة شعرية هضمت لهجات القبائل المختلفة ولا محالة أن هذا يستغرق زمنا يكون المشتغلون فيه لوضع هذه اللغة الشعرية وأوزانها في أقصى ما يمكن من العزم والنشاط " ثم يقول : ويظهر لنا أن هنالك أثرا من الصحة للرواية القائلة بأن سوقا سنوية كانت تعقد في الأشهر الحرم بجوار مكة ويتنافس فيها الشعراء بمآثر الفصاحة وان مثل هذه المجتمعات والأسواق هي المدرسة التي رقت الشعر وأسلوبه وأحكمت قواعده " (١) .

وفي دائرة المعارف الاسلامية الانجليزية " نتساءل كيف أمكن الشعراء وأكثرهم أميون أن يوجدوا لغة أدبية واحدة ؟ ... فعلوا ذلك رغبة منهم في انتشار أشعارهم بين جميع القبائل ، وهم إما أن يكونوا قد استعملوا كلمات وجدت في جميع لهجات القبائل بسبب الصلات التجارية بين القبائل المختلفة فأتى الشعراء وهذبوها ، واما أنهم اختاروا بعض لهجات خاصة فأصبحت هذه اللهجة لغة الشعر " (٢) .

واذا انتقلنا إلى تصوير الشعر الجاهلي للحياة الدينية الوثنية والنصرانية كان بوسعنا أن نقول إن معظم شعر العرب كان في الفخر والحماسة وان المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذي يمثل دينا

---

١ - شرح الأنباري للمفضليات ط الآباء اليسوعيين ببيروت ١٩٢٠ .
(المقدمة)

٢ - نظرية الانتحال ص ١٥٤

غير الاسلام ولا سيما دين اللات والعزى ومناة .. يقول " بروينلش " في رده على " مرجليوث " : " لاحظ العلماء أن الشعر الجاهلي قلما دل على شيء من دين العرب قبل الاسلام ، وقد ذكر بعضهم في سبب ذلك أن علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما يخالف الدين الاسلامي ويروون سائره وهذا مما يثق الانسان بوقوعه .. " (١)

وعلى الرغم من هذا كله وصلت إلينا بقية من الشعر الذي يحمل شيئا من الروح الديني نجده في كتاب " الأصنام " لابن الكلبي وغيره وقد عني محمد لطفي جمعة في كتابه " الشهاب الراصد " بإيراد طائفة من الأشعار فيها تصوير للحياة الدينية في الجاهلية من مثل قول عبد العزى بن وديعة المزني :

إني حلفت يمين صدق بـرة بمناة عند محل آل الخزرج

وقول عمرو بن الجعيد

فإني وتركي وصل كاس كالذي تبرأ من " لات " وكان يدينها

ويؤكد ذلك " جورجي زيدان " فيقول : (٢)

"ولابد انهم نظموا الاشعار ، وخاطبوا بها " هبل " و"اللات " و"العزى " وغيرها واستعطفوها وصلوا اليها وتخشعوا لها ، ولكن منظوماتهم في هذا الموضوع ضاعت في ثنايا الاجيال لعدم تدوينها ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التي قامت بينهم قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام اغضى الرواه عنها لانها وثنية والاسلام يمحو ما كان قبله ."

١ــ مجلة الأدبيات الشرقية عدد اكتوبر ١٩٢٩م.
٢ــ تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص٥٦

وكان الدكتور طه حسين واحدا من الذين انساقوا وراء " مرجليوث " وأمثاله مرددا آراءهم في كتابه الذى أسماه " في الشعر الجاهلي " الذى الفه عام ١٩٢٦ وأعاد طبعه بعد تنقيح وزيادة وحذف بعنوان :
" في الأدب الجاهلي " .. يقول طه حسين : (١) وأول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك أو قل ألح على الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء وانما هي منحولة بعد ظهور الإسلام فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ،أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصور الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي "وأخذ طه حسين ينفخ في نفس البوق الذى نفخ فيه مرجليوث وأمثاله من قبله بل وأخذ يردد نفس النغمات دون أن يتروى قليلا ويخص نفسه بلحن مميز خاص به ، وصدق الله العظيم " فإنها لا تَعْمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور "

وقد ذهب نعيب " مرجليوث " وغيره من المستشرقين ومن سار على هواهم من المستشرقين هباء وتلاشت أصداء دعاواهم الباطلة تماما بفضل من تصدوا لهم من العلماء الباحثين المخلصين بالحق والايمان والدليل والبرهان وصدق الله العظيم " فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض " (٢)

ومن الذين تصدوا لمزاعم الدكتور طه حسين وأباطيل المستشرقين من قبله ونقضوها نقضا وتناولوها بتحليل علمي راسخ : محمد لطفي جمعة في كتابه " الشهاب الراصد " ، محمد أحمد الغمراوى في كتابه :

---

١ ـ في الأدب الجاهلي ص ٧
٢ ـ سورة الرعد الآية (١٧)

" النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى " ، محمد عرفة فى كتابه " نقض مطاعن فى القرآن " ، محمد الخضر حسين فى كتابه : " نقض كتاب الأدب الجاهلى " ، محمد فريد وجدى فى كتابه " نقد كتاب الشعر الجاهلى " الشيخ محمد الخضرى فى " محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى ، وعبد الحميد المسلوت فى كتابه " نظرية انتحال الشعر الجاهلى " ومحمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه " الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى " .

بعد ذلك كله نقول إن أصالة الشعر الجاهلى لا يتطرق اليها شك ولا يعتريها ريب أو زيف بعد أن هيأ الله لأمتنا العربية من أبنائها منذ عهد الرواة وإلى عهد التدوين وما بعده وحتى الآن من وقف نفسه على تحقيق الشعر المروى وتمحيصه فكانوا للرواة بالمرصاد ، ومن ألزموا أنفسهم بتمحيص ما يسمعون عن طريق المقابلة والموازنه والارتحال إلى الصحراء طلبا للعرب الخلص لتوثيق ما يدونونه على نحو ما اشتهر من أمر الأصمعى وأبى عمرو الشيبانى ... ثم كان بعد ذلك التدوين القائم على الانتخاب والاختيار والانتقاء وفق منهج فنى خاص بكل صاحب اختيار كما صنع حماد فى " السموط " أو " المعلقات " والمفضل بن محمد بن يعلن الضبى فى مجموعته التى سماها " الاختيارات " وسميت فيما بعد بالمفضليات والأصمعى فى " الأصمعيات ، وأبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى فى جمهرة أشعار العرب " ... ثم يقترب التدوين بعد ذلك من التأليف فى إطار علمى دقيق على نحو ما صنع أبو تمام فى حماسته والجاحظ فى " البيان والتبيين " والمبرد فى " الكامل " وابن قتيبة فى " عيون الأخبار " و " الشعر والشعراء " .

وكما صنع أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه " الأغانى " الذي يقع فى واحد وعشرين جزءا فقد حرص على أن يقدم الشعر الجاهلى وغيره مصحوبا بالمادة التاريخية معتمدا على الأسانيد التى توضح المصدر مع تقويم رواته والتنبيه إلى ما اشتهروا

به من صدق أو كذب مستندا في ذلك إلى ما قدمه رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وكذلك فعل ابن دريد وابن الأنباري والقالي والمرزباني فعل الأصفهاني من الاهتمام بالسند وسلسلة الرواة إلى المصدر الأول الموثوق به وعدم الاكتفاء بالراوي القريب .

وبالإمكان إيجاز القول في مصادر الشعر الجاهلي فتذكر منها (١) :

(١) المعلقات :

وهي تمثل مرحلة النضج الفني والاستواء التام في القصيدة الجاهلية منذ اوائل العصر الجاهلي ، وتعتبر من اجود واروع ما وصل الينا من التراث العربي الحافل : فصاحة وبيانا ، وتجويدا وابداعا ، وجزالة لفظ ، ومتانه اداء ، ودقة معنى ، وسعة خيال ، وبراعة اسلوب ، واستقامه وزن وامتداد قافية ، واصدق تصوير لحياتهم وطباعهم وخلائقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، واوفى وصفا لبيئتهم على سعتها وامتداد افاقها واكتمال مشاهدها ، بباديها وقفارها ووهادها ونجادها ورواسيها ووديانها ، وسهولها وجبالها ، ووبرها ومدرها ، ووحشها وطيرها وحيوانها ونباتها وجمادها وانهارها وابارها وما جرى فيها من احداث وما شهدته من وقائع وما تتابع عليها من ايام وتمتاز المعلقات بطولها وامتدادها وتعدد اغراضها وتنوع مناحيها وجمال معانيها ، وسحر اساليبها ، وشدة اسرها ، وما تشتمل عليه من تشبيهات رائعة ، واستعارات نادرة ، وكنايات طريفة ، ومجازات دقيقة ، وايحاءات بارعة وثروة لغوية طائلة ، والمشهور انها سبع قصائد طوال :

١ ـ لامرئ القيس ومطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢ ـ ولزهير بن أبي سُلمى ومطلعها

أمن أمّ أوفى دِمْنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

٣ ـ ولطرفة بن العبد ومطلعها

---

١ ـ انظر مصادر الشعر الجاهلي ، والعصر الجاهلي من ص ١٧٦ الى ص ١٨٢ .

لخَوْلةَ أطلال ببُرْقةِ ثَهْمَـــدِ تلوح كباقى الوشْم فى ظاهرِ اليد

٤ـ ولعنترة بن شدَّاد العبسى ومطلعها :

هل غادر الشعراء من مُتَـــرَدَّمِ أم هل عرفتَ الدار بعد توهُّـم

٥ـ ولعمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هُبِّى بصحنِك فاصْبَحِينـــا ولا تُبْقِي خمورَ الأنْدَرِينـــا

٦ـ وللبيد بن ربيعة ومطلعها :

عفَتِ الديار محلُّها فمُقامُهـــا بِمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فرِجَامُهـــا

٧ـ وللحارث بن حِلِّزة ومطلعها :

آذنتنا ببَيْنِها أسمـــاء ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّـــواء

وكان أول من جمع هذه القصائد السبع الطوال .. حماد الراويـة م ١٥٥ هـ " فى أواخر عصر بنى أمية وأوائل العصر العباسى وذلك أنـه رأى زهد الناس فى الشعر فجمع لهم هذه القصائد السبع وقال : هـذه هى المشهورات وقد جمعت هذه القصائد السبع بعد جمع حماد لهـا جمعا آخر مع قصائد أخرى يبلغ جميعها تسعا وأربعين قصيـدة قال عنها المُفضَّل الضَّبىّ : " إنها عيون أشعار العرب فى الجاهليـة والاسلام ، وأنفس شعر كل رجل منهم وهى التى جمعها أبو زيد محمـد ابن أبى الخطاب القرشى فى كتابه " جمهرة أشعار العرب " ويخالـف المفضل حمادا فى أصحاب هذه القصائد السبع فهم عنده ، امـرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة وقد تبع المفضل فى هذا أبا عبيدة وقال عن الشعراء السبعة " هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب " السموط " فمن قـال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة " ثـم

ذكر بعد هذا : السبع المجمهرات والسبع المنتقيات ، والسبع المذهبات ، والسبع المراثي والسبع المشربات ، والسبع الملحمات ، فهذه جملة التسع والأربعين قصيدة التي جمعها المفضل الضبي ١٦٨هـ او ١٧١هـ او ١٧٨هـ ومطلع قصيدة النابغة عند أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب،

عُوجُو فحيّوا لنُعْمٍ دِمنةَ الدار ماذا تُحيُّون من نُؤيٍ وأحجار

وعند التبريزي قصيدته الدالية :

يادار ميّةَ بالعَلْياء فالسَّنَد أقوت وطال عليها سالفُ الأبد

ومطلع قصيدة الأعشى

ودِّع هريرة إنَّ الرَّكْبَ مرتحل وهل تُطيق وداعا أيُّها الرَّجُل ؟

ويعد بعضهم قصيدته التي مطلعها :

ما بكاء الديار بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

وبعضهم يذكر طويلته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبتَّ كما بات السليم مسهَّدا

وبعض الرواة يرى أن المعلقات ثمان ويجعلها بعضهم عشرا بإضافة النابغة والأعشى وعبيد بن الأبرص في قصيدته :

أقفر من أهله ملحوب فالقُطبيّات فالذَّنُوبُ
وبُدِّلتْ منهم وحوشا وغيَّرت حالَها الخُطُوبُ

وقد ورد كلام كثير في شأن تسمية هذه القصائد الطوال الجياد بالمعلقات ، وبادئ ذي بدء نقول إن الخلاف حول التسمية وأسبابها لا يغير من الأمر شيئا ولا يقدم ولا يؤخر لأننا إزاء أعمال لها وزنها وثقلها بمحتواها الشعري ونهجها الفني وأسلوبها البديع ولا ضير من عرض أقوال بعض المتقدمين من أدباء العرب ونقادهم متبوعة بآراء بعض

المعاصرين من الأدباء والنقاد ومؤرخي الأدب العربي : يقول أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد " الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها ، والشاهد على حكامها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة فمنه يقال : مذهبة امرىء القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع ، وقد يقال لها المعلقات " (١) .

ويقول ابن رشيق صاحب " العمدة " : " وكانت المعلقات تسمى " المذهبات " وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال " مذهبة فلان " إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر قال : علقوا لنا هذه لتكون في خزانته .. " (٢)

ويقول ابن خلدون : " إن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس والنابغة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات . (٣)

ويقول البغدادي صاحب " خزانة الأدب " : " كان العرب في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فان استحسنوه روى وكان فخر القائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وان لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب ، قال أبو عمرو بن العلاء :

---

١ ـ العقد الفريد جـ٣ ص١١٦

٢ ـ العمدة جـ١ ص٧٨

٣ ـ المقدمه ص٥١١

وكانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش . . . . " (١) .

أما أبوجعفر النحاس أحد شراح المعلقات م سنه ٣٣٨هـ فإنه يقول : "إن خبر تعليقها على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة ، وان حمادا حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع وقال :

هذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة (٢) " ويرى ان تسميتها بالمعلقات يرجع إلى أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : " علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي " ولعله يقصد بالملك : النعمان ابن المنذر ملك الحيرة الذي كان لديه ديوان فيه اشعار الفحول وما مدح به كما يقول ابن سلام (٣) .

والشيخ أحمد الاسكندري (١٩٣٦) من المعاصرين يرى أن السبب في تسميتها بالمعلقات أن العرب كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصا عليها من القرض أو نحو ذلك . . (٤) .

أما مصطفى صادق الرافعي م ١٩٣٧ فإنه يقول " ولم نر أحدا ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ولا سمى تلك القصيدة بهذا الاسم كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نتفا وأبياتا منها ، وقد ذكر أبو الفرج

---

١ ـ خزانة الأدب جـ١ ص ٨٧
٢ ـ معجم الأدباء لياقوت (ترجمة حماد) جـ١٠ ص ٢٦٦
٣ ـ طبقات الشعراء ص ١٧
٤ ـ الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص ١٨٨

صاحب الأغاني المتوفى سنه ٣٥٦هـ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيبا بسوق عكاظ وقام بها في موسم مكة فلو كان خبر التعليق صحيحا لما ضره أن يقول : فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة " . (١)

ومن المؤيدين لخبر التعليق على الكعبة من المستشرقين المؤرخ الفرنسي "سيديو" وهو يرى أن المعلقات أنشدت في الأسواق ، وبعد اختيارها وقبولها علقت على الكعبة بعد أن كتبت بالذهب على نفيس القماش ليطلع عليها الذرية (٢)

ومن المعارضين منهم المستشرق الألماني " نولدكه " فهو يقول في دائرة المعارف البريطانية " إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع الى تسميتها بالقصائد المذهبات وهي تسمية مجازية للدلالة على عظم امرها ، وكذلك يجب ان نؤول تسمينتها بالمعلقات الى هذا الاساس نفسه ، فمن المحتمل جدا ان تعنى هذه التسمية ان هذه القصائد قد سمت الى درجة : خاصة مجيدة ، وان هناك اشتقاقا اخر من المادة نفسها وهي كلمة " غلق " ومعناها الشيء النفيس"

ويرى " كليمان هوار " أن المعلقات جمع معلقه بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضا " السموط " بمعنى العقود والقلائد . وكما قلت فإن الأمر لا يستحق كل هذا العناء لأن الحكم على الأعمال الأدبية مرهون بالنصوص ذاتها ومالها من قيمة فنية وليس مرتبطا بتعليقها على كعبة أو في خزانة ملك أو خيمة على أنه من المعروف الذي لا ينكر أن العرب كان من عادتهم أنهم إذا أرادوا أن يوثقوا أمرا أو يؤكدوا عهدا كتبوا به كتابا وعلقوه في جوف الكعبة تعظيما لشأنه : كما فعلوا بصحيفة

---

١ ـ تاريخ آداب العرب للرافعي جـ٣ ص١٨٨

٢ ـ خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

مقاطعه بنى هاشم ... فليختلفوا ما شاء لهم الاختلاف وليثبتوا أو ينكروا ما شاء لهم الإثبات والإنكار فإنه مما لا خلاف فيه ولا مجال لانكار أن هذه القصائد من خير شعر العرب وادله على لغتهم وبلاغتهم ووصف حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية ، بل إنها سجل دقيق حافل بتاريخ العرب فى شتى المجالات مع ما تمتاز به من سحر البلاغة وسمو البيان وجودة الطبع وأصالة الفطرة والموهبة وروعة الإبداع .

وقد عنى العلماء بجمعها وتحقيقها وشرحها شروحا مختلفة مختصرة ومطولة .

ومن شراح هذه القصائد أبو بكر البطليوسى م ١٩٤ هـ وأبو جعفر ابن النحاس م ٣٣٨ هـ ، وأبو على الشعالبى م ٣٥٦هـ وأبو زكريا يحيى بن الخطيب التبريزى م ٥٠٢هـ والدميرى صاحب حياة الحيوان م (٨٠٨ هـ) والزوزنى ابو عبد الله الحسين بن احمد ابن الحسين م ٤٨١هـ وهى مشروحة ايضا فى جمهرة اشعار العرب لابى زيد محمد بن ابى الخطاب القرشى م ١٧٠ هـ ، ومحمد بدر الدين ابو فراس التعسانى الحلبى المتوفى فى القرن الرابع عشر الهجرى .

وقد عرف المستشرقون المعلقات وعنوا بها عناية كبيرة وأولوها اهتماما بالغا وقاموا بتحقيقها والتعليق عليها وترجمه بعضها الى لغاتهم مع الشرح والبيان ومن ذلك ترجمة .. " نولدكه " لمعلقة النابغة وزهير والأعشى ولبيد وعمر وبن كلثوم إلى الألمانية مع شرح واف لها كما ترجمها الى الانجليزية شعرا بشىء من التصرف "والفرد بلنت" "ولادى ان بلنت" ، ومن اشهر طبعات المعلقات طبعة " ليبسيا " بعناية العلامة أرنولد عام ١٨٥٠ م كما طبعها سير " شارلزليل " عام ١٨٩٤ بكلكتا .(١)

---

١ ـ البناء الفنى للقصيدة العربية لخفاجى ص ٤٩ .

والاهتمام البالغ بالمعلقات من جانب النقاد والدراسين والباحثين من العرب والمستشرقين والعلماء والأدباء والرواة فى شتى العصور لهو أقوى دليل على مالها من مكانة مرموقة ومنزلة رفيعة وقدر كبير بين سائر الآداب القديمة والحديثة على السواء .

إنها بحق من أعظم الأعمال الفنية فى العصر الجاهلى وأبعدها أثرا وأعلاها ذكرا فى سائر العصور ، وقد ظلت نموذجا يقتدى به ومثلا أعلى يحاكيه الشعراء على اختلاف عصورهم الأدبية واتجاهاتهم الفنية ولا تزال حتى اليوم تتألق بهاء وجلالا ، وتسمو سحرا وبيانا ، وتفيض روعة وابداعا ، وتزهو أناقة لفظ وحلاوة جرس ومتانة أداء وبلاغة عبارة ، ونضارة ديباجة ، وأصالة طبع وإشراقة حكمة ، لقد أثبتت الدراسات النقدية الواعية للمعلقات أن الشعر الجاهلى شعر قادر بصوره وكلماته وموسيقاه على أن يعبر عن أقوى المشاعر وأدقها فى زمنه وأنه لم يفتقر لحظة الى الإحساس بالعصر والفهم الصحيح للحياة الانسانية بكل خلجاتها ونبضاتها وافكارها وملامحها والنماذج القوى الفعال بين الفرد والجماعة والتلاقى الحيوى المثير فى المشاعر والأحاسيس ، وما وراء الوعى والإدراك ، والشعر الجاهلى بذلك يمتلك القوى الإيحائية التى لا تقف عند حدود المعنى الظاهرى والتى تحتاج إلى تتبع الصور وتلمس الأبعاد التى تنطوى وراء القصيدة بكل أجزائها ومقطعاتها ، ففى معلقة مثل معلقة " لبيد " ومعلقة " طرفة " وغيرهما يتحقق التصوير الإيحائى الذى تكون فيه علاقة الصورة الشعرية الواحدة ببقية الصور علاقة حية نابضة مثيرة (١) .

ومعلوم أن الصور إنما تصبح معيارا للعبقرية الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الأفكار والصور الأصيلة حين تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة التى تثيرها هذه العاطفة السائدة أو حينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة أو حينما

---

١ ـ قضايا النقد الأدبى والبلاغة لمحمد زكى العشماوى ص ٢٠٠ وما بعدها .

يضفي عليها الشاعر من روحه حياة انسانية وفكرية (١)

ومعنى ذلك بوضوح وجلاء أن " المعلقات " ـ او بعضها على أقل تقدير ـ كانت بحق نموذجا فنيا راقيا ونمطا إبداعيا متميزا بالمعايير المعتمدة الثابتة لدى الأقدمين وبكل المقاييس النقدية الدقيقة في عرف المحدثين .

ففي هذه المعلقات تعبير عن الحياة الجاهلية بجوانبها المختلفة واتجاهاتها المتعددة وأنماطها المتنوعة ... وفيها وصف دقيق للبيئة بكل مشاهدها وسائر ملامحها وقسماتها .. وفيها انعكاس صادق وأمين لروح العصر السائدة وأخلاقه وقيمه ومدركاته وفيها إدراك واع عجيب للجوانب الإنسانية من خلال العصر وتحت حجاب البيئة الخاصة المتميزة ... وقد تمثل ذلك كله في هذه الروائع بنسيج كلماتها ، وبديع صورها ، وسيولة أنغامها وعذوبة موسيقاها ، ورهافة إحساسها ، وتدفق مشاعرها وحيوية نبضها وإيقاعها ، ودقة إشاراتها ورموزها ، وصدق معانيها ، وتوازن عناصرها ، ووحدة شاعريتها .

وعن الوحدة الشعرية يتحدث الدكتور محمد زكي العشماوي فيقول : (٢) " هذه الوحدة الشعرية التي تمثل وحدة الصراع بين العربي الجاهلي وبين الحياة من حوله هي سمة الشعر الجاهلي كله ... فأنت قادر على أن تحققها في أغراض الشعر المختلفة من غزل ووصف وفخر وهجاء وحماسة وغيرها ، كما أنك قادر على أن تستجليها في معلقة لبيد وفي غير معلقة لبيد ، فهي متحققة عند امرئ القيس وطرفة وزهير والنابغة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلِّزة وغير هؤلاء من شعراء . " .

---

١ ـ كولردج لمحمد مصطفى بدوي ص١٦٨ . ط القاهرة ١٩٥٨ .
٢ ـ قضايا النقد الأدبي والبلاغة ص ١٩١ وما بعدها .

ويذهب الباحث إلى أبعد من ذلك وهو يتحدث عن الوحدة العضوية في معلقة لبيد ويقول [٢] : " ونشهد لقد استطاعت معلقة لبيد :

أن تحقق هذه الوحدة العضوية على رغم طول القصيدة وتعدد أقسامها وانتقالها من غرض الى غرض ، فقد تمكنت بصيرة لبيد وقدرته على النفاذ الى ما تحت حجاب عصره ان يعكس لنا صورة هذا الصراع بين الانسان والحياه ، وان ننفذ من خلاله الى ابراز صورة متكاملة تعاونت فيها سائر الاجزاء وهيمن فيها الاحساس الواحد ، ولم يكن تحقيق هذه الوحدة في معلقة لبيد راجعا الى حسن التخلص من غرض الى غرض ، او الى تنظيم اجزاء القصيدة وحسن ترتيبها او الى التسلسل المنطقي الذى تجده بين مقطوعاتها ، وانما الذى ساعد على تحقيق هذه الوحدة قدرة القصيدة على نقل احساس واحد مهيمن عن طريق صورها وكلماتها وخصائص اسلوبها ذلك الاسلوب التركيبى الذى يؤلف بين المتباعدات والمتناقدات والذى ينشأ من الصراع بين ما هو منطقي وبين ما هو غير منطقي ، بين اللاوعى الفردى واللاوعى الجماعى ، بحيث يصبح من السهل على من يقرأ القصيدة قراءة واعية مستنبطا كل ما فيها من دلالات رمزية وغير رمزية ان يكشف في تحليله عن النزعه الغالبة فيها والتى تسودها " مقطوعات وابياتا على نحو ما حاولنا من دراستنا لها ٠ "

المفضليات :

ونسبة الى جامعها المفضل الضبى راوى الكوفة الثقة وهى مائة وست وعشرون قصيدة اضيف اليها اربع قصائد وجدت في بعض النسخ ، وابن النديم قال : " هى مائة وثمان وعشرون قصيدة وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتاخر بحسب الرواية عن المفضل والصحيحة التى رواها عنه ابن الاعرابى " [١] وقد نشرها المستشرق " ليال " بشرح ابن

---

٢ ـ نفسه ص١٩٢ وما بعدها ٠

١ ـ الفهرست ص١٠٢

الأنبارى وفى مقدمة الشرح سند كامل لها يرفعه ابن الأنبارى إلى ابن الأعرابى تلميذ المفضل وربيبه ، وهى موزعة على سبعة وستين شاعرا منهم سبعة وأربعون جاهليا وبينهم امرأة من بنى حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيبانى ، وجابر بن حنى التغلبى . والمفضليات مجموعة صحيحة موثقة من القصائد لا يشوبها وضع أو انتحال وهى تمثل جوانب الحياة الجاهلية وتدور مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ويصور كثير منها البيئة الطبيعية ومظاهر الحياه فيها كما انها تشتمل على كثير من الكلمات المندثرة التى لم ترد فى المعاجم اللغوية على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة مما يرفع الثقة بها ويؤكدها ويبعد عنها تهمة الشك والانتحال

٣ـ الأصمعيات :

نسبة إلى راويها الأصمعى راوية البصرة ويبلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين وهى موزعة على واحد وسبعين شاعرا منهم نحو أربعين جاهليا وبينهم يهوديان هما : شعيبة بن الغريض والسموأل والأصمعيات كالمفضليات فى الصحة والتوثيق وعلو الدرجة وقد جاء فيها أيضا كثير من الكلمات المهجورة التى لم تثبتها المعاجم [1] بيد أن الشراح لم يهتموا بها كما اهتموا بالمفضليات ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها وإلى أن الأصمعى لم يرو كثيرا من القصائد كاملة بل اكتفى بمختارات منها .

١ـ انظر الاسمعيات " الفهرس الثالث

٤ـ جمهرة اشعار العرب :

لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى الذى يظن أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى أو أوائل القرن الرابع وذكره ابن رشيق فى " العمدة " والسيوطى فى " المزهر " والبغدادى فى " الخزانة " . والجمهوة تضم تسعا وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام فى كل قسم سبع قصائد والقسم الأول خاص بالمعلقات والثانى: المجمهرات وهى لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبى حازم وأمية بن أبى الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تولب وعنتره ويلى ذلك المنتقيات اى المختارات ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين او مخضرمين ثم عيون المراثى ثم المشوبات وهى لمخضرمين شابهم الكفر والاسلام ثم الملحمات وجميعها لاسلاميين . والجمهرة مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ويحتاج الأمر فيها الى مقابلتها وعرضها على الروايات الصحيحة .

٥ـ مختارات ابن الشجرى :

متوفى ٥٤٢هـ وهى مختارات من شعر جاهلى واسلامى موزعة على ثلاثة أقسام وهى مثل جمهرة أشعار العرب فى ضعف سندها وقلة الوثوق بها .

٦ـ دواوين لحماسة :

وهى ذات قيمة أدبية أكثر منها تاريخية إذ هى مجهولة المصادر وأشهر هذه الدواوين ديوان الحماسة لأبى تمام م ٢٣١هـ ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوقى وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية وقد نص المرزوقى على أن أبا تمام أصلح فى الشعر الذى رواه إذ يقول :

"إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة باختها في نقده ، وهذا يبين لمن رجع الى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها" (١)

وحماسة أبي تمام موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة ، وهي مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين وقلما روى فيها قصائد كاملة وتلي هذه الحماسة في الأهمية حماسة البحتري م ٢٨٤هـ وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابا وأكبر أبوابها في نزعات خلقية ولابن الشجري صاحب المختارات حماسة طبعت في حيدر أباد وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي ، ومن دواوين الحماسة حماسة الخالديين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي م ٣٥٠هـ ومحمد الخالدي ٣٨٠هـ وهناك الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري المتوفى في القرن السابع الهجري وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منها .

٧ـ دواوين الشعراء الستة الجاهليين :

وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها "الورد" ويعتبر شرح الشنتمري م ٤٧٦هـ على هذه الدواوين من أهم الشروح التي احتفظت برواية الأصمعي وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه والتزم روايته في المجموعة التي أطلق عليها "مختار الشعر الجاهلي" وقد طبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة أهمها طبعة دار المعارف التي جمع فيها أبو الفضل ابراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة ونشرت دار الكتب ديوان زهير بشرح ثعلب ، كما طبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر ، وقد نشر "ليال" ديواني عبيد بن الأبرص وعامر ابن الطفيل وهناك دواوين مخطوطة لم تنشر بعد .

١ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي جـ ١ ص ١٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٨ـ دواويـــن القبائل :

وقد جمع منها الشيبانى نيفا وثمانين وعنى السكرى بكثير منها ولكنها فقدت ولم يبق منها إلا قطع من ديوان " هُذَيل " نشرت فى خمـــس مجموعات أربع منها فى أوروبا وهى من صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى طبعت أولاها فى لندن عام ١٨٥٤م بتحقيق " كوزجارتن " وطبعت الثانية فى برلين عام ١٨٨٧ بتحقيق " فلهاوزن " وطبعت الثالثـــة وهى خاصة بديوان أبى ذؤيب الهذلى فى هانوفر ١٩٢٦ م بتحقيـــق " يوسف هل " وفى سنه ١٩٣٣ نشر القطعة الرابعة فى ليبزج وهى تتداخل مع القطعة الخامسة التى نشرتها دار الكتب المصرية ، والقطع التى رواها السكرى من ديوان هذيل موثوق بها تمام الثقة ولا يتطرق إليها الشـك وهى لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

٩ـ كتب التراث المعتمدة بصحة أخبارها عن الجاهليين وروايه أشعارهم :

وتوضيح طبقات شعرائهم وبيان مذاهبهم ومن هذه الكتب :

شرح النقائض لابى عبيدة الذى روى فيه كثيرا من الشعر الذى قيل فى ايـــام العرب وسار على هديه من كتبوا فى ايام العرب مثل ابن الأثير فى "الكامل" وابن عبد ربه فى " العقد الفريد " .

طبقات الشعراء لابن سلام وقد أودع فيه دراسة دقيقة للشعـــر الجاهلى و تمييز صحيحه من مصنوعه .

الشعر والشعراء لابن قتيبة وخير ما فيه مقدمته التى يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ويعطى من الدلائـــل والاشـــارات ما يكشف عن جوهر الفن وأصالته لدى عرب الجاهليـــة وان كان ما فيه من أخبار وأشعار قد جاء بغير إسناد إلى مصـــادره

ورواتـــه ٠

وهناك البيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ومـــن المختصرات التي تفيد في المراجعة المؤتلف والمختلف للآمدي ومعجم الشعراء للمرزباني وكتابه الموشح ٠ وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثـــل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني والعمدة لابن رشيق والشواهد الكثيرة المبثوثة في كتـــب النحو واللغة والبلاغة وهذه كلها ينبغي التوثق منها بالرجوع الـــى المصادر الأصيلة الوثيقة ٠

ومن أهم الكتب وأشهرها كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الذي ترجم فيه للشعراء من القرن السادس الى القرن التاسع للميلاد ترجمـــات غنية سجل فيها كثيرا من مادة الشعر الجاهلي وأخباره التي فقدت تسجيلا مؤيدا بأسانيدها التي ترجع بها إلى مصادرها ورواتها الأوائل مثـــل الأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني والهيثـــم ابن عدي ومن خلفوهم من جلة الرواة والمصنفين وكثيرا ما يقف ليفحص مـــا ينقله حتى يتأكد من صحته وكان يرفض ما يرويه المشكوك فيهم من الـرواة من أمثال ابن الكلبي وغيره واذا شك في قصيدة لشاعر من الشعراء رجـع بنفسه إلى ديوان هذا الشاعر في رواياته المختلفة وينص على أنه وجـــد القصيدة أو لم يجدها وأحيانا يعرض الخبر الذي يريد نقله على التاريـخ ليتوثق منه وفي تضاعيف ذلك يسوق آراء الرواة والنقاد في الشعـــراء وأشعارهم لذلك كله فإن " الأغاني " يعد بحق أكبر مصدر لتاريـــخ الشعر الجاهلي وأصحابه يضاف إلى المصادر الأخرى الموثوق بها مثـل الأصمعيات وديوان هُذَيل وما صح من الدواوين المفردة ٠

ومن الكتب المتأخرة التي احتفظت ببعض ما فقد من الروايـــات والمصنفات القديمة " خزانة الأدب " للبغدادي المتوفى ١٠٩٣هـ وهو شرح على شواهد الرضي شارح كتاب الكافية لابن الحاجب وفيـــه

تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله في هذا الاتجاه شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام.

وبعد أفلست معي أيها القارئ الكريم في أن الله تبارك وتعالى قد هيأ لهذه الأمة من أبنائها من يحفظون لها تراثها ويقومون حراسا على لغتها وأدبها ويسجلون بأمانة وصدق ملامح عبقريتها وشواهد إبداعها ؟؟..

* * *

الفصل الرابع
" طبقات الشعراء الجاهليين وطوائفهم وبيئاتهم "

احتل الشعر والشعراء مكانة مرموقة في المجتمع الجاهلي ولذلك حرصت كل قبيلة على أن تضم أكثر عدد من الشعراء الذين تسير بأشعارهم الركبان ضمانا لاتساع سطوتها وانتشار سلطانها ومن أجل ذلك لم تكن تختص بالشعر قبيلة دون قبيلة وإن تميزت فيه واحدة عن أخرى بكثرة الشعراء وسيرورة الشعر .. فنحن إذن أمام فيض من الشعراء تابع من قبائل العرب على اختلاف مواطنهم في شمال أو جنوب .. في شرق أو غرب في بادية أو حاضرة لا نستطيع أن نحيط بهم مهما بلغ منا الجهد ومهما كانت حدود الطاقة فقد كانوا كثرة غامرة من رجال ونساء ، وشيب وشبان ، وأمراء وصعاليك ، وأهل وبر ، وأهل مدر (بدو وحضر) يقول ابن قتيبة : (١)

" والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف وراء عددهم واقف ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها .. " .

فالشعراء كثيرون ومن ترجموا لهم لم يستوعبوا إلا المقدمين منهم الذين دوت شهرتهم وطار صيتهم ووراءهم أعداد هائلة سقطت من ذاكرة الرواة ولم تستقصهم دواوين القبائل .

وقد عني النقاد العرب القدامى بوضع الشعراء في مجموعات وطبقات متماثلة يسهل بحثها واستيعابها بعد دراسة وافية لكل شاعر والموازنة بينه وبين غيره وتحديد منزلته ومكانته بين الشعراء . (٢) .

---

١ ـ الشعر والشعراء " مقدمة لابن قتيبة ص٩ ط دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٨١ تحقيق مفيد قميحة .

٢ ـ أسس النقد الأدبي لأحمد بدوي ص. ٥٥ .

ولم يكن التعبير بالطبقة يدل على مذهب خاص أو اتجاه متميز انما كان يعنى الجماعة من الشعراء تعيش متقاربة فى الزمان وتجرى عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وان لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك [١] فهم نظراء يقارب بعضهم بعضا فى المنزله الأدبية العامة وان اختلفوا فى اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الأدبى .

والدارس للأسباب التى جعلت النقاد يضعون الشعراء طبقات يسبق بعضها بعضا يراها ترتكز على ثلاث دعائم : [٢]

١ ـ جودة إنتاج الشاعر من ناحية المعنى والأسلوب معا .

٢ ـ غزارة هذا الإنتاج إما لان الشاعر كثير التصرف فى فنون الشعر فغزر إنتاجه لذلك وإما لأن قصائد الشاعر طويلة النفس.

٣ ـ أن يكون للشاعر ميزة يكون بها ذا مكانة مرموقة بين الشعراء .

وعلى هذا الأساس كان لامرىء القيس حظ كبير من تقدير النقاد وتعظيمهم ، ويعللون ذلك مرة بأنه لم يقل شعره لرغبة ولا لرهبة ومرة بأنه سبق إلى أشياء استحسنها الشعراء واتبعوه فيها ومرة ثالثة بأنه أجاد الاستعارة والتشبيه . [٣]

ومع امرىء القيس كان هناك ثلاثة من شعراء الجاهلية نالوا حظا كبيرا من التقدير والإعجاب وهم : زهير والنابغة والأعشى ... وقد رأوا لكل واحد من هؤلاء الأربعة غرضا بلغ فيه حظا من الإجادة والإتقان فقالوا : أشعر العرب : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب [٤] وهم يقصدون بذلك

---

١ ـ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ص ٤٠١

٢ ـ أسس النقد الادبى لأحمد بدوى ص ٥٥٣

٣ ـ العمدة جـ ١ ص ٧٧

٤ ـ نفسه جـ ١ ص ٧٨

إن امرأ القيس يبلغ غاية البراعة إذا وصف الصيد والركوب إليه ، كما يبلغ زهير هذه الغاية إذا رغب فمدح والنابغة إذا خاف فاعتذر والأعشى إذا شرب الخمر فطرب .

وهؤلاء الأربعة نالوا أكثر إعجاب النقاد من العرب وإن اختلفوا في تقديم أحدهم على أصحابه فامرؤ القيس عند الفرزدق أشعر الناس والأعشى عند الأخطل أشعر الناس ، وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا (١) .

كان هؤلاء الأربعة إذن الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ثم مضى النقاد يرتبون الشعراء بعدهم في طبقات حتى أوصلوها إلى عشر طبقات عند ابن سلام كما يلي (٢)

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، النابغة الذبياني زياد ابن معاوية ، زهير بن أبي سلمى المزني ، أبو بصير الأعشى ميمون بن قيس.

الطبقة الثانية : كعب بن زهير ، الحطيئة ، أوس بن حجر ، بشر بن أبي خازم الأسدي .

الطبقة الثالثة :النابغة الجعدي قيس بن عبد الله ، أبو ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد الشماخ بن ضرار ، لبيد بن ربيعة .

الطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، عبيد بن الأبرص ، علقمة بن عبدة عدي بن زيد .

---

١ ـ نفسه ج ١ ص ٨٠ .
٢ ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

الطبقة الخامسة : خداش بن زهير ، الأسود بن يعفر ، المخبل السعدى تميم بن أبى بن مقبل .

الطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة ، عنترة بن شداد سويد بن أبى كاهل .

الطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، الحصين بن الحمام المرى المتلمس جرير بن عبد المسيح ، المسيب بن علس

الطبقة الثامنة : عمرو بن قميئة ، النمر بن تولب ، عوف بن عطية أوس بن غلفاء .

الطبقة التاسعة : ضابئ بن الحارس البرجمى ، سويد بن كواع العكلى الحويدره قطبة بن محصن ، سحيم عبد بنى الحسحاس .

الطبقة العاشرة : أمية بن حرثان بن الأسكر ، حريث بن مخفض الكميت بن معروف الأسدى ، عمرو بن شاس.

ويضيف ابن سلام إلى هذه الطبقات :

١ــ شعراء المراثى : متمم بن نويرة ، الخنساء بنت الشريد ، أعشى باهلة بن الحارث ، كعب بن سعد الغنوى .

٢ــ شعراء القرى العربية :

المدينة : حسان بن ثابت ، كعب بن مالك ، عبد الله بن رواحة ، قيس بن الخطيم ، أبو قيس بن الأسلت .

مكة : عبد الله بن حذافة السهمى ، هبيرة بن أبى وهب ، عبد الله بن الزبعرى ، أبو طالب بن عبد المطلب ، أبو سفيان بن الحارث ، مسافر بن أبى عمرو ، ضرار بن الخطاب الفهرى ، أبو عزة الجمحى ، .

الطائف : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، أمية بن أبي الصلت ، أبو محجن الثقفي ، غيلان بن سلمة ، كنانه بن عبد ياليل .

البحرين : المثقب العبدي محصن بن ثعلبة ، المزرق العبدي شماس بن نهار ، المفضل بن معشر النكري .

٣ـ شعراء اليهود : السموأل بن عادياء ، الربيع بن أبي الحقيق ، كعب بن الأشرف ، شريح بن عمران ، أبو قيس بن رفاعة شعيه بن الحريض ، ابو الذيال ، درهم بن يزيد .

أما أبو عبيدة فإنه يرى أن أشعر الناس أهل الوبر خاصة وقد رتبهم في ثلاث طبقات : (١)

الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، زهير ، النابغة .
الطبقة الثانية : الأعشى ، لبيد ، طرفة
الطبقة الثالثة : كعب بن زهير ، الحطيئة ، خداش بن زهير ، دريد ابن الصمة ، عنترة ، عروة بن الورد ، النمر بن تولب الشماخ بن ضرار ، عمرو بن أحمر ، المرقش الأصغر ، عمرو بن حرمله .

وبعض الباحثين المعاصرين يتحدث عن بيئات شعرية تفرض على أفرادها اتجاها خاصا موحدا او متقاربا يلون اشعارهم بشيات مميزة ويطبعها بسمات معينه بحكم خضوع هؤلاء الشعراء لعوامل ومؤثرات متشابكة لها دورها الفعال في تشكيل اشعارهم وصبغها بصبغة خاصة تكون قدرا مشتركا بينهم جميعا على ما قد يكون بينهم من الفوارق الدقيقة في جوانب أخرى .. وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الشعراء الجاهليين وتقديمهم في مجموعات بيئية تكشف عن اتجاهاتهم وتبين المؤثرات التي خصت كلا منها بما تميز به شعرها (٢) ومعنى ذلك أن كل بيئة من هذه البيئات الشعرية تمثلها " طائفة " من الشعراء أي جماعة أو فئة من الشعراء يجمع بين أفرادها غرض شعري خاص أو اتجاه فني متميز بالنظرة

١ـ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد بن الخطاب القرشي ص ٤٥
٢ـ الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام لإبراهيم عوضين ص ١٠٤ .

الشمولية العامة دون تحديد دقيق للسمات الخفية المميزة والخصائص الفنية المعتمدة ، وهذا هو المقصود بتعبير " طوائف الشعراء " لدى بعض الباحثين .[١] فهناك مثلا :

أ ـ شعراء الوبر وهم شعراء البادية الذين طبعوا على الخشونة والفروسية والجرأة والإقدام والصراحة والفصاحة وطلاقة اللسان وتمتاز أشعارهم بالفخامة والجزالة ومتانة الأداء وقوة الأسلوب وجودة الصياغة ووضوح المعانى وسهولتها ويسرها وصدق التعبير عن المشاعر والأحاسيس وتجنب المبالغة والتكلف والتعقيد .

وشعراء البادية هم عادة الشعراء الفرسان أبطال الحرب والنزال والكر والفر والجرأة والإقدام والنجدة والحمية والعصبية القبلية ومنهم : المهلهل فارس تغلب وبطل حرب البسوس الذى أشعل نارها ثأرا لاخيه كليب ويقال إنه أول من هلهل الشعر وأرقه[٢] . ومنهم عامر بن الطفيل فارس بنى عامر بن صعصعة أقوي عشائر هوازن وأشدها بأسا ، ومنهم الحارث بن حِلِّزة وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد العبسى الذى طارت شهرته بالفروسية والشجاعة النادرة والبسالة والمروءة والأخلاق العالية وغير ذلك مما أظهرته وقائع حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان[٣]

وهناك الشعراء من الفرسان الصعاليك الذى خرجوا على قبائلهم وعشائرهم وتجردوا للغارة وقطع الطرق ومناوأة السادة والأثرياء بدوافع شتى وبتأثيرها ظروف متباينة صهرتهم فى بوتقتها وصاغتهم صياغة ثورية فاتكه وطبعتهم بطابع البأس والضراء وشدة المراس

---

١ ـ شوقى ضيف فى : " العصر الجاهلى " ص ٣٦٦

٢ ـ الأغانى جـ ٥ ص ٣٤ ط دار الكتب ، الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٥٦ .

٣ ـ الأمالى جـ ١ ص ٤٥٣ ، الميدانى جـ ٢ ص ٥١ ، الأغانى جـ ٦ ص ٢٠٠ .

وتحمل المشاق والشجاعة النادرة في مواجهة الأخطار واتخاذ الوسائل الشرسة وركوب الصعب في سبيل الوصول إلى الغايات الخاصة والأهداف البعيدة .

ومن شعراء الصعاليك : الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم ولفظتهم عشائرهم لكثرة جرائرهم وشذوذ سلوكهم مثل قيس بن الحدادية وأبي الطمحان القيني وحاجز الأزدي .... ومنهم أبناء الحبشيات السود ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بنسبهم تجنبا للعار والمذمة ودفعا للنقيصة مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى ، وقد أطلق عليهم لسواد ألوانهم " أغربة العرب " .. ومنهم من احترف الصعلكة احترافا ورأى فيها السبيل الأيسر لتحقيق المآرب والنفاذ إلى الأهواء والمكاسب من مثل عروة بن الورد العبسي ومن ينتمون إلى قبيلتي هذيل وفَهْم اللتين احترفتا الصعلكة احترافا جماعيا وكانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي . (١)

ب ـ شعراء المدر وهم شعراء القرى والحضر كمكة ويثرب والطائف وحاضرة العراق وإمارة المناذرة وإمارة الغساسنة وهؤلاء كان تأثرهم قويا بطيب الحياة ورفاهية العيش ومظاهر الحضارة وكانت أشعارهم تبعا لذلك تصدر عن ينابيع رائقة صافية ومعان ناضجة وأخيلة خصبة زاهية وأساليب تمتاز بما فيها من عذوبة وسلاسة وجزالة وتجنب للألفاظ الخشنة والكلمات الجافية ...

جـ ـ شعراء بيئات الترف والنعيم أو شعراء القصور كما يطلق عليهم بعض الباحثين ونعني بهم الشعراء السادة الأمراء في بيئات الثراء والنعماء والرفاهية من نشأ فيها وتربى في أحضانها وذاق حلاوة النعيم في رحابها ، ومن لاذ بحماها والتجأ إليها مشيدا ومادحا طلبا للعطاء وتعرضا للنوال فقد استحوذت هذه البيئة بوسائلها وأسباب الحياة منها على طائفة من شعراء هذا العصر على امتداده

---

١ ـ الشعراء الصعاليك ليوسف خليف ص ٥٨ ط ١ رابعة دار المعارف

فشكلت حياتهم بشيات زاهية وألوان ناصعة واتجهت بهم وجهة نفسية وفكرية وسلوكية تغاير وجهات أترابهم ونظرائهم فى البيئات العربية الأخرى وطبعت أذواقهم بطابع خاص يلائم حياة الترف والنعيم ومظاهر السيادة والإمارة فكانت لهم فنون وأغراض شعرية تستجيب لها نفوسهم وتنقاد إليها ملكاتهم ومواهبهم وتتوهج فى إطارها حاستهم الشعرية وقدراتهم الإبداعية وحلقوا بمعانيهم وأفكارهم وأخيلتهم فى أجواء هذه البيئات بكل ما تمثله من انطباعات ٠

وأشهر شعراء بيئات الترف والنعيم امرؤ القيس بن حجر الكندى ، وطرفة بن العبد البكرى ، والنابغة الذبيانى ، وزهير بن أبى سلمى المزنى ، والأعشى ميمون بن قيس ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص ٠ وهؤلاء الشعراء قد يتفقون فى ظواهر عامة وسمات كلية ولكنهم بعد ذلك يختلفون فى الخصائص الفنية الدقيقة والسمات الذاتية الخفية تبعا لتفاوت درجات التأثر بهذه البيئات ونوعية الارتباط بها وعمق الانفعال بأحداثها وشخصياتها وعناصر التأثير فيها ٠٠

والعلامة محمد عبد المنعم خفاجى يرى أن الطبقة الأولى زعيمها مهلهل م ٥٣١م أول من قصد القصائد وهلهل نسج الشعر أى رققه وهذبه وشعره أعلى طبقات شعر المتقدمين وله شعر جيد فى أخيه كليب بعد مقتله عام ٤٩٤ م وهذه الطبقة هى التى مهدت سبيل التجديد فى الشعر أمام امرئ القيس ومن شعرائها : الشنفري ٥١٠م وتأبط شرا ٥٣٠م وأبو دؤاد الإيادى ٥٤٠م وسواهم ٠ وزعيم الطبقة الثانية امرؤ القيس ٥٦٠ م الذى تتلمذ فى الشعر على خاله المهلهل وعلى أبى دؤاد الإيادى وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وبرع فى الوصف والتشبيه وأجاد الاستعارة والكناية وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده وأول من شرع للناس سبيل الغزل القصصى الحيوى النابض ومن شعراء طبقته : علقمة ٥٦١م والمرقش الأكبر ٥٥٢م ، والمرقش الأصغر ٥٦٠ م وعبيد ٥٥٥م ، والأفوه الأودى ٥٧٠م ، والمتلمس

٥٨٠م والمثقب العبدى ٥٨٧م والحارث بن حلزة ٥٨٠م وطرفة بن العبد ٥٦٥ م . وزعيم الطبقة الثالثة هو النابغة الذبيانى ٦٠٤ م الذى اعترف له الشعراء بالأستاذية وارتضوه حكما بينهم فى سوق عكاظ وتأثر به الكثير منهم كحسان وسواه ومن شعراء طبقته زهير بن ابى سلمى ٦٣٠ م والأعشى ٦٢٩ م وعنترة العبسى ٦١٥ م وحاتم ٦٠٥م وعمرو بن كلثوم ٦٠٠م ولبيد وأمية بن أبى الصلت ٦٢٤ م ، والطبقة الأخيرة هى طبقة حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا الجاهلية وأدركوا زمن النبوة وصدر الإسلام . (١)

---

١ ـ البناء الفنى للقصيدة العربية لخفاجى ص ٦٥ ، ص ٦٧ ط الطباعة المحمدية .

الفصـــــل الخامـــــس

"طبيعـــة الشعـــر الجاهلـــي"
والمؤثرات الخاصة في اتجاهـــاته الفنيـــة

الشعر الجاهلي شعر وجداني تبعثه الانفعالات النفسية وتزجيه الأحاسيس الذاتية فهو إذن شعر غنائي يسجل خلجات النفوس ونوازعها ويصور أحاسيس الشعراء بالنعيم والشقاء والراحة والعناء والخير والشر وما يرونه بأعينهم ويحسونه بوجدانهم من صور الحياة وأحداث الوجود وما يكابدونه من اهوال الصحراء وعصف الرياح ولمع البروق وقصف الرعود وعواء الذئاب وخداع السراب وما يهتزون له طربا من وقع الأمطار وخصوبة المراعي وازدهار الثمار وانتشار الظلال وبرد النسيم وبهجة النعيم ومتعة السمر والائتناس بالرفيق .. والغنائية تعني الذاتية بمعنى أن الشعر الجاهلي شعر ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلج في أعماقه من مشاعر وأحاسيس حين يتحمس ويفخر أو حين يأسى ويرثي أو حين يعتذر ويعاتب أو حين يتأثر وينفعل فيصف ما يراه وما يحسه ..

والشعر الجاهلي بذلك يماثل الشعر اليوناني القديم في نوعه الغنائي الذي كانوا ينشدونه في فخر أو مدح أو هجاء أو غزل أو رثاء مصحوبا بالعزف على آلة موسيقية تسمى " ليرLYRE " ونسبوا اليها هذا اللون من الشعر فقالوا Lyric أي غنائي .... بل إن الراويات التي تروى تؤكد أن الشعراء الجاهليين كانوا يغنون فيه ومعنى ذلك ان الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند اقدم شعرائه فالرواه يذكرون ان المهلهل غنى في قصيدته :

طفلة ما ابنة المحلل بيضـــــاء لعوب لذيذة في العناق (١)

وأبو الفرج الأصفهاني يشير إلى أن بعض الشعراء تغنوا ببعض أشعارهم من مثل السليك بن السلكة وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى الذي كان يوقع شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج

١ــ الاغاني جـ ٥ ص ٥١ ط دار الكتب والطفلة : الرخصة الناعمة .

ولعله من أجل ذلك أطلق عليه " صنّاجة العرب " (١) .

فالسمة الغنائية كانت أساسا عندهم في الشعر حتى انهم عبروا عن إلقائه بالإنشاد وكان من أقدم صوره عندهم الحداء الذى كانوا يردد ونه بصوت رخيم وراء إبلهم في أسفارهم حثالها على السير السريع .

وكما نعلم فقد بدأ الشعر بالبيت والبيتين ينظمهما الشاعر تعبيرا عن مشاعره من حب وبغض وغضب وحماسة وغير ذلك وكانوا يستعملون في ذلك بحر " الرجز " لسهولته وخفته ويسمون القطعة منها " أرجوزة " والجمع " أراجيز " ومن الواضح أن هذه الأراجيز إلى ما تمثله بوزنها الخاص من ركضات الخيل وضربات السيوف وطعنات الرماح واختلاجات الأبدان وحفزات الهمم لابد وان يكون لها السبق دائما في الشعر في هذه المقامات بالإضافة إلى ما تتسم به من قصرها وقربها من البديهة والارتجال ولأنها تمثل دفعات شعورية قوية وبسيطة في آن . ومعلوم أن حاجة الإنسان العربى إلى الغناء بالكلام كانت هى الباعث الأول على نشأة الكلام الموزون وهو الشعر الذى تغنى به العربى الجاهلى في حلة وترحاله وفي حبه ولهوه وفي حدائه للإبل وانطلاقه بفرسه وراء فريسته وفي كل وقفة لمعند مشهد من مشاهد الطبيعة والحياة والجمال .... وقد كان التغنى بالرجز والشعر شائعا عند عرب الجاهلية في احتفالهم بالعرس وولادة المولود وظهور شاعر وفي شتى المناسبات بل وفي ميادين الحرب والقتال وفي أعيادهم الدينية وعند تقديم القرابين لآلهتهم ونحو ذلك ..

لقد عرف عرب الجاهلية ضروبا مختلفة من الغناء الذى كان ارتباطه بالشعر ارتباطا وثيقا كما عرفوا القيان والغناء والإنشاد مع العزف بالآلات المختلفة من مثل الدف والعود والمزمار والبربط والطنبور ... ويؤكد ذلك إسحاق الموصلى فيقول " غناء العرب قديما

---

١ ـ الأغانى ص ٩ ص ١٠٩ والشعر والشعراء جـ ١ ص ٢١٤

على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، فأما النصب فغناء الركبان والفتيان والذى يستعمل فى المراثى وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم هذا كان غناء العرب قديما حتى جاء الله بالإسلام وفتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير .. "(١) .

هكذا نظم شعراء الجاهلية أشعارهم فى جو غنائى يسرى فيه سحر النغم واللحن والإيقاع .. وقد يوقع هذا الغناء على بعض الآلات الموسيقية وقد يقوم بغناء الشعر قيان وجوقات تعزف وترقص فى أثنائه ... ومن مظاهر العنصر الموسيقى فى هذا الشعر الوزن الواحد وما يمثله من حركات وسكنات منتظمه وملتزمة والقافية الموحدة بما تمثله من إيقاع ثابت يقف عنده الكلام ويستقر الوجدان ..

إننا لا نكاد نشك فى أن صور الأوزان المتنوعة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى إنما حدثت بتأثير هذا الغناء وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئه فى بعض الأوزان كمجزوء الكامل والمديد بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمتقارب والرمل والهزج ... وقد كثرت التجزئة وضروب التعديل فى الرجز لأنه كان وزنا شعبيا كثير الدوران فى حدائهم وفى كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر وما إلى ذلك ...

وإذا كانت النزعة الذاتية الغنائية هى الغالبة على الشعر الجاهلى فإن الشعر اليونانى القديم قد غلبت عليه النزعة الموضوعية فيما عرف عندهم بالشعر القصصى الملحمى والشعر المسرحى التمثيلى . فالشاعر فى شعره الملحمى لا يعبر عن ذاته أو مشاعره وأحاسيسه وإنما يعبر عن أحداث وأشخاص وبطولات فى قصة أسطورية تمتزج فيها الحقيقة

١ــ العمدة جـ٢ ص٢٩٦

بالخيال وتحكي عن وقائع مذهلة تصطرع فيها الآلهة وأنصاف الآلهة وتبلغ عدتها آلاف الأبيات ... وذلك مثل " الإلياذة " و " الأوديسة " لهوميروس الشاعر اليوناني القديم . كما ان الشاعر في شعره المسرحي لا يعبر عن ذاته وانما يترك شخوصه تتحرك وتعبر عن ذواتها بأساليبها ويجرى الحوار بينها ويحرك الأحداث في إطارها ويجيد صياغتها وحبكتها بفنه وإبداعه وإحساسه الملهم ، نلمح ذلك بوضوح في مسرحية " أنتيجونا " للشاعر المسرحي اليوناني القديم " سوفوكليس " الذي كانت ولادته حوالي عام ٤٩٥ ق . م ... فالأشعار الغنائية إذن تمتاز بأن الصفة الذاتية Subjective تغلب عليها على حين أن الصفة الموضوعية Objective تغلب على الشعر القصصي والمسرحي .

وليس فيما وصل إلينا من الشعر العربي القديم شعر مسرحي تمثيلي أو شعر ملحمي قصصي بالمعنى المعروف ... ولكن ليس معنى هذا أن الشعر العربي لم يشتمل يوما على هذا الطراز المعروف بالشعر الملحمي القصصي لأن الملاحم عادة تنظم في العهود الأولى للشعوب في أوائل الزمن الجاهلي مثلا أو قبله . وهذا هو الأصل في تأليف الملاحم على ما عهدناه من منظومات " هوميروس " في " الإلياذة " و " الأوديسة " والمؤلفون المتأخرون الذين نظموا الملاحم انما نسجوا على منوالها واقتفوا أثرها واضطروا اضطرارا لان يختاروا لقصصهم موضوعا قديما حماسيا يناسب هذا اللون من الشعر الملحمي ...

والأشعار العربية التي ترجع إلى العصر الجاهلي قد ضاع أكثرها وليس بمستبعد أن يكون في جملة المفقود منها شعر قصصي جليل الخطر نرى شاهدا عليه ودليلا يؤكد وجوده في هذا القصص الذي يروى عن أيام العرب وحروبها في الجاهلية من مثل يوم ذي قار وحرب البسوس وحرب داحس والغبراء وغيرها ... فالأرجح أن هذه الأشعار قد نظمت ثم فقدت ولم يعوضنا عن فقدها الشعراء المتأخرون بالنظم في هذه الموضوعات القديمة لأنهم اتجهوا بأشعارهم اتجاهات أخرى (١)

---

١ - التوجيه الأدبي ص ١٥٧ وما بعدها .

ومع هذا الاحتمال فان هناك حقيقة ماثلة تؤكد إن الشعر العربى الجاهلى لم يكن مقصورا على تغنى الشاعر بآماله وآلامه وتصوير مشاعره وأحاسيسه بل كان منه أيضا الشعر القصصى بالمفهوم العام للقصة الذى يسير فيه الشاعر على النهج الموضوعى الخارجى ليقدم أحداثا متوالية منطقية فى تحركاتها وانتقالاتها فى عرض مثير بارع للحكايا التى تنبع من بيئته وتفرضها على خياله وفكره قيم مجتمعه وتقاليده وطبيعة نظرته إلى الأشياء والأمور ... وعلى سبيل المثال ففى معلقة امرئ القيس نرى أهم العناصر القصصية فى حكاية مغامراته ورحلاته وأحداث حياته وما إلى ذلك مما يدور فى إطار القص والإثارة .... وعلى غرار امرئ القيس نرى كثرة من الشعراء الجاهليين فى بعض ما قدموا مثل الأعشى فى مقطوعاته التى تحدث فيها عن الملوك والقرون الخالية ، ولقيط بن يعمر الإيادى فى عينيته وعمرو ابن كلثوم فى معلقته والشنفرى فى تائيته ولاميته .... بل إن بعض الشعراء استطاع أن يتعمق أغوار النفس البشرية فى لحظة من لحظات ضعفها ويبرز صورتها فى قالب قصصى ممتع على نحو ما صنع حاتم الطائى فى قوله :

وداع دعا بعد الهُدُوِّ كأنما ... يقاتل أهوال السُّرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجنون ومابه ... جنون ولكن كيد أمر يحاوله
فلما سمعت الصوت أقبلت نحوه ... بصوت كريم الجَدِّ حلوٍ شمائله
فأبرزت نارى ثم أثقبت ضوءها ... وأخرجت كلبى وهو فى البيت داخله
وقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... رشدت ولم أقعد إليه أسائله
وقمت إلى بَرْكٍ هجان أعده ... لوجبة حقٍّ نازل أنا فاعله
بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الأرض لم تَخْطَل على حمائله
فجال قليلا واتقانى بخيره ... سناما وأملاه من السَّنِّ كاهله
فخرَّ وظيفُ القَرْم فى نصف ساقه ... وذاك عقال لا يُنشَّط عاقله
بذلك أوصانى أبى وبمثله ... كذلك أوصاه قديما أوائله (١)

---

١ ـ بعد الهدو : بعد أن هدأ الليل ونام الناس ـ السرى : السير بالليل ـ كيد أمر يحاوله : أى حيله يحتال بها لعمل احدا يسمعه فينقذه ـ كريم الجد : كريم الأصل والجد أبو الأب =

والشاعر فى هذه الأبيات يتحدث عن سائر بالصحراء فى جوف الليل اشتبهت عليه المسالك وأوحشه الظلام ووقع فى صراع شديد مع أهوال الليل واستبد به خوف رهيب فصرخ صرخة شبه مجنونة وما كان مجنونا ولكنه أراد بهذه الصرخة أن يهب نائم أو يسمع صيحته جواد كريم فينقذه مما هو فيه من شدة وكرب ... وسمعه حاتم فهب إليه هبة رجل كريم الأصل حلو الخلق وجاوبه بصوت أراد أن يبعث به الطمأنينة إلى نفسه وبادر إلى ناره فابرزها وزاد فى إشعالها وأخرج كلبه لينبح لعل هذا السارى يهتدى بنباحه ... واهتدى شريد الليل إلى حاتم فهش للقائه ورحب به ولم يطل عليه السؤال بل سارع إلى إبله الكريمة التى أعدها لقرى الضيفان ومعه سيفه الذى مست نعله الأرض ولم تضطرب حمائله لطول صاحبه .. وفزعت الإبل لرؤيتها حاتما واضطربت فجعلت بينه وبينها فحلا من أكرم فحولها وأعظمها شحما ولحما فضربه حاتم بسيفه ضربة أسقطت خفه إلى نصف ساقه وكانت هذه الضربة كأنها عقال له لا يحتاج صاحبه إلى شده لأن البعير لن يقوى على الإفلات منه .... وقد صنع حاتم فى هذا الموقف ما وصاه به ابوه وما تلقاه أبوه عن آبائه وأجداده الذين ورثوه المجد وعلموه الجود ... وهكذا جاءت هذه الأبيات فى صورة قصة من وحى البادية وحياة الصحراء وما كان فيها من مخاطر وأهوال يتعرض لها السائرون بالليل وما كان من إيقاد النيران ونباح الكلاب ليهتدى بها الضالون فى ظلمات الليل الرهيب وليحظوا بلقاء جواد كريم يهب لنجدتهم والترحيب بهم ونحر كرائم الإبل لهم والأبيات تعبر بألفاظها القوية وأسلوبها الجزل وصورها البدوية المثيرة عن هذه المعانى كلها كما أنها تصور شخصية حاتم الطائى وما كان يتفوق به على أقرانه من مراتب الجود والكرم والمروءة والشهامة وغيرها من الصفات التى كانوا يحرصون على الاتصاف بها وتسجيلها فيما ينشدون من أشعار .

=الشمائل : الصفات والمفرد شمال ـ أثقبت ضوءها : ألهبتها ـ رشدت بمعنى هُديت إلى الرشد والصواب ـ برك هجان : البرك : الإبل والهجان الكريمة ـ لوجبة حق نازل أى لأداء واجب على أن أنهض به بنزول هذا الضيف على والوجبة اسم مره ـ بأبيض خطت نعله : الأبيض السيف ونعله حديدة فى أسفل غمده ـ لم تخطل على حمائله : لم تضطرب وتتثنى ـ جال : تحرك واضطراب ـ النى : الشحم ـ كاهله : الكاهل مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق ـ خر : سقط ـ وظيف القرم : الوظيف الخف والقرم : الفحل الكريم من الإبل لا يركل ولا يحمل ـ عقال : رباط ـ لا ينشط عاقله : لا يحتاج إلى شده لأن عقدته لا تحل .

ومن مظاهر التعبير الإيحائى الجميل قوله فى البيت الخامس " رشدت" فقد جاء دقيقا وجميلا فى موضعه بعد الحيرة والضلال ٠٠ وفى البيت السابع كناية عن صفة يعتز بها العربى ويزهو وهى طول القامة واعتدالها ودلالة ذلك على السيادة والشرف والقوة وسر جمال الكناية أنها تعطى المعنى مصحوبا بالدليل ودليل طول القامة واعتدالها هو أن نعل السيف يمس الأرض ويخط فيها دون أن تضطرب الحمائل أو تنثنى وماذلك إلا لطول قامة حامل السيف ـ وفى البيت التاسع كناية عن رقدة الاستسلام النهائى للذبح وهى الرقدة التى لا قيام بعدها ٠

وهناك قصيدة الحطيئة الشاعر المخضرم التى يقول فيها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مُرْمِلٍ ... ببيداءَ لم يعرف بها ساكنٌ رسما
أخى جَفْوة فيه من الإنس وحشةٌ ... يرى البؤس فيها من شراسته نُعْمى
وأفرد فى شِعب عجوزا إزاء هما ... ثلاثة أشباح تخالهم بَهْما
حُفاة عُراة ما اغتذوا خُبزَ ملَّةٍ ... ولا عرفوا للبُرّ مذ خَلقوا طعما
رأى شبَحا وسط الظلام فراعه ... فلما رأى ضيفا تشمَّر واهْتَمَّا
فقال : هيا ربَّاه ضيف ولا قِرى ... بحقك لا تحرمه تا الليلةَ اللحما
فقال ابنُه لما رآه بحيرة ... أيا أبت اذبحنى ويسِّر له طُعما
ولا تعتذر بالعُدْم علَّ الذى طرا ... يظن لنا مالا فيُوسعنا ذما
فروَّى قليلا ثم أحجم بُرهةً ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما
فبيناهما عنَّت على البعد عانةٌ ... قد انتظمت من خلف مسحلها نظما
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها ... على انه منها الى دمها أظما
فأمهلها حتى تروَّت عطاشها ... فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرَّت نحوص ذات جحش سمينة ... قد اكتنزت لحما وقد طُبِّقت شحما
فيا بشره إذ جرها نحو قومه ... ويا بشرهم لما رأوا كَلْمها يَدْمَى
وباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم ... وما غرِموا غُرما وقد غنموا غُنْما

وبات أبوهم من بشاشـــه أبـــا لضيفهم والأم من بشرها أمـــا (١)

هذه القصيدة تمثل قصة شعرية مثيرة بحكايتها وأحداثها وأشخاصها وعقدتها وحلها وما فيها من حوار ومالها من إطار زماني وبيئة مكانيـــة وماتركز عليه من تصوير للكرم العربي ومراعاة حق الضيف من البِرِّ به والبشاشة في وجهه مهما يكن ضيق ذات اليد وسوء الحال وإحساس الغلام بحـــرج الموقف وحيرة أبيه وما اعتراه من هم وحزن لفقره وقله حيلته فإذا به يقـــدم على عرض مثير يرى فيه حلا للمشكلة وخلاصا من الأزمة وفكاكا من العقـــدة فيقول لأبيه " ياأبت اذبحني وهيء لضيفك طعاما من لحمي " لكن الوالد يتروى ويتمهل لعل الله ان يوافيه بفرج قريب ويظهر الصراع قويا عنيفـــا حين هم الوالد بذبح ولده رعاية لحق الضيف لكنه يحجم ويتوقف رعايـــة للرحمه وعاطفة الابوه وتغلبيا للروح الانساني على كل اعتبار . ثم يأتـــي حل هذه العقدة او تفريج هذه الازمة ممثلا في مفاجأة لم تكن متوقعـــة إذ يظهر على البعد قطيع من حمر الوحش منطلقة نحو الماء فانســـاب الأعرابي نحوها في خفة وحذر وأمهلها قليلا حتى ارتوت من الماء ثم أطلق

---

١ ـ الحطيئة : أبو مليكة جرول بن أوس أحد الشعراء المخضرمين الذيـــن أدركو الجاهلية والاسلام .
طاوى ثلاث جائع منذ ثلاث ليال ـ مرمل : فقير فقد زاده ـ البيـــداء الصحراء ـ الرسم : آثار الديار ـ اخى جفوة : غليظ الطبع ، ـ الشعب : الطريق في الجبل ـ البهم : صغار الضان والماعز ـ خبز الملة : خبـــز ينضج على الرماد الحار ـ البر : القمح ـ راعه : أخافه ـ القرى : ما يقدم للضيف من طعام ـ العدم : الفقر ـ الذى طرا أى طرأ بمعنـــــى نزل علينا ضيفا روّى قليلا : فكر وتدبر في الأمر ـ عنت : ظهرت ـ عانـــة قطيع من حمر الوحش ، المِسْحَل حمار الوحش ـ الكنانه جعبة السهـــام خزت : سقطت ـ نحوص : اتان وهى انثى الحمار ـ طبقت شحمـــــا عمها الشحم وغطاها ـ يدمى : يسيل منه الدم ـ غرموا غرما : خســـروا خسارة وعكس الغرم الغنم بمعنى المكسب .

عليها سهما أصاب من إحداها مقتلا فظفر بصيد ثمين كان طعاما شهيا لضيفه و لأفراد أسرته ـ وتم بذلك انفراج الأزمة وتمام الفرحة ٠

وسواء أكانت هذه القصيدة من شعر الحطيئة الجاهلى أم الإسلامى فان لها دلالتها على ما نقول من وجود القصة فى شعرنا العربى بمستوى رائع من البناء الفنى المحكم الذى نماه فكر الحطيئة وخياله وغذته شاعريته وأضفت عليه موهبته روعة الجمال وسحر البيا ن وأصالة الفن وجلال العنصر الإنسانى العالى الرفيع ٠٠

وليس يعنينا أن يكون القصص العربى على هيئة الملاحم التى كانت موجودة عند اليونان أو غيرهم ليس من حق أحد أ ن يلزم الشعر العربى بما التزم به غير أبناء البيئة العربية ولا أن يقيس اتجاهاته باتجاهات أخرى مغايرة لدى أقوام آخرين مهما كانت منزلتهم ومكانتهم إذ من المعلوم أن لكل بيئة ظروفها وطبيعتها وخصائصها كما أن لها فنونها وأساليبها وأذواق ابنائها وطرائق تعبيرهم ووسائلهم الفنية التى يتناولون بها مناحى الحياة وجوانبها المختلفة ٠٠٠ ونحن فى حقيقة الأمر نهتم اهتماما بالغا بإزالة الغموض والإبهام عن تراث موجود فعلا نحاول أن نكشف عن جوهره ومعدنه للناس وما يحتوى عليه من قيم إنسانية خالدة وما يتسم به من ملامح العبقرية وشواهد الإبداع ٠

ولا شأن لنا بعد ذلك بما ليس بموجود فى تراثنا وأدبنا وإن كان له وجود فى آداب أخرى هذا لا يعنينا ولا يضيرنا بقدر ما يؤذى ويضر مثل هذا الكلام الذى يطلقه بعض الباحثين العرب مما يفهم منه إلحاق النقص والقصور بأدبنا العربى القديم وتراثنا التليد واثبات العجز والتخلف لأوائلنا الأماجد الذين كانت مفخرتهم الفصاحة والبلاغة والبيان ، من مثل ما يذكره محمد غنيمى هلال ويقرره من أن القصص مسرحيا كان أم غير مسرحى لم يلعب دورا كبيرا فى الأدب العربى فى تصويره قوى الانسان وصراعهلمعا يعوقها من القوى الغيبية

أو البشرية أو الطبيعية في صورة موضوعية فنية يتوجه فيها الكاتب إلى الجمهور لتأييد قضية عامة من القضايا الاجتماعية والفلسفية أو تفنيدها وهذا فارق جوهري بين الأدب العربي والآداب الغربية عامة بل يكاد يكون فارقا كذلك بين الآداب السامية والآرية إذ أفاد الفرس من قصص القرآن ومن قصصهم الأسطوري في نظم الملاحم وبرعوا في القصص الفلسفية على نحو لم يعرفه العرب »(١) ونراه بعد ذلك يتلمس العلل والأسباب لهذا التخلف العربي في المجال القصص والمسرحي فيرجعها تارة إلى الجنس السامي وخصائصه التي لم تهيئه لمثل ما تهيأت له الشعوب الآرية وتارة أخرى للبيئة العربية وفقرها في المناظر الطبيعية مما كان له اثره في بساطة الخيال وضحالته وقلة الأساطير وسطحية معناها مما يقعد بالفكر عن التعمق والتشخيص في خلق القصص أو المسرحيات على نحو ما كان عند اليونان وتارة ثالثة يرجعها إلى الروح القبلية التي عاش العرب في ظلها والتي كانت تدفع إلى الاعتداد بالحقائق المأثورة والحوادث المروية والوقوف عندها وعدم التعمق في الخيال والتشخيص .. ثم نراه يقول آخر الأمر " ولا شك أن لهذا كله أثرا في الإنتاج الأدبي ومنه القصة والتمثيل ولكن كثيرا من العوامل السابقة كان متحققا ـ على نحو ما ـ لدى الإيرانيين ولم يعفهم ذلك عن فهم القصة وعن نظم الملاحم وفي هذا ما يجعلنا نعتقد أن للجنس أثرا في خلق الأدب الموضوعي أو توجيه الميول الى استثماره الى جانب تأثير البيئة والنظم القبلية المشار اليها "

بيد أنه يعود فيمحو أثر خصائص الجنس إذ يقول " ولكن نكرر ما قلناه سابقا من أن عامل الجنس ليس جبريا آليا في نتائجه إذ قد يمحى أمام التأثر بالتيارات الفكرية العالمية إذا قيض لها من يستغلها من ذوي المواهب بين الشعوب .. "(٢) .

---

١ ـ المدخل ص٦٠٤ وما بعدها

٢ ـ المدخل ص٦٠٦ وما بعدها .

هذا هو الكلام الذى نرفضه ونأباه ونخشى نتائجه وسوء عقباه لما سبق أن قلناه وبيّناه من أنه ليس لأحد أن يلزم الشاعر العربى بما التزم به غير أبناء البيئة العربية ولا أن يقيس اتجاهات الشعر العربى باتجاهات أخرى مغايرة فى آداب أقوام آخرين وأشعارهم ، ولا أن يتلمس العلل والأسباب لعدم وجود الملاحم والمسرحيات فى شعرنا العربى بينما هى من الفنون الأصيلة فى أشعار اليونان والرومان ... وأقولها كلمة أرجو أن تكون مقبولة :

" ياقوم دعوا ما للعرب للعرب وما لليونان لليونان فهذه هى سنة الحياة "

واذا كان الشعر الجاهلى مظهرا من مظاهر الحياه الجاهلية باحداثها واحوالها وظروفها الطبيعية والاجتماعية وعقائدها الدينية ومعارفها وعاداتها وتقاليدها ومشاعر ابنائها وخواطرهم وامزجتهم الخاصة واتجاهاتهم المتميزة ..... اقول : اذا كان الشعر الجاهلى كذلك فان من واجبنا التعرف بتركيز وايجاز على اهم المؤثرات الخاصة فى الاتجاهات الفنية للشعر الجاهلى وسماته الذاتية وملامحه الشكلية والموضوعية .

ومن هذه المؤثرات :

أ ـ الاستعداد الفطرى وخصائص الجنس :

فالأمة العربية أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائع أبنائها ، وتشدو به ملكاتهم إذا حلوا وارتحلوا فى ظعنهم وإقامتهم ، فى غدوهم ورواحهم عند الخوف والهلع وفى حال الطمأنينة والسكينة ، إبّان الحروب وأهوالها وتحت رايات السلام ووارف ظلها .... إنها أمة تمتاز بصفاء الطبع ودقة الحس وحضور البديهة ورقة الشعور وحدة العاطفة وسرعة الانفعال . والتأثر ولذلك غلب عليها الشعر الغنائى الذى يلبى نداء العاطفة

ويستجيب لداعي الشعور فقد أتيح للأمة العربية منذ جاهليتها أن تكون أقوى الأمم شاعرية وأشعر الأمم السامية لفراغهم وحريتهم واستقلالهم وتوقد قرائحهم وحنينهم وهيامهم لكثرة حلهم وترحالهم وصفاء سمائهم وسكون صحرائهم وامتداد آفاقهم وطلاقة ألسنتهم وانطلاق مواهبهم كما سبق أن أشرنا إلى ذلك (١)

ب ـ طبيعة الإقليم :

فمما لا شك فيه أن الإقليم يطبع الشعب على غرارة كما يؤثر في أجسام أبنائه وألوانهم ولهجاتهم ومن هنا تأثر أدب الجاهلية بطبيعة البيئة البدوية وسمات الجزيرة العربية فكان بحق صورة صادقة لطبيعة البادية نرى فيه النجاد والوهاد والأطلال والكثبان والنوق والغزلان والآرام والشيح والقيصوم والحنوة والعرار .. وحين نزح العرب من جزيرتهم ميممين شطر الشام والعراق ومصر وهي أقاليم تتمتع بطيباتها وخيراتها وتحظى بالنعيم والازدهار وتزهى بالحضارة والعمران ومظاهر التقدم تأثرت آدابهم بهذه الأقاليم وتشكلت بأشكالها ووسمت بطابعها فلانت الأساليب وتجددت الأخيلة واتسعت الأغراض والمعاني وكان لكل إقليم توجهاته الخاصة وملامحه المميزة .

جـ ـ طبيعة العصر :

باعتباره عصرا جاهليا له تأثيره على الأجيال التي تعيش فيه بالظروف التي تلابسه وبعوامل التطور أو التدهور التي تصاحبه وبالأحداث الكبار التي تقع فيه وباختلاف القيم والمعايير التي تنشأ في إطاره ومن هنا يتضح أن الزمن في حد ذاته بوصفه المطلق ليس مقصودا لنا وإنما

---

١ ـ انظر ص ١٤ من هذا البحث .

نركز على طبيعة العصر وما يصاحبه من ظروف وما يطرأ عليه من تغيير في القيم والأخلاق والعادات وأنماط والسلوك وما يصحبه من اتجاهات فكرية ونزعات دينية وحركات سياسية وتقلبات اجتماعية وتيارات علمية وثقافية وفنية وما إلى ذلك ... ففي هذا العامل ـ أعني طبيعة العصر ـ تتركز كل المؤثرات الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية والفنية ومن غير شك فإن العصر الجاهلي بما يمثله من فطرة وبداوة وجرأة وتحرر وإباء وغطرسه وكبرياء وجهاله وسفه ووثنية وشرك ولهو وعبث وعصبيه بغيضة وكرم ونجده ومروءه وحمية وشهامه وتحرر من القيود وتحجر وجمود على العادات والتقاليد . ونفور من الذله والهوان وخضوع للهوى والشهوات .. عالم عجيب غريب ملئ بالمتناقضات مشوب بالحيرة والقلق والتشكك والترقب والانتظار والتطلع إلى نوعية أخرى من نوعيات الحياة يسودها العقل المفكر والمنطق الواعي والتدبير المحكم والروح الغالي والنفس الطموح والأواصر القوية والائتلاف المتين والسلوك الرشيد ... وهذا العالم العجيب الغريب تجد صورة صادقة له وتأثيرا واضحا فعالا منه في ذلك الأدب الجاهلي بما يمثله من منظوم ومنثور في فنونه المختلفة وموضوعاته المتعددة وخصائصه الفنية وملامحه المميزة .

د ـ طبيعة اللغة العربية :

من الحقائق المقررة أن العرب أخذوا يوجهون عناية خاصة بلغتهم وينهضون بها نهوضا قويا وسريعا في القرون الأولى للميلاد وقد ساعد على ذلك شعور العرب بكيانهم السياسي والقومي وحاجتهم إلى الوحدة والتجمع .

ومع أوائل القرن السادس الميلادي تكاملت الفصحى ، وأخذت شكلها النهائي بدلالة هذه النصوص الشعرية الجاهلية التي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس الميلادي ، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل وأصبحت هناك لغة أدبية عامة هي هذه الفصحى التي

ينظمون بها أشعارهم ويتحدثون بها في حياتهم اليومية ولم تنتشر هذه اللغة بين القبائل الشمالية فحسب بل أخذت أيضا تغزو الجنوب وبخاصة في مواطنه الشمالية المجاورة للشماليين كنجران ومناطق قبائل الأزد .

ويؤخذ من أقوال الثقاة وأهل البصر من العلماء والباحثين القدامى والمحدثين أن هذه اللغة الفصحى إنما هي اللهجة القرشية التي نزل بها القرآن الكريم والتي عرفت بفصاحتها وصفائها وسهولتها وحسنها .... يقول أبو نصر الفارابي : " كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا ، وأبينها إبانة عما في النفس "(١)

وينقل أحمد بن فارس عن إسماعيل بن أبي عبيد الله قوله " أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب "(٢)

ومعنى ذلك أن اللهجة القرشية كانت ذائعة منتشرة بين العرب منذ أوائل العصر الجاهلي بدلالة أقدم ما وصل إلينا من نصوص شعرية نظمت بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم والتي سميت بالفصحى ...

---

١ ــ المزهر للسيوطي جـ١ ص١٢٨ ط صبيح بمصر .
٢ ــ الصاحبي في فقه اللغة ص٢٣ ط : المؤيد

هذه اللغة العربية الفصحى كان لها الفضل الأكبر والنصيب الأوفر في تحمل عبء الأداء الشاعري على خير وجه وأكمل صورة . وإظهار ملامح الشاعرية العربية في أقوى مظاهرها ، وأدق خصائصها ، وذروة توهجها وقمة تألقها وازدهارها ، والتعبير عن شتى الأحاسيس والمشاعر ، وسبحات الخيال ، وسنحات الخواطر ، وسائر الأغراض والموضوعات بأصالة وفن ، وإبداع واقتدار ..

ولقد سمت اللغة العربية إلى هذه الغاية وحلقت في هذا الأفق بفضل ما تهيأ لها من مميزات في دقة الأداء للمعاني واستخدام الألفاظ والأساليب وتعددها وتنوعها بتعدد المعنى والمدلول ، وتنوع المواقف والاتجاهات ، وسعتها وامتدادها وأعماقها وأبعادها ، وكثرة مترادفتها ومشتقاتها وصيغها وأبنيتها التركيبية ، ووسائلها الفنية وطاقاتها الإبداعية واقتدارها على الإيجاز، وطواعيتها للإطناب في مجال الإطناب بأكمل أداء ، وأوفى بيان .

هـ ـ أسواق العرب :

فقد كان للعرب في جاهليتهم أسواق عامة للتجارة وكانت هذه الأسواق تستمر طوال العام ينتقلون من بعضها الى بعض ومن أشهر هذه الأسواق : عُكاظ بين نخلة والطائف وكانت تعقد في الأول من ذى القعدة إلى العشرين منه ، ومجنّة وهى موضع بمر الظهران أسفل مكة وكانوا يقيمون فيها إلى نهاية ذى القعدة ، وذو المَجاز بمنى خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

ومع أن هذه الأسواق كانت أساسا مكانا للتجارة والمقايضة إلا أنها كانت أيضا ميدانا فسيحا لتبادل الآراء وعرض الأفكار والتشاور في مشكلات

الأمور ومجالا للمفاخرات والمنافرات والمحاورات ومعرضا لإذاعة المفاخر والمباهاة بالفصاحة والبلاغة والبيان والتغنى بروائع الشعر وسحر القول وجيد الخطب وبدائع اللسان .

وكان الرواة مع الشعراء ، يلازمونهم فى هذه الأسواق وغيرها يتلقون منهم ويذيعون ما يتلقونه فى كل مكان وأهل البصر بالشعر من النقاد وأصحاب الذوق ينصتون ويحكمون ويبدون الرأى ويفاضلون بين الشعراء وكان للنابغة الذبيانى قبة حمراء تضرب له بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها وقصائدها فيحكم بينهم ويفضل بعضهم على بعض — وكان هذا الميدان الأدبى الفسيح بما فيه من آذان مرهفة وحس دقيق وذوق رقيق ورأى حصيف يحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح وتدعوهم إلى تخير الألفاظ العذبة والأساليب المعبرة والمعانى الجيدة قصدا إلى الإفهام والإمتاع . كذلك كانت هذه الأسواق سببا فى التقريب بين لغات العرب ولهجاتهم ووسيلة من وسائل التفاهم اللغوى والتقارب بين اللهجات العربية المتفاوتة واختيار القبائل بعضها من بعض فى مواسم تلاقيها فى هذه الأسواق وكانت الآذان المرهفة والأذواق اللطيفة والأحاسيس اللماحة تعمل عملها فى النقد اللغوى فتلتقط كل قبيلة من لغات القبائل الأخرى ولهجاتها ما خف على النطق ، وعذب فى الألسنة ، وحلا فى الأسماع ، وظهرت فصاحته وحسن وقعه فى النفوس والأفهام وكان للقرشيين — كما بينا — حظ كبير فى هذا المجال فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأنصعها وأفصحها مما زاد فى ثراء اللغة العدنانية القرشية ودعا القبائل الأخرى إلى محاكاتها والاقتباس منها لمكانة قريش المرموقة وقيامها بأمر الحجيج ورعايتها لشئونهم وإشرافها على هذه الأسواق مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع والانتشار أن يتحروا لهجتها المختارة فى إذاعة محامد قبائلهم وأمجادها فكان لذلك آثار بعيدة المدى فى تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها

فى لغة مختارة هى لغة قريش ولسانها العربى المبين الذى نزل بـــه القران الكريم والتقى عليه " ملايين " المسلمين ٠

ومع هذه الآثار الأدبية واللغوية لهذه الأسواق العربية فى الجاهلية فقد كان لها دور خطير فى توحيد العقائد والأخلاق والعادات والتلاقى على قدر مشترك من التفاهم الضرورى للنهوض بالمجتمع العربى والسيـــر فى طريق الوحدة المرجوة التى بلغها بعد ظهور الإسلام وبنيه الكريم ٠ (١)

و- أيـــام العرب :

والمقصود بها حروب العرب وملاحمها ووقائعها العظيمة الـــتى هاجت قبائلهم وأثارت عصبياتهم وتغنى بها الشعراء فى أشعارهـــم وكانت مادة رائعة للسمّار والمحدثين فى حقب طويلة وآماد بعيـــدة يقول ابن عبد ربه عن هذه الأيام " إنها مآثر الجاهـلية ، ومكارم الأخلاق السنية ، قيل لبعض اصحاب رسول الله : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم فى مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا " وهى ينبوع ثجّاج من ينابيع الأدب وميدان فسيح من ميادين البيان بمـــا

١- تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ من ص٨٧ الى ص٩٠
٢- راجع هذه الأيام فى : العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٣ ص٣٤٨ ، ص ٣٦٤ ص٣٧٤ ابن الاثير جـ ١ ص١٨٣ ص٢٨٩ ص٣١٠ ، جـ ٣ ص٣٢٨ ، تاريخ الطبرى جـ ٢ ، ص١٤٨ خزانه الادب جـ ١ ص٣٤٣ ص٤٣٥ ، جـ٣ ص٤٠٣ ٠
- مجمع الامثال جـ ١ ص٣٤٢ ، جـ٢ ص٤٠٢ ، الامالى جـ١ص١٦٩ ص٤٥٣ الاغانى جـ٢ ص٩٧ دار الكتب وجـ١٦ ص٢٠٠ ٠
- معجم البلدان جـ١ ص١٣٩ ، ص٣٣٠ ، جـ٣ ص٣٥٢ ، جـ٧ ص٨

اشتملت عليه من روائع القصص وبدائع القول ومأثور الحكم وبليغ الخطب وجيد الشعر كما أنها صورة صادقة لخواطر العرب ومشاعرهم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم وكافة شئونهم فى الحرب والسلم والنجعة والاستقرار .

وهذه الأيام منها ما كان بين العرب والفرس كيوم ذى قار ، وما كان بين النزاريين واليمنيين كيوم خزازى وما كان بين اليمنيين بعضهم مع بعض كيوم بعاث بين الأوس والخزرج ، ويوم حليمة بين المناذرة والغساسنة وما كان بين النزاريين كيوم الزويرين بين ربيعة ومضر وما كان بين المضريين بعضهم مع بعض كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وما كان بين الربعيين بعضهم مع بعض كحرب البسوس بين بكر وتغلب .

ولهذه الأيام أثر بالغ فى الأدب الجاهلى شعره ونثره فأكثر قصائد الفخر والحماسة والرثاء والهجاء ووصف المعارك وأدوات الحرب والقتال والتحريض وتصوير فظائع الحرب والدعوة إلى السلام ترتبط بهذه الأيام ارتباطا وثيقا وكان الشعراء والخطباء من وراء الفوارس يذكون حميتهم ويلهبون شجاعتهم ويصفون خيلهم وسلاحهم ويشيدون ببطولتهم ومواقفهم وينددون بقوافيهم الباكية صرعى الأيام ويحرضون على الثأر والانتقام ، وقد ينفرون من الحرب ويلاتها ويحملون لقبائلهم دعوة السلام ويرفعون بأيديهم أغصان الزيتون .

ولا يقتصر أثر هذه الأيام على الشعر بل إنها تشغل جزءا كبيرا من النثر الجاهلى أيضا كما نجد فى خطبة هانئ بن قبيصة فى قومه يحرضهم على الحرب يوم ذى قار .(١)

---

١ ـ انظر الأمالى جـ١ ص١٦٩ .

وفي سواها من الخطب وفي الكثير من المفاخرات والمنافرات والمحاورات والحكم والأمثال التي تتصل بأيام العرب في جاهليتهم والأدب الذي خلقه لنا الشعراء والأدباء في هذه الأيام يعد بحق صورة مفصلة لحياة العرب الاجتماعية والسياسية وصلاتهم بالأمم المجاورة لهم كما أنه يعد مرآة ناطقة بأخلاقهم وفضائلهم وعاداتهم وشمائلهم وما تحدثت به الرواة عن هذه الأيام وما ألف فيها من الكتب يشغل جانبا كبيرا في الأدب العربي ومصادره وهو يمثل ألوانا طريقه من فنون الأدب المتصلة بالقصص والأساطير .(١)

١ــ لأبي عبيدة الأديب الراوية المتوفى عام ٢٠٩ هـ كتاب صغير حوى خمسة وسبعين يوما وكتاب آخر جمع فيه ألفا ومائتي يوم ولأبي الفرج الأصفهاني المتوفى ٣٥٦ هـ كتاب في أيام العرب جمع فيه ألفا وسبعمائة يوم .

الفصل السادس
ملامح العبقرية وشواهد الإبداع في فنون الشعر الجاهلي

اختلف الدارسون والباحثون وقدامى النقاد حول فنون الشعر العربى وأغراضه اختلافا كبيرا فأبو تمام المتوفى حوالى عام ٢٣٢هـ نظمه في عشرة موضوعات هى : الحماسة والمراثى والادب والنسيب والهجاء والأضياف ومعهم المديح والصفات والسير والنعاس والملح ومذمة النساء ... وابن وهب الكاتب يتحدث عن المديح والهجاء والحكمة واللهو ثم يفرع عن كل واحد من الأربعة فنونا ،[١] وقدامة بن جعفر يوزع على ستة موضوعات هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بتقسيماته العقلية المنطقية أن يرد الشعر إلى بابين اثنين هما المديح والهجاء[٢] وابن رشيق ينقل عن بعض العلماء أن أركان الشعر أربعة هى : المدح والهجاء والنسيب والرثاء وأن قواعد الشعر أربع : الرغبة والرهبة والطرب والغضب فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع ....[٣] وأبو هلال العسكرى يجعل أشهر فنون الشعر في الجاهلية ستة : المديح والهجاء والوصف والنسيب والمراثى والفخر[٤] .

ولا يعنينا هذا الاختلاف في قليل أو كثير إذ أن هذه الأغراض والفنون موجودة فعلا في شعرنا العربى لا ندعيها وليس بوسع أحد أن ينتقص

١ــ البرهان في وجوه البيان ص ١٣٥ تحقيق حفنى شرف .
٢ــ نقد الشعر ص ١٧ .
٣ــ العمدة جـ ١ ص ١٠٠
٤ــ الصناعتين ص ١٢٧ جـ ١ صبيح ورفعها بعضهم الى سبعة هى المدح والهجاء والمراثى والاعتذار والتشبيب والتشبيه واقتصاص الأخبار " قواعد الشعر لثعلب ص ٢٨ ط الحلبى " .

منها وانما يعنينا حقيقة تلك الفروق الدقيقة بين هذه الفنون والأجناس من حيث اختلاف المواقف والبواعث النفسية واتجاهات الشاعر فيها وغايته منها ومدى احادته لها أو لبعضها وما يمتاز به كل فن من خصائص وسمات ... يقول ابن قتيبة : الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ومنهم من تسهل عليه المراثي ويتعذر عليه الغزل وقيل للعجاج انك لا تحسن الهجاء فقال إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم . وهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيبا وأجودهم تشبيها وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع وذلك الذى أخره عن الفحول فقالوا فى شعره أبعار غزلان ونقط عروس ... "(١)

وبالتأمل الواعى يمكن التعرف بوضوح وجلاء على فنون الشعر الجاهلى ممثلة فى الحماسة والفخر ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ، والوصف والاعتذار ، والحكمة ... ونتناول هذه الفنون والأغراض فى إطار ملامح العبقرية وشواهد الإبداع فيها .

أولا : في النسيب وسر الالتزام به في مطالع القصائد الجاهلية :

جرى اللغويون والشعراء وأكثر النقاد على أنه لا يوجد فرق بين التغزل والنسيب والتشبيب فهم يعرفون إحدي هذه الكلمات بالأخرى ويطلقون على نفس المعنى الأسماء الثلاثة ....

فالتشبيب : النسيب بالنساء ونسب بالمرأة شبب بها في الشعر وتغزل وفي المخصص لابن سيدة : النسيب :التغزل بالنساء في الشعر والتشبيب مثله والغزل تحديث الفتيان الجواري [1] أما الغزل فقد أوضح قدامة معناه وفرق بينه وبين النسيب إذ يقول " إن الغزل هو المعنى الذي اذا اعتقده الانسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، والغزل إنما هو التصابي والاشتهار بمودات النساء ..... والنسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن فكان النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه .. " [2] .

ولعل محاولة تلمس الفرق بين هذه الكلمات تكمن في أصول معانيها . فالغزل في أصله نسج وتنميق للحديث مع المرأة بقصد التودد إليها والتعبير عن الرغبة فيها ... فليس أي حديث مع المرأة في أي شأن يكون غزلا .... والنسيب أن ينسب الشاعر إلى نفسه هوي مبرحا وحبا عنيفا وأن يتحدث عما ينسب الى المرأة من ديار وآثار ... وأما التشبيب فيجوز أن يكون من ذكر الشبيبة وأصله الارتفاع فالشباب ارتفاع في الحيوية وارتفاع عن حال الطفولية وشبت النار ارتفعت وغلت وشب الفرس إذا رفع يديه وقام على رجليه ويجوز أن يكون من الجلاء يقال : " شب الخمار وجه الجارية إذا جلاه ووصف ما تحته من محاسنه فكأن الشاعر الذي يشبب بالمرأة قد ارتفعت درجة حبه لها وارتفعت مكانتها عنده فعبر عن ذلك أو كأنه أبرز صفات هذه المرأة ومحاسنها وجلاها

١ـ القاموس المحيط ، لسان العرب ، اساس البلاغة مادة (غزل) ، (نسب)، (شيب) .

٢ـ نقد الشعر ص٤٢ .

للعيون [1] ، والنسيب محوره المرأة وصفاتها وتصوير محاسنها وجمالها وفتنتها ودلالها وتعبيرا عن التعلق بها والرغبة فى وصالها وما يكون من رضاها وإقبالها أو صدها وهجرها وما يدور من حديث معها أو مناجاة لها ووقوف على أطلال منازلها وبكاء ديارها والتسليم عليها ومساءلتها والبوح لها بما يعانيه من لواعج الشوق ولوعة الفراق ولهيب الحنين ... والنبع الصافى الفياض الذى تتدفق منه كل هذه الأحاسيس والمشاعر هو " حب المرأة " الذى يعتبر بحق الطاقة المحركة لكل هذه الانفعالات المبدعة لأروع القصائد وأعذب الأشعار ... والحقيقة أن المرأة العربية لعبت دوراً حيوياً فى حياة الرجل فلقد كانت ذات تأثير ساحر على عقله وقلبه وعواطفه فهو يقتحم الصعاب ويخوض الغمرات ويركب الأهوال من أجلها لذلك كان الشعراء لا يفتأون يرددون ذكرها فى كل مناسبة للقول يفتتحون بذكرها أشعارهم ويبدأون قصائدهم ويقفون على الأطلال ويبكون الديار ويستنطقون الدِّمَن والأحجار ولقد كان للبيئة العربية أثر عظيم فى إجلال المرأة العربية هذه المكانة منذ العصر الجاهلى لأن البيئة بما حفلت به من مشاهد طبيعية متشابهة وجمال فطرى رتيب وبما هيأت له من دواعى التحرر والانطلاق وبما دفعت اليه من شظف العيش وخشونة الحياة وبما استلزمته من تعاون قبلى جعلت من العربى فارساً يعتد بالبطولة والشجاعة ، والنجدة والشهامة ، والمروءة والوفاء والعزة والإباء ، ونصرة المظلوم وحماية الجار .... ومن شيم فارسها هذا شأنه أن يكون مرهف الإحساس فياض المشاعر صادق العاطفة يرى فى خضوعه للمرأة التى يهواها ، وحمايتها والمخاطرة فى سبيلها مظهراً من مظاهر حيويته ورجولته ومروءته وقوته .... وكان طبيعياً أن تشغل المرأة فراغ ذلك المجتمع البدوى الذى يعوزه الكثير من المتع والمباهج وأنماط الحياة المترفة التى تألفها المجتمعات المتحضرة .. ولهذا كانت المرأة محور أحاديثهم ومنتجه أفكارهم وخواطرهم ... يقول " ستاندال " : "إنما يبحث عن الحب الحق ووطنه الأصيل تحت خيام البدوى الدكناء فجمال الإقليم والشعور بالعزلة قد ولد

١ـ العمدة جـ٢ ص ١٢١

هناك أسمى عواطف القلب الإنسانى .. " (١)

ومعنى ذلك أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم بل كانت فى المكان المصون والمنزلة الكريمة وكان الشاعر يستلهمها شعره ويستوحيها خواطره ومشاعره ، ولذلك كان يشبب بها ويتغزل فى مطالع قصائده ويجعل ذلك تقليدا يلتزم به ويحرص عليه فى أغراضه الشعرية المختلفة التى يتناولها ... بل إن الكثيرين منهم وخاصة فرسانهم كانوا يخوضون غمار المعارك والحروب ويتعرضون للمخاطر والأهوال ويتصدون للأعمال الكبار دفاعا عن هذه المرأة أو تخليصا لها من السبى أو إثارة انتباهها إليه وعطفها نحوه والتغنى بذلك كله فى شعره على نحو ما صنع عنترة بن شداد العبسى وما أظهره من بطولة وما واجهه من مخاطر وأهوال فى سبيل ابنة عمه " عبلة " .

وقد ظهر تأثير البيئة البدوية واضحا جليا فى هذا النسيب فيما نلمسه من الإكثار من ذكر "الأطلال" والدِّمَن" وآثار الديار والنؤي والأحجار ، والإكثار من ذكر البين والفراق والشوق والحنين والغربة والنّوى وذلك راجع إلى حياة البادية التى تتطلب التنقل فى المواسم المختلفة ـ لارتياد المرعى فيجد الشاعر أن أحبابه قد ارتحلوا فيقف بين الأطلال وآثار الديار باكيا ملتاعا ثائر الشوق يغنى ألمه ويشدو بذكريات حبه وقد أثارته اللهفة وأضناه الحنين ...

كما ظهر تأثير البيئة أيضا فيما أوحته إلى الشعراء من تشبيهات ، واستعارات وأخيلة وكنايات وقد ظهر ذلك بجلاء فى النسيب كتشبيه النساء بالمها والغزلان والظباء والآرام وجعل أشرف النساء العزيزة الممنعة التى تحميها السيوف والرماح والتى تحول دون رؤيتها والاقتراب منها عقبات وعقبات وكون المفضلة من النساء المرأة المنعمة ممتلئة الجسم هضيمة الكشح ريا المخلخل نؤوم الضحى . كما نلحظ تأثير

---

١ ـ المدخل ص٢١٣ وما بعدها .

البيئة ايضا في حفظ أسماء الجهات والأماكن في هذه الصحراء الممتدة والإكثار من ذكرها وترديدها في أشعارهم كنجد وبرقة ورامة والدخول وحومل وحومانة الدراج ووادي الغضا ... الخ ومع ذكر الجهات والأماكن يرددون كثيرا من أسماء النباتات والأشجار والنخيل والحيوانات والطيور التي يرونها ويتأملونها في حلهم وترحالهم وغدوهم ورواحهم بين الوهاد والنجاد والروابي والوديان ...

ولم يعدل شعراء العرب عن هذا المذهب من الوقوف على الأطلال وبكاء الديار وذكر الأماكن والجهات البدوية وما يشيع في هذه البيئة من أوصاف وتشبيهات وما يعرف فيها من نبات وطير وحيوان حتى إن تركوا البادية وسكنوا المدن فقد ظلوا متأثرين بنفس البيئة التي تأثر بها الشعراء المتقدمون الأوائل بل وأصبح هذا المذهب واجب الاتباع والالتزام به لدى بعض النقاد من أنصار القديم يقول ابن قتيبة : " وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ويبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير أو يرد على المياه العذبة الجواري لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة[1] .

لقد كان البدء بالنسيب في الشعر الجاهلي ظاهرة أدبية لها أهميتها وآثارها في العصور اللاحقة وذلك ان شعراء العرب في الجاهلية كانوا في أكثر حالاتهم لا يهجمون على أغراضهم بل يمهدون لها وكانت غالبيتهم تبدأ بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار ومساءلة الدمن والأحجار كما يظهر هذا جليا في مطلع أكثر المعلقات ، وكان الشاعر الجاهلي يتخيل أنه في رحلته إلى ممدوحه قد مر بديار الأحباب بعد رحيلهم عنها فتهيج أشواقه وتثير أطلالها ذكريات الحب والهوى في نفسه فيقف على ما بقي من آثار الديار مسلما ومسائلا ومتحسرا على عهد الصبا

---

١ ـ الشعر والشعراء ص ١٩ .

والشباب ، وما كان فيه من لهو ومتاع ثم ينتهى من هذا النسيب إلى غرضه من مدح أو فخر أو غيرهما ، وقد ألف الشعراء هذا المنهج فأصبح مذهبا متبعا وتقليدا يحتذى وعمودا يلتزم به ، وصارت الكثرة العظمى من القصائد العربية مفتتحة بالنسيب ، ولم يخرج على هذا المذهب الغالب إلا أولئك الشعراء الصعاليك الذين لم يكن همهم أن يقولوا شعرا أو ينشئوا قصائد وإنما كانت لهم غالبا مقطوعات قصيرة يعبرون بها عن مناهجهم وأساليبهم فى الحياة ومغامراتهم وفتكاتهم . (١)

أما تلك القصائد الطويلة التى رويت لبعض شعرائهم فهى أصداء لفترات قليلة كانت تمر بحياة الشعراء الصعاليك يستريحون فيها من الكفاح فى سبيل العيش فيفرغون لأنفسهم يستخرجون من رواسبها العميقة فنا متأنيا مطمئنا مطولا مجودا رائعا ممتازا (٢)

ولم يكن التغزل والنسيب غرضا مستقلا فى الشعر الجاهلى بل كان مقدمة ومطلعا للقصائد الشعرية فى أغراضها المختلفة ، ولم نعرف فى الشعر الجاهلى قصيدة كانت وقفا على التغزل والنسيب سوى قصيدة المرقش الأكبر التى مطلعها :

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصحابى هجود (٣)

وقصيدة طرفة بن العبد اللامية التى مطلعها :

أتعرف رسم الدار قفرًا منازله كجفن اليمانى زخرف الوشى ماثله (٤)

وقد تحدث القدماء عن السر فى الابتداء بالنسيب فقال ابن قتيبة :

١ــ الشعراء الصعاليك ص١٨٢ ط رابعة دار المعارف
٢ــ نفسه ص٢٦٢
٣ــ المفضليات القصيدة (٤٦) ص٢٢٣ وما بعدها
٤ــ الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام ص١٦٧٥ وانظر العصر الجاهلى لخفاجى ص٣٢٩ .

" سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصائد انما ابتدأ بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهله الظاعنين إذ كانت نازلة العمد (أهل الخيام والبادية) فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر (القرى) لانتقالهم من ماء الى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب فبكى شدة الوجد وألم الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعى إصغاء الأسماع لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله تبارك وتعالى فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء فليس أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا التعب والسهر وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التاميل وقرر عنده ماناله من المكاره فى السير بدأ المديح .. "(١)

فتفسير ابن قتيبة لظاهرة النسيب فى مفتتح القصائد ينحصر فى أن هذا النسيب كان وسيلة فنية يجذب بها الشاعر القلوب ويسترعى إصغاء الأسماع إليه ، لكن بعض الباحثين المعاصرين يفسر هذه الظاهرة تفسيرا فنيا شائقا فيقرر أن النسيب ليس أداة فنية موجهة إلى الخارج كما ذكر ابن قتيبة ، بل إن هذا النسيب كان تعبيرا يجسم لنا ارتداد الشاعر إلى نفسه وخلوه إليها .. وهو بذلك يعد الجزء الذاتى فى القصيدة ... إن كثيرا من شعراء الجاهلية قد استهلوا قصائدهم بالنسيب وهم يصدرون عن مشاعر صادقة عميقة كائنة فى نفوسهم تمثل نوعا من القلق الوجودى الذى يبدو طبيعيا فى عصر كهذا العصر الجاهلى ..... يقول العقاد فى معرض حديثه عن الجميل والجليل " " إن النفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل والجليل : فالجميل

---

١ ــ الشعر والشعراء ص١٨ .

كل ما حبب الحياة إلى النفس وأظهرها لها فى المظهر الذى يبسط لهـا الرجاء فيها ويبعث على الاغتباط بها ... والجليل كل ما حرك فيها الوحشة وحجب عنها رونق الحياة ... والشاعر فى النسيب يجمع بين عنصرين أحدهما يذكر بالفناء وهو الأطلال والآخر يذكر بالحياة وهو الحب فالتناقض الذى تمثله قطعة النسيب تناقض وجودى .... والشاعر الجاهلى كان صادق الحس حين أدرك ما أدركه " فرويد " بعد ذلك بمئات السنين من أن هاتين الغريزيتين تعملان معا على الدوام فكل لحظة تمر هى لحظة هزيمة للحياة وانتصار للموت ، وبناء على ذلك فإنه ينبغى أن ننظر إلى مقدمة النسيب فى القصائد الجاهلية على أنها تعبير عن أزمة الإنسان فى ذلك العصر وموقفه من الكون وخوفه من المجهول ..

ويقرر الدكتور محمد كامل حسين أن الشاعر العربى كان يبدأ قصيدته بالنسيب كما يبدأ الشاعر الأوربى قوله بالإشارة الى أساطير الإغريق ، كلاهما يود أن يبدأ بالمألوف من القول يتبع الأسلوب المعبد من قبل حتى يطمئن إلى إجادته القول ثم يندفع فيما يريد أن يقول ... سوى أن الشاعر الاوربى كان يعنى بالمعانى التى يتحدث عنها ، أو كان يعنى بالوقائع التى يرويها من هذه الأساطير أما الشاعر العربى فكان همه التفنن فى القول وحسن السبك والموسيقى لا يعنيه كثيرا المعانى التى يذكرها فى نسيبه .

ثم يقول " على أنه قد يكون هناك سبب آخر للنسيب فى القصيدة العربية ، ألا ترى أن المغنى الذى يتغنى بموسيقى غير مدونة يحتاج إلى التغنى بما هو مألوف وبما تكثر ترديده على مر الأجيال حتى يستقيم له النغم ثم يندفع فى غنائه .... كذلك الشاعر العربى وشعره كثيرا ما يرتجل أو يؤلف ويحفظ فى الذاكرة ثم يروى ويسمع فهو فى حاجة الى النسيب ومعانيه مطروقة وأسلوبه معروف حتى يطوع له النظم والروى والموسيقى فيندفع بعد ذلك فيما يريد أن يقول ، ولا غرابة إذا كانت هذه الحاجة الى النسيب قلت بعد أن أصبح الشعر يؤلف كتابة

ويدون ويقرأ ....." (١)

والدكتور أحمد بدوى يقول " ولنا أن نعد من براعة الاستهلال هذا الغزل الذى يقع فى مفتتح القصائد إذا كان الجو المخيم عليه هو الجو نفسه المخيم على القصيدة الأصلية . والواقع أن الشاعر الذى يسيطر عليه غرض خاص يخيم عليه جو يناسب هذا الغرض ، وحينئذ يكون الغزل الذى فى مفتتح القصيدة مسيطرا عليه هذا الجو فيكون الغزل فرحا إن كانت القصيدة فرحة وحزينا إن كانت حزينة ومفتخرا إن كانت فخرا ومعاتبا إن كانت عتابا ، ومخاصما إذا كانت القصيدة خصاما. (٢) .

والدكتور / حسين عطوان يرى " أن المرأة أمة أو حرة لم تكن مفصولة عن الرجل بل كانت موصولة به ومن هنا نستطيع أن نفهم لم أكثر الشعراء من ذكرها فى مقدمات قصائدهم ولم أداروا عليها وعلى ديارهم وذكرياتهم معها أكثر هذه المقدمات ، ومن هنا أيضا نستطيع أن نزعم أن أكثر الغزل الجاهلى صدر عن تجربة صادقة وإن كان فى بعضه شىء من التكلف فإن ذلك لا يفضى الى الحكم عليه بأنه جميعا متكلف مثل ما يزعم ابن رشيق . (٣)

وهو يرفض أن تكون القصائد كلها مبعثرة العواطف منثورة المشاعر لاصلة بين مقدماتها وموضوعاتها لسبب بسيط وهو أن الشاعر عرف كيف يوفر الانسجام التام بين المقدمة والموضوع من حيث الجو النفسى فى قصائده أو على أقل تقدير فى بعض قصائده ، فالقصيدة تعبير عن موقف واحد وفيض عن طبيعة واحدة هى طبيعة الشاعر ... (٤)

١ـ متنوعات لمحمد كامل حسين جـ٢ ص٨٧

٢ـ أسس النقد الادبى عند العرب لأحمد أحمد بدوى ص٣١٠

٣ـ مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى للدكتور /حسين عطوان ص٦٣ .

٤ـ نفسه ص٢٣٢ .

ومن ملامح العبقرية وشواهد الإبداع في هذه المقدمات الغزلية ما توصل إليه بعض الباحثين من أن اسم المحبوبة في مقدمة القصيدة الجاهلية المفتتحة بالنسيب يحمل دلالة فنية لا يستقيم البناء الشعري بدونها إذ أن هذا البناء الشعري مرتبطا بهذه الأسماء له دلالة بلاغية أطلق عليها البديعيون " براعة الاستهلال " غير أن هذه البراعة لا يقصد منها الصياغة الشعرية وحدها بعيدة عن الموقف فهو الذي يحكم الشاعر والموضوع أيضا ... (١) لقد اختار الشاعر الجاهلي من الغزل طرقا وسمى له محبوبة رمزا لغويا واسما فنيا وعنوانا موضوعيا ومن ذلك سعاد وفاطمة وسلمى وليلى وهند وأميمة ... وهذا الاسم الذي ينتقى ويتخير هو المشير الى الموضوع المتحدث عنه الملمح له وهذه هي براعة الاستهلال فليس عبثا أن يقترن اسم فاطمة متردد ا بقطع الصلات وحسم الموضوعات ، كما يحكي ابن دريد فإن فاطمة من الفطم وهو القطع ومنه فطم الصبي إذا قطع عنه اللبن . (٢) كما يقترن اسم سعاد التي لا يشقى صاحبها ولا يخيب طالبها بالأمل الباسم والحياة الواعدة وهو فعال من السعد ومنه السعادة والإسعاد وفيه رمز عما يريده الرجل وكشف عما يأمله وفي المأمول والمراد سعادة له وقرة عين .. أما اسم " ليلى " التي تختلط أمورها وتضطرب شئونها ولا يعرف موقفها فإنه يقترن بالصراعات التي يحياها الإنسان والمتناقضات التي تكتنف جوانب حياته والمكابدة التي خلق فيها ..... وليلى فيما ذكر أهل العلم من قولهم : ليلة ليلاء ورووا : ليلة ليلا بالقصر وقد ذكره الخليل ممدودا في حرف اللام (٣) أما سلمى فحديثها حديث الذكريات معها وموضوعها ذكريات الشاعر فخرا بما مضى من وقائع وأيام او اعتذارا عما يعاني القوم من آثار ... هي نظرة تأمل لجانب من جوانب الحياة أو للحياة ذاتها فيها وداع للحب مع المحبوبة رمزا ولألوان من السلوك في الحياة موضوعا ، فيها ترك ميادين الحروب بضراوتها واللجوء إلى ميادين الكلمات بطنينها ، قد يكون هجاء أو استنصارا

---

١ ـ دكتور محمد مدرى عبد الجليل براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور "الخاتمة" ص ٣٠٣ .

٢ ـ الاشتقاق لابن دريد جـ ١ ص ٣٣

٣ ـ الاشتقاق جـ ١ ص ٤١ .

وهذه أو تلك تحمل فى طياتها اجترار الذكريات وقد علت السن ودبت الشيخوخة وعم الشيب حيث الإخلاد الى الاستسلام .. (١) وسلمى هى فَعْلَى من السلم والسلم ضد الحرب والسَّلم بكسر السين والسِّلم بفتحها واحد وفى التنزيل " وألقوا إليكم السلم " وجئتك بفلان سلما أى مستسلما لا ينازع . (٢)

ونجد الشعر المرتبط بهند يستحثها دوما على الوفاء بالوعد إذ هى تلاطف وتلاين دون أن تمكن من شىء ..... وهى لا تقطع الحبال وهى لا ترضى البال ، وهى تبذل الوعد وتمنح الأمل ، وهى ايضا لا تفى موعدا ولا تحقق طلبة ولكنها لا تتأبى ولا تصد .. إنها ملاطفة ملاينة تتوخى ما يدع المحب محبا لا توحشه ولا تمكنه ..... لا بعد مانع ولا وعد نافع .... وهى لا تفصم العلاقات ولا تشبع الرغبات ... (٣) وهند من التهنيد والتهنيد : الملاينة والسكون . (٤) .

ويرى طه حسين أن هذه الأسماء .. إنما هى أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذى كانوا يلتمسونه ويطمحون اليه حين كانوا يتغنون الحب سواء منهم فى ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون .... ليلى ولبنى وبثينة بالقياس الى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه " هيلانة " بالقياس الى القصاص من شعراء اليونان المتقدمين لسناندرى أوجدت حقا ؟ بل أكبر الظن أنها لم توجد وأنها هى المثل الأعلى فى الجمال والحب واللين والرقة والدعة " (٥) .

١ــ براعة الاستهلال ص٥٢
٢ــ الاشتقاق جـ ١ ص٣٤ .
٣ــ براعه الاستهلال ص ٦٠
٤ــ الاشتقاق جـ ١ ص٤٠ ، جـ٢ ص٤٠٣
٥ــ حديث الأربعاء جـ ١ ص٢١٨ .

وإذا كان كلام الدكتور طه حسين يصح بالنسبة الى بعض الأسماء فانه لا يستقيم مع هذه الأسماء التى اشتهرت بأصحابها وكانت لها قصص معروفة ومشهورة ولم يكتف الشعراء الجاهليون بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار واستعادة الذكريات وبث هموم النفس وأشجانها وما تكابده من لواعج الأشواق ولوعة الفراق ولهفة التلاقى ... بل إن كثيرا منهم كان يتناول المرأة واصفالها دائرا فى محور جسدها ومظاهر أنوثتها لا يكاد يفوته شىء فيها دون وصف ولم يأت هذا الوصف مجردا بل كان فى إطار التشبيب بالمرأة والتغزل فيها من خلال مقاييسهم الجمالية التى عرفوها وتوارثها وفتنوا بالمرأة التى تتصف بها أو ببعضها ...ولذا فإننا نراهم يتناولون فى أشعارهم جمال المرأة ومظاهر أنوثتها وفتنتها فى : شعرها ووجهها وجبينها وعينها وحاجبيها وأذنيها وأنفها وفمها وشفتيها وريقها وخديها وخالها وجيدها وصدرها ونهديها وخصرها وبطنها و..... ورد فيها وفخذيها وساقيها وقدميها ومعصمها وأصابع يديها وثيابها وطيبها وزينتها وحليها وحركاتها ولفتاتها ونظراتها ومشيتها وتيهها ودلالها وسحرها وجاذبيتها وطيفها على أن هناك من شعراء العرب الجاهليين من غلب عليه الطبع العربى الأصيل والأنفة البدوية فذكر المرأة بصفاتها المعنوية وما ينبغى أن يتوفر لها من عفة وعزة وستر وحصانة ومنعة ورزانة وتعقل وحسن حديث .... تأمل قول علقمة بن عبدة فى قصيدته التى يمدح بها الحارث بن جبلة : (١)

طحابك قلب فى الحسان طروب ... بُعَيْد الشباب عصر حان مشيب

يكلفنى ليلى وقد شطّ وَلْيُها ... وعادت عواد بيننا وخُطوب

منعّمة ما يُستطاع كلامُها ... على بابها من أن تُزار رقيب

إذا غاب عنها البعلُ لم تُفش سرّه ... وترضى إيابَ البعل حينَ يؤوب

يصف صاحبته بالنعمة والحفظ والصيانة والحرص على سر الزوج ورضاه .... وقد جمع الشنفرى الأزدى لصاحبته العفه والكرم وحسن

١ــ المفضليات ص ٢٩١ قصيدة رقم (١١٩) طحابك : اتسع بك وذهب كل مذهب ــ شطّ وليُها : بعد عهدها أو بعد قربها وجوارها ــ الكلام مصدر كالمه كالمكالمة ــ رقيب أى حافظ يصونها والبعل الزوج .

السمعة والحياء فى هذه الأبيات من قصيدته التائية إذ يقول : (١)

لقد أعجبتنى لا سَقُوطًا قناعُها ... إذا ما مشت ولا بذاتِ تلفُّتُ
تبيتُ بُعَيْد النوم تُهدى غَبُوقَها ... لجارتها إذا الهَدية قلَّتُ
تحُلُّ بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوت بالمذمة حلَّتُ
وكأن لها فى الأرض نِسْيا تقصُّه ... على أمها وإن تكلمك تَبْلَتُ
أميمةُ لا يُخزى نَثاها حليلَها ... إذا ذكر النسوان عفت وجلتُ
إذا هو أمسى آب قرة عينه ... مآب السعيد لم يَسَل أين ظلتُ

فهى حيية لا يسقط قناعها لشدة حيائها ولا تكثر من التلفت لأنه فعل أهل الريبة ، وهى تؤثر جارتها بكرمها حين ينفد الزاد وينقطع الدَّر ، لا يلحقها ذم ولا يعتريها لوم على حين تعترى المذمة كثيرا من البيوت وهى لشدة حيائها اذا مشت لا ترفع رأسها ولا تلتفت كأنها تطلب شيئا ضاع منها ، واذا كلمتك تنقطع فى كلامها ولا تطيل وهى حسنة السمعة والسيرة لا يخزى زوجها ولا يشينه حديث عنها لما لها بين النساء من عفة وجلال وهو يعود إلى بيته قرير العين بها عظيم الثقة فيها لا يسأل أين كانت؟ لأنها لا تبرح بيتها أو لأنه مطمئن إليها واثق فى سلوكها .

وسُوَيْد بن أبى كاهل اليَشْكُرى يشبب بصاحبته فيصف تعلقه بها وما اعتراه من خبال بسببها إذ لا تجود بغير عذب الحديث وحلو الكلام وما وراء ذلك منها بعيد المنال ... فيقول :

خبَّلتنى ثم لمَّا تَشْفِنى ... ففؤادى كلَّ أَوْب ما اجتمعْ
ودعتنى بُرقَاها إنها ... تُنزِل الأعْصَمَ من رأس اليَفَعْ

---

١ ـ المفضليات ص١٠٦ قصيدة رقم (٢٠) قناعها ما تعطى به وجها ـ الغبوق : ما يشرب بالعشى تهديه لجارتها ـ الهدية قلت : بسبب الجدب ونفاذ الزاد ـ بمنجاه من اللوم : بعيدة مرتفعة عن اللوم ـ النسى : الشىء المفقود المنسى ـ تقصه : تتبعه ـ أمها : قصدها الذى تريده ـ تبلت تنقطع فى كلامها ـ نثاها : ذكرها وما يذاع عنها ـ حليلها : زوجها ـ آب رجع أى آب راضيا قرير العين يقول الأصمعى .. هذه الأبيات أحسن ما قيل فى خفر النساء وعفتهن .

تُسمِع الحُدّاثَ قولا حسنـــا لو أرادوا غيره لم يُستمَع (١)

وهذا التمنع والتصون من جانب الحبيبة قد يضنى المحب المتيـــم فنراه يشكو ويعتب ويتألم وقد يهدّد بالقطيعة والمعاملة بالمثل لكن قلبـــه أسير هواها وحبها فأنى له أن يفارق ؟؟! وذلك ما تصوره هذه الأبيـات للمثقب العَبْدي وقد أذنت صاحبته بفراق فأحب أن تمتعه بلقاء قبـــل الرحيل لكنها أبت وتمنعت فأنشأ يقول : (٢)

أفاطم قبل بَيْنِك متّعينـــــي ومَنْعُك ما سألت كأن تَبينـــــي
فلا تَعِدي مواعدَ كاذبـــــات تمرُّ بها رياحُ الصيف دونـــــي
فإني لو تحالفني شمالـــــي خِلافَك ما وصلت بها يمينـــــي
إذا لقطعتها ولقلتُ بينـــــي كذلك اجْتوى مَنْ يجتوينـــــي

لكنه لم يستطع أن يتأبى كما تأبت هي و تتبع رحيلها ووصف ظعنها ونعت النساء في هوادجهن نعتا لعله أمتع وأطول ما قيل في الظعن :

كغزلان خَذَلْن بذات ضَـــال تنوش الدانيات من الغصـــون
ظهرن بكلّةٍ وسدَلْن أخـــرى وثقبْن الوصاوص للعيـــون
وهن على الظلام مطلبـــاتٌ طويلاتُ الذوائب والقـــرون
أُرِينَ محاسنا وكَنَنَّ أخـــرى من الأجياد والبشر المصـــون
ومن ذهب يلوح على تَريـــب كلون العاج ليس بذي غُضُـــون

---

١ ـ المفضليات قصيدة رقم (٤٠) ص ١٩٢ ـ خبلتني : افسدت عقلي ـ كل اوب : كل وجه ـ ما اجتمع : متفرق ـ رقياها : جمع رقية : الأعضم الوعل الذي في يديه بياض ـ اليفع : المرتفع ـ

٢ ـ المفضليات قصيدة (٧٦) ص٢٨٨ بينك : فراقك رياح الصيف : لا خير فيها لانها تاتي بالغبار ولا تسوق سحابا ـ خلافك : اي مثـــل مخالفتك ـ الاجتواء : الكراهة.

إذا ما فُتْنَه يوما برَهْـــــن يعز عليه لم يرجع بحيـــــن (١)

ومن شعراء الجاهلية من يصور فى تعلقه بالمرأة ضربا من المتـــاع الحسى واللذة الجسدية والمباهاة باقتدار على إغرائها ونيل ما يريـــده منها والحرص البالغ على كشف المرأة والنفاذ إلى أدق مواطنها وأكثرهـا سترا واستخفاء ومن هؤلاء الشعراء " مهلهل " الذى لقب بأنه " زيـــر نساء " وامرؤ القيس وطرفة والنابغة الذبيانى .... يقول امرؤ القيس (٢)

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْـــزة فقالت لك الويلاتُ إنَّك مُرْجلـــى
تقول وقد مال الغَبيط بنا معـــا عقرتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزلـــى
فقلت لها سيرى وأَرْخى زمامَـــه ولا تُبعدينى من جَناكَ المُعلَّـــل
فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضـــع فالهيتها عن ذى تمائمَ مُحْـــول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقُّها لـــم يُحـــوَّل
ويوما على ظهر الكثيب تعـــذرت على وآلت حلفـــةً لم تَحلَّـــل
أفاطم مهلا بعض هذا التدلـــل وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأجملـــى
أغرك منى أنَّ حبك قاتلـــــى وأنك مهما تأمرى القلبَ يَفْعـــل
وإن تكُ قد ساءتك منى خليقـــةٌ فسلِّى ثيابى مِن ثيابك تَنسُـــلِ
وما ذرَفَت عيناك إلا لتضربـــى بسهميك فى أعْشارِ قلبٍ مُقتَّـــل
وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤهـــا تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعْجَـــل
تجاوزت أحراسا اليها ومعشـــرا علىَّ حِراصا لو يُسِرُّون مقتلـــى
إذا ما الثُّريا فى السماء تعرَّضت تعرض أثناء الوشـــاح المُفصَّـــل
فجئت وقد نضَّت لنوم ثيابَهـــا لدى السِّتر إلا لِبْسةَ المُتفضِّـــل

---

١ ـ خذلن : تخلفن عن صواحبهن ـ تنوش : تتناول ـ الكِلَّة : الستر الرقيق ـ سدلن أخرى : ارسلنها ـ الوصاوص : البراقع الصغار واحدها ـــا وصواص أراد أنهن صغيرات ـ الظلام : الظلم ـ مطلبات : مطلوبـــات مع ظلمهن إيانا ـ كنن : أخفين ـ الجياد : جمع جيد وهو العنـق ـ التريب : عظام الصدر موضع القلادة ـ الغضونن : تثنى الجلد ـ فتنه تركنه وخلفنه ورهنه هواه . وقلبه والمعنى اذا ملكنه لم يخلص منهـــن

٢ ـ الخدر : الهودج والجع الخدور ـ عنيزة : اسم عشيقته وهى ابنه عمه وقيل هو لقب لها واسمها فاطمة وقيل بل فاطمة فتاة أخرى ـ الويـلات : جمع ويلة) والويله والويل شدة العذاب ظاهره الدعاء عليه وهو على سبيل =

فقالت : يمينَ اللهِ مالكَ حيلـــةٌ ... وما إن أرى عنكَ الغوايةَ تنجلـــى
خرجت بها أمشى تجرُّ وراءنـــا ... على أثرَينا ذيلَ مِرطٍ مُرَحَّـــل
فلما أجَزْنا ساحةَ الحى وانتحـــى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذى قِفافٍ عَقَنْقَـــل
هصرتُ بغودَى رأسها فتمايلـــت ... علىَّ هضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَـــل
مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضـــةٍ ... ترائبها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَـــل
تصدُّ وتُبْدى عن أَسِيلٍ وتتَّقـــى ... بناظرةٍ من وحشِ وَجْرَةَ مُطْفِـــل

=المداعبة منها انك مرجلى : إنك تصيرنى راجلة لعقرك ظهر بعيـــرى الغبيط : ضرب من الرحال أو الهودج وفى ندائه باسمه فى مثل هذا الموقف ما فيه من الإثارة والاستعطاف الجنى : اسم لما يجتنى من الشجر والمعلل المكرر سقيه يقول : فقلت لها سيرى وأرخى زمام البعير ولا تبعدينى فمـــا أنال منك من عناق وشم وتقبيل ... ـ طرقت : أتيت ليلا ألهيبتها عن ذى تمائم مُحول : شغلتها عن طفلها ذى الأحجبة البالغ حولا أى عاما .

الكثيب : رمل كثير والجمع أكثبة وكثبان ـ تعذرت على : تشددت والتوت ـ آلت : حلفت يريد أنها حلفت حلفا لم تستثن فيه : أن تقاطعنى وتهجرنى ـ أزمعت صرمى بمعنى عزمت ووطنت النفس على قطيعتى فاجملى الهجران اى هجرا جميلا خليقة بمعنى خصلة أو طبيعة يعنى إن ساءك منى شىء ففارقينى .

بسهميك : المراد لحظ العينين جعلهما كالسهم الجارح ـ القلب المقتل : المذلل وقيل المراد بالسهمين المُعلَّى والرقيب من سهام الميسر ولها عشرة الأجزاء كلها اى تفوزين بقلبى كله ـ بيضة خِدْر : امرأة لزمت خدرها وتشبه المرأة بالبيضة فى الصحة والسلامة عن الطمث ، والصيانـــة والستر ، وصفاء اللون ونقائه .

والأحراس : الحراس والمعشر القوم أى أنهم حريصون على قتلى لـــو قدروا عليه ويسرون من الأضداد بمعنى الاظهار والاضمار ـ الثريا : مجموعة كواكب يدنو بعضها من بعض كالوشاح المنظم بالودع وفصل بالزبرجـــد وأثناء الوشاح نواجه أى جئتها فى هذا الوقت فى غفلة من الرقباء ـ نضت ثيابها : خلعتها الالبسة المتفضل إلا ما يلبس عند النوم ـ مالك حيلة بمعنى لا عذر لك فى زيارتى ليلا أو مالى لدفعك عنى حيلة الغواية : الضـــلال =

وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحشٍ إذا هي نصّته ولا بمعطّل
وفرعٍ يزينُ المتنَ اسود فاحمٍ أثيثٍ كقِنْو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزراتٌ إلى العُلا تضل العقاص في مثنّى ومرسل
وكشحٍ لطيف كالجديل مُخَصَّرٍ وساقٍ كأنبوب السَّقِيِّ المُذلَّل

=وتتجلى تتكشف وتزول عنك وهذا البيت بلغ قمة الإثارة والإغراء - مرط مرحل : كساء من خز أو صوف منقوش أى تجرر ثوبها لتعفى آثار أقدامنا بطن خبت : مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة والخبت أرض مطمئنه والحقاف جمع حقف : رمل مشرف معوج والعقنقل : الرمل المتلبد يقول : لما جاوزنا ساحة الحى وخرجنا من بين البيوت وصرنا إلى أرض مطمئنة أحاطت به حقاف من رمل مشرف منعقد متلبد هصرت بفودى رأسها : جذبت ذوائبتيها والفودان جانبا الرأس- هضيم الكشح : الخصر النحيل - ريّا المخلخل الساق الممتلئة والمخلخل موضع الخلخال من الساق والعرب تحب فى المرأة أن تكون ممتلئة الساقين من أسفل - المهفهفة : لطيفه الخصر ضامرة البطن - المفاضة : العظيمة البطن المسترخية اللحم - الترائب : جمع التريبة وهى موضع القلادة من الصدر ومصقولة أى مجلوة كالسجنجل أى المراة - الصد والصدود الإعراض والدفع والصرف وتبدى من الإبداء وهو الإظهار فهى تعرض وتظهر خدا أسيلا ناعما ممتدا وتتقى بنظرة من عين حانية أو مشفقة والناظرة العين ووحشن وجرة : الظباء ووجرة موضع ومطفل أى لها طفل فالنظرة حينئذ تكون مشحونة بالحنان والإشفاق - وجيد كجيد الرئم : عنق مثل عنق الظبى الأبيض خالص البياض- نصته : رفعته - والفاحش ما جاوز القدر المحمود والمعطل الخالى من الحلى والزينة - الفرع : الشعر التام والفاحم شديد السواد والأثيث الكثير والمتن : الظهر وقنو النخلة : عذقها وهو الشمراخ والمتعثكل المتداخل بعضه فى بعض لكثرته والمراد أن شعرها أسود غزير كثيف ملتف يزين ظهرها - غدائره فستشزرات يعنى خصلات الشعر مرتفعات إلى فوق وعقاصه أى خصلاته المجموعة تغيب فى شعر بعضه مثنى وبعضه مرسل - الكشح : الخصر والجديل خطام يتخذ من الأدم ومخصر دقيق الوسط وساق كأنبوب السقى كأنبوب البردى بين نخل مسقى بالماء مذلل بكثرة ما يحمل من أغصان تظلل هذه الأنابيب فتكون أصفى لونا =

وتَضْحَى فتيتُ المسك فوقَ فراشها ... نؤوم الضحى لم تنْتَطِق عن تفضل
وتعطو برَخْص غير شَثْن كأنه ... أساريع ظبى أو مساويك إسْحَل
تضيء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة ممسى راهب متبتل
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

وللمُنَخَّل اليَشْكُرى قصيدة رائعة رواها الأصمعى يتغزل فيها بالكواعب الحسان اللائى يعابثهن ويلهو معهن ويصبو ويصف ما كان بين دخوله خدر واحدة منهن يهواها وتهواه وكيف أنه دفعها أمامه فتدافعت تمشى مشية القطاة إلى الغدير لكنه اجتذبها إليه وقبلها فتتابعت أنفاسها كما تتتابع أنفاس ظبى بهير بعد عدو شديد وعطفت نحوه تسائله عما اعتراه فأجابها أن ما أصابه من نحول وهزال بسبب حبه لها وتعلقه بها حتى لقد كان بين بعيره وناقتها من الألفة مثل ما بينه وبينها من الحب ويصف حالى صحوه وسكره وصفا طريفا فيقول إنه إذا سكر خيل إليه أنه الملك العظيم صاحب قصرى " الخَوَرْنَق والسدير " واذا صحا من سكرته عاد الفقير البائس صاحب الشويهة والبعير .... يقول

=وأنقى رونقا وأكثر امتلاء ـ نؤوم الضحى : كناية عن استغنائها ورفاهيتها لم تنطق عن تفضل يعنى لا تشد وسطها بنطاق بعد لبسها ثوب المهنة إذ أنها لا تحتاج الى ذلك لوجود من يخدمها ـ تعطو برخص : تتناول وتتعاطى الأشياء بأصابع لينة ناعمة غير شثن : ليست غليظة ولا كزة ـ الأساريع : دود يكون فى البقل والأماكن الندية تشبه به الأنامل ـ ظبى : مكان بعينه وا سحل شجرة تدق أغصانها فى استواء تشبه بها الأصابع . وهى تضيء بوجهها المتألق ظلام الليل فكأنها مصباح راهب منقطع عن الناس والى مثلها يتطلع الرجل الرزين كلفا به وشوقا إليها إذا طال قدها وامتدت قامتها والدرع قميص المرأة والمجول قميص الفتاة الصغيرة ، " شرح المعلقات العشر للزوزنى ص٣٨ وما بعدها .

المُنَخَّل : (١)

ولقد دخلتُ على الفتـــــا ... ـةِ الخدر في اليوم المطيـــــر
الكاعب الحسناء تـــــر ... فُل في الدمقس وفي الحريـــــر
فدفعتُها فتدافعـــــت ... مشيَ القطاة إلى الغَديـــــر
ولثمتُها فتنفَّســـــت ... كتنفس الظبي البَهيـــــر
فدنت وقالت يا منـــــ ... ـخَلُ ما بجسمك من حَـــرُور
ما شفَّ جسمي غيرُ حبـــ ... ـكِ فاهْوِني عني وسيـــري
وأحبها وتحبنـــــ ... ويحب ناقتَها بعيـــري
يا رُبَّ يـــومٍ للمنـــــ ... ـخَلِ قد لَهَا فيـــهِ قصيـــر
فإذا انتشيتُ فإنَّنـــــ ... ـي ربُّ الخَوَرْنَق والسَّـــدِير
وإذا صحوتُ فإننـــــ ... ـي رب الشُّوَيْهَة والبعيـــر
ولقد شربتُ من المُـــ ... ـدامةِ بالقليـــلِ وبالكثيـــر
يا هنـــدُ مَنْ لِمُتيَّـــــ ... ـمٍ يا هنـــد للعاني الأسيـــر

هكذا تحدث بعض شعراء الجاهلية عن " المرأة " بجرأة وصراحة وكشف وتعرية وعبروا في زهو عن محاولاتهم التقرب إليها والحصول عليها والاستمتاع بها في غفلة من أهلها وبمأمن من العيون المتطفلة وذلك لا يتم إلا برغبتها وتدبيرها ... وهذه المحاولات الجريئة أشبه ما تكون بالمغامرات على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا ... وهي مغامرات

---

١ ـ الأصمعيات قصيدة (١٤) ص٦٠ وما بعدها ـ الخدر : الستر والخباء ، الكاعب : بارزة الصدر والنهد ـ ترفل في .. تجرر ذيل ثوبها متبخترة ـ الدِّمقس : القَزّ أو الديباج أو الكتان ـ القطاة : طائر والغدير بركة الماء لثمتها : قبلتها ـ البهير : من البَهَر وهو ما يعترى الانسان والحيوان عند السعي الشديد والعدو من النهج وتتابع النفس ـ حرور : حر أو حرارة قد لها : لهها بلهوا من اللهو والعبث ـ انتشيت : من النشوة بالسكر الخَوَرْنَق والسَّدير قصران بناهما النعمان الثالث الشهير بالأعور وحكايته مع سِنِمّار معروفة ..

تحول بها بعض الرواة إلى قصص مثير من مثل ما قصوا عن حب المُرَقِّش الأكبر لأسماء والمرقِّش الأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المُنَخَّل اليشكرى للمتجردة زوج النعمان .... وقد أشرت فى فصل سابق إلى قصة المرقش الأكبر مع ابنة عمه أسماء ومعاناته فى البحث عنها بعد أن تزوجت بغيره وكان يرافقه فى رحلته مولاة له وزوجها الراعى وكان من " غُفَيْلَة " ويبدو أنهما سئما الرحلة فعزما على الرحيل دونه وتركاه فى " كهف " من أرض مراد لكنه كان قد تمكن من كتابة بعض الأبيات على رحل " الغُفَلى " يحرض عشيرته على قتله ... ثم كان ما كان من أمر الخاتم وإلقائه فى وعاء اللبن لتتعرف عليه أسماء التى أرسلت زوجها فى طلبه فاحتمله إلى منزله وهو باخر رمق ثم يدركه الموت فى دار حبيبته ويدفن فى أرض مراد ... وهذه قصيدة مفردة فى الغزل للمرقش قالها وهو فى الكهف الذى تركه فيه الغُفَلى أو قالها بين يدى أسماء قبل أن يموت وقد بدأها بحديث الطيف ثم وصف نار قوم الحبيبة واجتماع أترابها الغوانى حولها وراح يشبب بهن مشيرا إلى رحلة أسماء إلى أرض مراد وثباته على حبها والوفاء لها ، ومستعيدا بعد ذلك بعض ذكريات الشباب ..... يقول :

سرى ليلاً خيالٌ من سُلَيْمى ... فأرّقنى وأصحابى هُجُود
فبتُّ أُدير أمرى كلَّ حال ... وأرقبُ أهلها وهمُ بَعيد
على أنْ قد سما طَرْفى لنارٍ ... يُشَبُّ لها بذى الأرطى وقود
حواليها مها جُمُّ التَّراقى ... وآرام وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش ... أوانس لا تراح ولا تَرود
يرحن معا بطاء المشى بُدًّا ... عليهن المجاسد والبُرود
سكنَّ ببلدة وسكنتُ أخرى ... وقُطِّعت المواثقُ والعُهود
فما بالى أمى ويخان عهدى ... وما بالى أصاد ولا أصيد
ورب أسيلةِ الخدين بكرٍ ... منعَّمةٍ لها فرع وجيد
وذو أُشُرٍ شتيت النَّبْتِ عَذْبٍ ... نقىُّ اللون براق بَرُود
لهوت بها زمانا من شبابى ... وزارتها النجائب والقصيد

أُناس كلما أخْلَقتُ وصـــلا عنَاني منهمُ وصلٌ جَديدُ (١)

وقد يحلو لبعض الباحثين أن يطلقوا وصف " الغزل اللاهى " أو " الغزل الماجن " على هذا اللون الذى يصرح فيه الشاعر برغبته فـــى المرأة واستمتاعه بها وتمادية فى وصفها وتهتكه فى كشفها وتعريتها كما يطيب لهم أن يطلقوا وصف " الغزل العفيف " أو " العذرى " على اللون الآخر المقابل الذى يبتعد فيه الشاعر عن الفحش فى الوصف والتعبير والتصويـــر ويكتفى بذكر اللهفة والشوق والحنين والضنى والشجن ... والحقيقـــة أن كلا اللونين تغزل وتشبيب ونسيب وانهما يعبران عن عاطفة صادقـــة واحساس قوى لا جدال فى ذلك .. أما الوصف باللهو أو بالمجون فإنمـا يصدق على الممارسة الغزلية الفعلية فى حينها ووقتها باعتبارها واقعا ، ملموسا أما بعد صياغتها شعرا يعبر عنها ويصور ملامحها وجوانبهـــا فإنها تصبح فنا شعريا خالصا يمثل جزءا هاما من حياة الشاعر وكيانـــا حيا من ذكريات لا ينساها بل يجد فيها هذه الواحة الخصبة المزدهرة بالمتعة والحيوية والاهل وسط صحراء قاحلة من حياة فارغة وعيشة مـــرة وشبيبة مولية ، فالشاعر حين ينسب ويشبب ويقف على الأطلال ويبكـــى الديار ويصف الحبيبة ويصور ما جرى وما كان إنما يحاول ان يتخطى حدود

---

١ ـ المفضليات القصيدة (٤٦) ص ٢٢٣ وما بعدها ـ هجود : نيام ـ سما : ارتفع طرفى : نظري ـ يشب : يرفع الحطب حواليها وهو الوقـود وذو الأرطى موضع ينبت فيه الأرطى وهو شجر ينبت فى الرمل ـ المهـــا بقر الوحش واحدها مهاة ـ جم التراقى : يغمرها اللحم والتراقى جمع ترقوة وهى مقدمة الحلق فى أعلى الصدر ـ الآرام : جمع رئم الظبى الأبيض ويعنى بالمها والآرام الفتيات الحسان ـ معا : مجتمعات ـ بُدّا : جمع بدّاء وهى المرأة كثيرة لحم الفخذين لدرجة الاحتكاك ـ المجاسـد جمع مجسد الثوب المشبع صبغا بالجساد وهو الزعفران او الثوب الذى يلى الجسد ـ أسيلة الخدين : ناعمة الخدين ممتدتهما ـ فرع : شعر غزير ـ جيد : عنق ـ أشُر : تحزز فى الأسنان وشتيت النبت : اى متفرقة الثنايا ـ النجائب ـ النياق ـ القصيد : الناقة السمينة أخلقت وصلا : أبليت وأنهيت ـ عنانى ـ أهمنى .

الزمان فى نفس المكان ويهيىء لنفسه متعة خالصة فى لحظات يحياها فى عالم الذكريات، ومعنى ذلك أن هذه المقدمات الغزلية فى مطالع القصائد ليست منفصلة عن الشاعر إحساسا ووجدانا بل هى جزء من نفسه وكيانه وتعبير عن ذاته بلا زيف ولا ادعاء أو تلبيس ... فالعاطفة الصادقة ، والقلب النابض بالحب والمشاعر الملتهبة بالرغبة ، والأحاسيس الملتاعة بالفرقة وراء هذه المقدمات الغزلية التى يظن كثير من الناس أنها مقدمات تقليدية مصطنعة وهى فى حقيقتها العنصر الذاتى المتميز المعبر عن نفسية الشاعر وأدق أحاسيسه وأرهف مشاعره بصدق وصراحة ووضوح فليس من الشعراء من لم تربطه صلة بهذه العاطفة الإنسانية الأصيلة ... وليس من الشعراء من لم تلهبه هذه الأحاسيس المتوهجة والمشاعر المتدفقة ..... فالعاطفة الصادقة القوية إذن هى الطاقة المحركة لانطلاقة هذا الفن الشعرى نحو غاياته البعيدة ، وآفاقه الممتدة ، وليس أدل على ذلك من ان النقاد القدامى قد التفتوا الى هذا الجانب فاشترطوا فى النسيب أن تكثر فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة وإفراط الوجد ولوعة الحنين وشدة الأسف والتحسر إلى جانب وصف جمال المرأة وتصوير جاذبيتها وسحرها ، ولن يتأتى للشاعر أن يصل إلى هذا المستوى من الصبابة والوجد والأسى والشجن اصطناعا وتمثيلا لو احتذاء وتقليدا ولعل هذا الشاعر الذى أراد أن يمتدح نصر بن سيار لم يكن بمنأى عن عواطفه ومشاعره حين صاغ مائة بيت نسيبا وعشرة أبيات مديحا وتعرض للموءاخذه من ممدوحه ... (١) .

فأنى يتأتى له أن يفتعل مائة بيت فى غزل لم يكن هناك ما يدعوه إليه فى هذا المقام ؟! وقد رأينا خير من أرخو للحياة العاطفية والحب الصادق فى عصره وهو " ابن أبى داود " م ٢٦٩ هـ فى كتابه

---

١ ـ قال له نصر : ما أبقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحى بنسيبك فإن اردت مديحى فاقتصد فى النسيب فغدا عليه فأنشده :

هل تعرف الدار لام عمرو ؟ دع ذا وخبّر مدحة فى نصر .

فقال نصر لا هذا ولا ذاك ولكن بين الأمرين (العمدة جـ ٢ ص ١١٧) .

" الزهرة " يمثل على الحب الصادق بأمثلة من المقدمات الغزلية لقصائد المديح [1] ... واذا كان النسيب حقا ذا دلالة قوية على ما يجيش بقلب المحب ويتغلغل فى أعماقه من أحاسيس ومشاعر كان لابد إذن أن يتسم بحلاوة الألفاظ ورقتها ، وقرب المعانى وسهولتها ، وتجنب الالتواء والغموض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ليس بالإيثار رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ويستخف الرصين ، ويهز قلب الخلى ، ويدر الدمع العصى .....

وقد أدرك النقاد هذه الجوانب كلها بعد دراسة وتتبع لهذه النماذج الجيدة من الشعر الجاهلى فى أهم أبوابه وفنونه وهو " النسيب " وكان حرصهم بالغا على إيراد شواهد الإبداع فى هذا الفن تعبيرا وتصويرا وروعة أسلوب وجمال أداء ودقة معنى كما كان حرصهم بالغا على إيراد مظاهر الوجد والصبابة والتهالك والأسى فى الشعر الجاهلى وفطنتهم لدقائق معانيه فى الوقوف على الديار والتسليم عليها وذكر تعفية الدهور والأزمان والرياح لها وسوءالها واستعجامها ثم ما يخلف الظاعنين من الوحش فى هذه الديار والدعاء لها بالسقيا وذكر الأنفاس الحرّى والزفرات الملتهبة وزوال الصبر والتجلد ... إلى آخر هذه المعانى التى افاض بها الجاهليون وسبقوا اليها وبرعوا فيها وكانت لهم بحق دلائل عبقرية وشواهد إبداع ..

ثانيا : فى الوصف :

يعد الوصف من أهم فنون الشعر الجاهلى وأبوابه التى تترك آثارها واضحة جلية على سائر الفنون والأبواب التى تناولها الشعراء فأنت ترى فى النسيب وصفا ... وفى المديح وصفا .. وفى الهجاء وصفا .. الخ

---

١ ـ المدخل هامش ص ٢١٢

حتى لتكاد تحس بأن سائر فنون الشعر الجاهلى تقوم عليه وتنهض به ولذا فقد كان للشعراء الجاهليين حظ وافر ونصيب كبير من الوصف باعتباره الوسيلة المثلى إلى التعبير عن الماديات والمدركات الحسية وعن المعنويات والمدركات العقلية والخيالية وعن الموضوعيات على اختلاف أجناسها وأنواعها وتباين أشكالها وهيئاتها . على نحو ما نرى فى وصف الأحداث وتطور المواقف ونمو الحركة " الدرامية " فى الأعمال القصصية ... وعن أحاسيسهم ومشاعرهم إزاء هذه المدركات والموضوعات على اختلاف أنواعها .. وكان شعرهم تبعا لذلك تصويرا صادقا دقيقا لكل ما وقعت عليه أنظارهم ولمحته أعينهم ، وسمعته آذانهم ، وشمته أنوفهم ، ولمسته أيديهم ، ووطئته أقدامهم ، ووعته عقولهم ، وحامت حوله خواطرهم ، وحلقت فى آفاقه أخيلتهم وتعلقت به أفئدتهم وقلوبهم ، وامتدت إليه أحلامهم وآمالهم ، أو نفرت منه طباعهم وأعرضت عنه نفوسهم ، وضاقت به صدورهم .

وإذا أخذنا نحصى ونستقصى ونتتبع لما قدر لنا أن ننتهى عدا واحصاء فقد تناولوا السماء بشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها وتحركاتها وطلوعها وتعرضها وغروبها وأنوائها وسحبها وبرقها ورعدها وأمطارها وتناولوا الأرض بسهولها وجبالها وأوديتها وهضابها وربواتها وتلالها ورمالها ومغاراتها وكهوفها وأنهارها وبحارها وغدرانها وآبارها وأشجارها ونباتاتها وحيواناتها ووحوشها وطيورها وحشراتها وهوامها وإنسها وجنها وما يتناوب عليها من رياح وهواء ونسائم وحر وبرد واعتدال وربيع وخريف وصيف وشتاء واستقصوا كل نوع من هذه المدركات الحسية وهى تمثل جانبا واحدا من الجوانب التى تناولها الوصف فى الشعر الجاهلى ، فما بالك بكل الجوانب !! .

ولم يكن الوصف يأتى مستقلا فى قصائد خاصة به مقصورا عليه بل كان يتخلل سائر الفنون الشعرية والأغراض المتنوعة فيضفى عليها ضروبا من الإثارة والابداع تنبىء عن شاعرية متدفقة وبصيرة نافذة ، وشعور مرهف ، وإحساس دقيق .

ولعل ذلك يفسر قول ابن رشيق "الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ....." (١)

وقد جرت عادة كثير من الباحثين أن يتحدثوا عن الوصف في الشعر الجاهلي بأنه وصف مادي حسي ينقل عن الواقع نقلا أمينا كما هو ببساطة وسطحية .. وهم بذلك يجردون مثل هذا الشعر الوصفي من الفن والإبداع لأن مجرد نقل الأشياء كما هي لا يعد .. "فنا" ولا يعتبر "إبداعا" إنما الفن والإبداع تعبير عن الأشياء والمشاهد من خلال الاحاسيس والمشاعر بحيث تأخذ هذه الأشياء صورة خاصة ورؤية متميزة من خلال ذاتية الشاعر ورؤيته العميقة وإحساسه المرهف .. ومن هذا المنطلق كان الاختلاف والتغاير بين شاعر وشاعر في موضوع محدد فأنت ترى ـ على سبيل المثال ـ شاعرا يصف الليل أو الفرس أو الناقة ، وترى شاعرا آخر من نفس البيئة يصف نفس هذه الأشياء لكنك حتما تجد مذاقا خاصا لكل منهما وتأثيرا قويا لأحدهما دون الآخر . لماذا ؟

هنا يكمن السر ، لأن هذا الوصف لم يكن مجرد نقل عن الواقع وانما كان تعبيرا عن المشاعر والرؤية الذاتية المتميزة وهكذا كان شعراء الجاهلية لكل منهم أسلوبه وطريقته وشخصيته ولونه الخاص وتأثيره ... ونحن لا ننكر أن هناك أمورا قد يتلاقون عليها ويتفقون فيها ويرددونها كثيرا في أشعارهم كما عرفنا من وصفهم المرأة بالغزال والرئم والظبية والمهاة ..... ووصفهم العيون بالحور والقوام بغصن البان ولكن هذه بعض جوانب الصورة وعنصر من عناصرها ولون واحد من ألوانها أما الصورة مكتملة فإنها صورة رائعة تتلاقى فيها سائر العناصر والألوان والشيات وتبرزها الظلال والأضواء واللمسات ..

والنقاد القدامى يكاد ينعقد إجماعهم على أن أجود الوصف هو الذي يستطيع أن يحكي الموصوف حتى يمثله للسامع وذلك بأن يأتي الشاعر بأكثر معاني ما يصفه وأظهرها فيه وأولاها بأن تمثله للحس حتى يقلب السمع بصرا أي تتمثل ما تسمعه بأذنك حتى لكأنك تراه

---

١ ـ العمدة جـ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها

بعينيك [1] .... وذلك ما نؤكد تحققه في الوصف الجاهلي ودليلنا هذه النماذج الموثقة : التي جاء الوصف فيها على هذا المثال من الدقة والاستقصاء والاقتدار على تقديم الموصوف بأجلى وصف يمثله للحس وكأنه مشاهد بالعيان ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ أن الشعراء المجيدين المبدعين منذ القدم قد عنوا بوصف أحاسيسهم ومشاعرهم إزاء ما يصفون بشكل يقوق حد الروعة والإبداع .... خذ مثلا وصف امرئ القيس في معلقته لليل والفرس والصيد وتأمل كيف يتغلغل هذا الوصف في أعماق الشعور والإحساس إذ يقول :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولَه ... عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصُلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجل ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومَه ... بكل مُغار الفتل شدَّت بيذبل
وقد اغتدى والطيرُ في وُكُناتها ... بمُنجَرد قيدِ الأوابد هيكل
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبل مُدبر معاً ... كجُلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من عل
يزلُّ الغُلام الخِفُّ عن صَهَواته ... ويُلْوى بأثواب العنيف المثقَّل
له أيْطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاءُ سِرْحان وتقريب تتفل
ضليعٍ إذا استدبرته سدَّ فرجَه ... بضاف فُويق الأرض ليس بأعزل
. . . . . .
فعنَّ لنا سِربٌ كأن نِعاجَه ... عذارَى دَوَار في مُلاء مُذيَّل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه ... بجيد مُعَمٍّ في العشيرة مُخْول
فألحقنا بالهاديات ودونه ... جواحِرُها في صرَّة لم تُزيَّل
فعادى عداء بين ثور ونعجة ... دراكا ولم ينضح بماء فيغسل
فظل طهاة اللحم من بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجل
ورحنا يكاد الطرْف يقصُر دونه ... متى ما ترقَّ العينُ فيه تسفَّل [2]

---

١ ـ نفسه .

٢ ـ شرح المعلقات العشر للزوزني ص٥٨ ـ ص٧٣ ـ ارخى سدوله : ارسل ستوره جمع سدل وهو الستر ـ ليبتلي : ليختبرني ويعرف مدى صبري واحتمالي ـ تمطى بصلبه : تمدد بظهره ـ الأعجاز : جمع عجز يعني مؤخره وأردف : اتبع ـ وناء بكلكل : بعد بصدره ـ انجل بصبح

فأنت ترى الشاعر في هذه الأبيات يصف ليلا متطاولا ثقيلا على نفسه متراكم الظلام رهيبا قد أقبل عليه بأشتات من الهموم ليختبر مدى صبره واحتماله وهو يصور هذا الليل بالجمل الذى يتمطى ويباعد ما بين صدره

= انكشف عن صبح ـ بأمثل : بأفضل أى ليس الإصباح بأفضل من الليل لأنه سيأتى معه بأشتات أخرى من الهموم ـ مغار الفتل : محكم الفتل أى حبل متين ـ يذبل : جبل ينجد أى كأن النجوم مشدودة بحبال متينة إلى هذا الجبل فهى لا تتحرك نحو المغيب ـ أغتدى : أبكر للصيد ـ وكناتها : جمع وكنة : أعشاش الطيور ومواضعها حيث تبيت أو تبيض منجرد : قصير الشعر وهذا مفضل فى الخيول ـ الأوابد : الوحوش النافرة جمع آبد كأنه لسبقه قيد لها ـ هيكل : ضخم ـ مكر مفر : سريع الإقبال والإدبار ـ جلمود صخر : صخر صلب ـ الخف : الخفيف ـ صهواته : جمع صهوة مقعد الفارس من ظهر الفرس ـ أيطلا الظبى : خاصرتاه وهما ضامرتان ـ السرحان : الذئب وإرخاؤه جريه فى سهوله والتتفل : ولد الثعلب وتقريبه رفع يديه معا ووضع الرجلين موضعهما ـ ضليع : عظيم الأضلاع منتفخ الجنبين ـ فرجه ما بين يديه وما بين رجليه ـ ضاف : ذنب سابغ تام ليس بأعزل : ليس بمائل إلى أحد الشقين ـ عنّ : ظهر والسرب القطيع من بقر الوحش أو غيره والنعاج هنا إناث بقر الوحش دوار : حجر كانوا يطوفون به تعبدا ـ المذيّل : سود الذيول أو أطيل ذيله وأرخى ـ عادى عداء أى عدا عدوا دراكا متواصلا متلاحقا ولم يتصبب عرقه ـ القدير المعجل ما طبخ على القدر تعجلا للأكل ـ الجزع : الخرز اليمانى المعم المخول : كريم الأعمام والأخوال ـ النهاديات : الأوائل المتقدمات والجواحر : المتخلفات ـ الصرة : الجماعة أو الصيحة يريد أنه يدرك أوائلها قبل تفرق جماعاتها المتخلفة لشدة عدوه ومعنى البيت الأخير أنه كامل الحسن رائع الصورة تكاد العيون تقصر عن كنه حسنه ومهما نظرت إلى أعاليه عادت فاشتهت النظر إلى أسافله .

وعجزه وما يزال يتمدد فى بطء بالغ وتثاقل شديد ، ويتمنى أن ينكشف هذا الليل عن صبح يريحه من همومه لكنه يعود ويتشكك فى ذلك لان الصبح لن يكون خيرا من هذا الليل إذ سيطلع عليه بأشتات أخرى من الهموم ، وتشتد وطأة هذا الليل على الشاعر حتى ليخيل اليه أن نجومه مشدودة بحبال متينة الى جبل " يذبل " فهى لا تروم حراكا ولا يظهر لها مغيب .... هكذا يصف امرؤ القيس الليل من خلال ذاته ورؤيته الخاصة ومن وحى مشاعره وأحاسيسه فيشبهه بموج البحر ليعبر عن رهبته وتراكمه وامتداد ظلامه ويصوره وهو يرخى عليه استارا ثقيلة من ظلامه الدامس مصحوبة بأنواع شتى من الهموم ، ويصوره مرة أخرى جملا يتمطى ويباعد ما بين صدره وعجزه فى بطء شديد ثقيل على سبيل الإستعارة ويعبر الشاعر تعبيرا بالغا عن نفسه القلقة الحائرة المثقلة بأشتات الهموم وهى تتمنى أن يطلع عليها صبح بعد هذا الليل الطويل وان كانت واثقة أن هذا الصبح لن يكون خيرا من هذ الليل الرهيب .. ويعود الشاعر فيصور إحساسه بوطأة هذا الليل بأسلوب تعجب مثير من ليل غريب أمره قد شدت نجومه بحبال متينة الى أعتى جبل فهى ثابتة راسخة لا تتحرك إلى مغيب " فيالك من ليل كأن نجومه !! " بعد ذلك يأخذ فى وصف فرسه فيذكر أنه كثيرا ما كان يخرج للصيد فى الصباح الباكر قبل أن تنهض الطيور من أوكارها بصحبة فرس أصيل قصير الشعر ضخم سريع العدو يدرك الوحوش النافرة فتتوقف كانه قيد لها لا تستطيع منه فكاكا وهو يقبل ويدبر فى سرعة خاطفة حتى لكأن إقباله وإدباره حركة واحدة فى وقت واحد ... وهو يندفع فى عدوه اندفاع صخرة كبيرة جرفها سيل من مكان عال فراحت تهوى بكل قوة نحو منحدر شديد وهذا الجواد لا يمكن من ظهره إلا فارسا مدربا فالغلام الخفيف لايثبت على صهوته إن لم يكن ذا خبرة والرجل العنيف الثقيل تطير ثيابه إذا اعتلاه ويتركه مضطربا يحاول إصلاحها ثم يذكر الشاعر أن هذا الفرس يجمع كثيرا من الصفات الكريمة فى الخيل فخاصرتاه ضامرتان كخاصرتى الظبى ، وساقاه طويلتان صلبتان كساقى النعامة وهو إذا جرى ينساب فى خفة كالذئب فإذا عدا وأسرع رفع يديه معا

ووضع رجليه موضعهما واثبا قافزا كالثعلب ... ولا شك أنك تحس بحيوية الشاعر وانطلاقته النفسية وهو يصف فرسه معجبا مزهوا بقدراته وتفرده في صفاته ، ومن وحي هذه المشاعر كان إبداعه في تعبيره وتصويره : فأنت تراه يكنى عن البكور بصورة ترسم لك جو الصباح الباكر وهدوءه في قوله :

" والطير في وكناتها " كما تراه يشبه فرسه بقيد يحيط بالوحوش ولا يدعها تفلت منه فتقف أمامه جامدة كأنها مقيدة وكأنه لسرعة عدوه قيد لها يقطع عليها طريقها ويجمد حركتها وهذا من أروع التشبيهات . ولفظة " معا " في قوله " مقبل مدبر معا " تخيل لك أن إقبال الفرس وإدباره صارا حركة واحدة في مرأى العين لشدة سرعته وهذه مبالغة شعرية جميلة ، كما أن تشبيهه بجلمود الصخر الذي يجرفه السيل من مكان عال يصور لك سرعته واندفاعه ودوي جريه ... أما قوله " له أيطلا ظبي .... البيت .. " فقد جمع فيه أربعة تشبيهات قدم من خلالها صورة فنية بلغت قمة الروعة والإبداع لفرس عجيب غاية العجب غريب كل الغرابة مثير منتهى الإثارة ... إنه فرس تجمعت فيه صفات حيوانات عديدة فأصبح نمطا فريدا لا نظير له من وجهة نظر صاحبه ومن وحي شعوره وإحساسه فرأسه رأس فرس وخاصرته خاصرة ظبي وساقه ساق نعامة وانسيابه وجريانه ارخاء ذئب ووثبه وقفزه تقريب ثعلب ... ومع ساق النعامه نلمح جبنها الشديد وخوفها المذعور لنتصور إلى أي مدى يكون عدوها وانطلاقها ... ومع إرخاء الذئب نلمح شراسته وجرأته لنتصور إلى أي مدى يكون انسيابه واندفاعه في خفة .... ومع تقريب الثعلب نلمح مكره ودهاءه لنتصور إلى أي مدى يكون وثبه وقفزه في ملاحقته للوحوش ... إنها صورة فنية مكتملة لهذا الفرس العجيب صاغها امرؤ القيس من روحه ووجدانه واستراحاها من شعوره وإحساسه وأبدعها بتعبيره وإيحائه وسحر بيانه ..... ومن دلائل عتق هذا الفرس وكرم أصله أنه عظيم الأضلاع منتفخ الجنبين إذا نظرت إليه من خلفه رأيته قد سد الفضاء الذي بين رجليه بذيله السابغ التام في استقامة واستواء ..

وانتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف الصيد فيذكر أنه لمح سربا من بقر الوحش بيض ظهورها سود قوائمها كأنها فتيات حسان يطفن في

ملاءات بيض مذيلة بذيول سود حول معبودهن " دوار " فى تبختر واتئاد وحين شعر القطيع بالخطر أدبرت نعاجه كالخرز اليمانى الذى فصل بين حباته بغيره من الجواهر فى عنق صبى كريم الأعمام والأخوال وعدا الفرس حتى ادرك أوائلها قبل تفرق جماعتها المتخلفة لسرعته وشدة عدوه ثم انه جرى جريا متصلا بين ثور ونعجة فأدركها فى شوط واحد دون أن يعرق عرقا مفرطا أى دون معاناة مشقة ومقاساة شدة ، وكثر الصيد وراح الطهاة يعدون الطعام بعضهم يصفف الشواء على الجمر وينضجه وبعضهم يطبخ فى القدر متعجلا ... ثم امسينا وتكاد عيوننا تعجز عن ضبط حسنه واستقصاء جمال خلقه .... وفى هذه الأبيات صورة لونية حركية صوتية معنوية ... إذ يشبه بقر الوحش بظهورها البيض وقوائمها السود وهى تتهادى وتلتف حول فحلها بعذارى يتهادين فى ملاءاتهن البيض المذيلة باللون الأسود وهن يطفن بمعبودهن " دوار " والتشبيه بالعذارى فى غاية الدقة لأنهن مصونات فى خدورهن لا يغير ألوانهن حر شمس أو غيره ولأن فيهن دلالا وتبخترا فى المشى فشبه المها بهن فى بياض ألوانها وصفائها وحسن مشيها واكتملت الصورة بالملاء المذيل والطواف بالمعبود ليعطى معنى تعلقها واحتمائها بفحلها بدورانها حوله على هيئة مخصوصة من التؤدة والتبختر والامتزاج ... كذلك نلمح جانب الدقة والبراعة فى تصوير الهجمة السريعة المباغته على ثور ونعجة فى طلق واحد دون عناء وبعدو متصل .... وقد عبر الشاعر عن نشاط الجواد وقوته بكناية لطيفة مؤيدة بدليل حسى تتمثل فى قوله " ولم ينضح بماء فيغسل " أى أنه لم يعرق عرقا مفرطا بعد هذا الجهد الشاق وذلك دليل قوته ونشاطه وحيويته ... واضح تماما أن عنصر الصوت متحقق تماما فى هذا المشهد من بدايته إلى نهايته مع سائر العناصر اللونية والحركية والمعنوية مما يجسم لوحه فنية متكاملة ينكر كثير من الباحثين وجودها فى أدبنا العربى القديم .....-

وعلى أية حال فإن هذه الأبيات تعد بحق نموذجا للوصف الجاهلى الذى يعتمد على الحس المرهف ودقة الملاحظة والانفعال بالبيئة والتعبير الصادق عنها والامتزاج بها شعورا واحساسا وحسن اختيار الألفاظ الموحية والأساليب المعبرة والاعتماد على التصوير البارع ،

والأداء الرائع ، والاقتدار على التعبير عن الوجدان والخواطر ، وإبراز الأحاسيس والمشاعر واستحضار المشاهد والمناظر واستعادة الذكريات بدقة واستقصاء .... ونمضى مع شواهد الإبداع فى الوصف الجاهلى فنقدم هذه الأبيات فى وصف الحرب للشاعر الجاهلى الحكيم زهير بن أبى سلمى من معلقته البديعة الرائعة التى يضرب بها المثل الأعلى فى التفاعل مع المجتمع وأحداث الحياة وتؤكد دور الشعر الجاهلى فى الدعوة إلى الحق والخير والحب والسلام .... يقول زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضْر إذا ضَرَّيتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرَّحى بثِفَالها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشْأم كلهم ... كأحمر عادٍ ثم تُرضع فتفطم
فتُغْلِل لكم مالا تُغِلُّ لأهلها ... قُرى بالعراق من قفيزٍ ودِرْهَم (١)

---

١ ـ شرح المعلقات العشر للزوزنى ص١٤٤ وما بعدها ـ ذقتم : جربتم ـ الحديث المرجَّم : المحكوم فيه بالظنون يعنى أنكم تعرفون الحرب وأحوالها تمام المعرفة عن خبرة ويقين ـ تبعثوها : تثيروها ـ تضر : تشتد وتستعر نارها ـ ضريتموها : ألهبتموها ـ تضرم : تشتعل ـ تعرككم : تطحنكم وتهلككم ـ ثفال الرحى : جلدة أو خرقه تبسط تحتها ليقع الطحين عليها ـ تلقح كشافا : تحمل فى السنة مرتين ـ تنتج : تضع حملها ـ تتئم تلد توأمين ـ الأشأم : أفعل من الشؤم ضد اليمن وأحمر عاد المراد به أحمر ثمود عاقر ناقة صالح عليه السلام واسمه قدار بن سالف ـ تغلل لكم : تعطيكم نتاجها وغلاتها ـ قرى العراق لشهرتها بالخصوبة والنماء ـ القفيز : وعاء تكال به الحبوب .

إنه فى هذه الأبيات يصور الحرب أفظع تصوير محذرا من وخيم عواقبها وشرها الجامح، وشؤمها البالغ ، فأنت تراه يجعلها نارا مشبوبة مستعرة لا تُبْقى ولا تذر ، ويجعلها أيضا رحى تعرك الخلق وتسحق البشر ويجعلها كذلك ناقة يكثر حملها ونتاجها وكل ماتلده وتأتى به إنما هو مصدر شؤم وشر ، ويجعلها أخيرا أرضا تغل ضروبا من الشرور والمصائب والأهوال تربو على ما تغله أرض خصبة كقرى العراق من غلات وأموال

وهذه بغير شك صور متتابعة تلتقى كلها فى تشويه الحرب وتجسيم ويلاتها وأهوالها ... وتأتلف فى إطار دقيق لتكوين صورة فنية للحرب ببشاعتها وعواقبها الوخيمة ونتائجها المروعة وهى صورة قاتمة لا ريب صاغتها مشاعر نافرة من الحرب كارهة لها ، مكتوية بنارها ، مشفقة من نتائجها وأهوالها ، وأبدعتها خبرة مجرّب ، وحكمة حكيم ، وفطنة أريب ، وأوحت بها نبضات قلب عامر بالخير والحب تواق للأمن راغب فى السلام .

ولا يقولن أحد إنها صور جزئية لا رابط بينها ولا جامع يلم شملها ويجمع شتاتها ... لأن الحقيقة الناصعة ماثلة فى هذه المعارض المتعددة التى يصور شاعرنا الحرب وأهوالها فى اطارها ... فهى شر فى أى مظهر .. وهى بلاء بكل اعتبار ... وهى سوء فى أى تقدير ... إن لها من النيران لهيبها وسعيرها وضرامها ولها من الرحى عركها وطحنها وسحقها .... ولها من ناقة السوء حملها المتتابع ونتاجها المفعم بالشر الموسوم بالشؤم ..... ولها من الأرض غلات وأرزاق من شرور ومصائب لا قِبَل لأحد بها .... هكذا يحتاج تصوير المعنويات إلى هذا القدر من المدركات الحسية تحقيقا للغرض المقصود ووصولا إلى الغاية المنشودة .

وقد نلمس فى الوصف الجاهلى نوعا من الرمز لا يخطر على بال أولئك المستغربين والمستشرقين على السواء الذين يرمون الشعر الجاهلى بالسذاجة والسطحية والقصور فقد كان شعراء الجاهلية

يصفون كثيرا من أنواع الحيوان كالظباء والمها والثيران وحمر الوحش ويستطردون إلى وصف ما ينشب من عراك بينها وبين كلاب الصيد في عرض مثير .... وكان " من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش وإذا كان الشعر مديحا وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم "(١) وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب في المديح رمزا لأعداء الممدوح الذين كانوا فعلا يشبهونهم بالكلاب ... وقد ورد هذا الوصف الرمزي في إطار أبيات من معلقة لبيد بن ربيعة العامري يشبه فيها ناقته ببقرة وحشية افترس السبع ولدها إذ خذلته وتركته ومضت ترعى مع صواحبها وجعلت قوام أمرها الفحل الذي يتقدم القطيع من بقر الوحش وظلت تطلبه وتجد في طلبه طائفة وصائحة فيما بين الرمال من اجل صغيرها الذي ألقى على أديم الأرض واقترسته كلاب أو ذئاب قد اعتادت الاصطياد فأصابت منها غرة وغفلة فافترست ولدها ... وباتت في مكانها تبحث عنه وقد أسبل مطر واكف دائم الهميان علاظهرها في تلك الليلة التي تجمعت سحبها فحجبت نجومها واشتد ظلامها وحاولت الاستتار من البرد والمطر بأغصان الشجر التي كانت تتقلص عنها بينما تنهال كثبان الرمال عليها ولم تجد فيها حمى من برد أو مطر فتعدو في اضطراب وقلق وسط الظلام ، كأنها لبياضها وتلألؤ قطرات الماء العالقة بها درة سُلَّ نظامها ، حتى إذا انكشف ظلام الليل وانجلى بكرت البقرة من مأواها لتعاود بحثها فتزل قوائمها عن التراب الندي بكثرة المطر الذي أصابه ليلا فتمعن جزعا وضجرا وتتردد متحيرة في وهاد هذا المكان وغدرانه سبع ليال بأيامها ، حتى إذا يئست من العثور على ولدها وصار ضرعها الممتلئ لبنا خلقا لانقطاع لبنها بسبب فقدها من ترضعه سمعت صوتا لم تر صاحبه فغدت فزعة مذعورة لا تعرف منجاها من مهلكها حتى إذا يئس الرماة من البقرة وعلموا أن سهامهم لا تنالها وأرسلوا في طلبها كلابا مسترخية الآذان معلمة ضوامر البطون فلحقت بها لكن البقرة تصدت للكلاب بقرن حاد ممتد كالرمح يدفعها يقينها بأنها إن لم تطرد عنها

---

١ ـ الحيوان للجاحظ جـ ٢ ص ٢٠

قتلتها الكلاب وكان أن قتلت البقرة كلبتين من جملة الكلاب هما " كَسَاب " و " سُخَام " وضرجتهما بالدماء فى موضع كَرِّها ... يقول لبيد :

أفتلك أم وحشيةٌ مسبوعةٌ ... خذلت وهادية الصُّوار قوامها
خنساء ضيعت الفَرِير فلم تَرِم ... عُرض الشقائق طوفُها ويُغامها
لمُعفَّر قَهْد تنازع شِلْوَه ... غُبْسٌ كواسب لا يُمَنُّ طعامُها
صادفن منها غِرة فأصبْنها ... إنَّ المنايا لا تطيش سهامها
باتت وأسبل واكفٌ من ديمةٍ ... يُروى الخمائلَ دائما تَسْجامها
يعلو طريقة متنها مُتواتِرٌ ... فى ليلةٍ كفَرَ النجومَ غمامُها
تجتاف أصْلا قالِصا متنبِّذا ... بعُجُوب أنْقاءٍ يَميل هُيامها
وتُضيء فى وجه الظلام منيرةً ... كجُمانةِ البحرى سُلَّ نِظامها
حتى إذا انحسر الظلام وأسْفرت ... بكَّرت تَزِل عن الثَّرى أزْلامها
عَلِهَتْ تردَّد فى نِهاءِ صُعائدٍ ... سبْعا تُؤاما كاملا أيامها
حتى إذا يئست وأسحق حالق ... لم يُبْله إرضاعُها وفطامُها
فتوجَّست رزَّ الأنيس فراعها ... عن ظهر غيب والأنيسُ سَقامُها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنَّه ... مولَى المخافة خلفُها وأمامُها
حتى إذا يئس الرُّماة وأرسلوا ... غُضْفا دواجن قافلا أعْصامُها
فلحِقْن واعتكرت لها مَدْرِيَّةٌ ... كالسَّمْهرية حدُّها وتمامُها
لتذودهن وأيقنت إن لم تذد ... أن قد أجم من الحتوف حِمامُها
فتقصَّدت منها كَسَاب فضُرِّجت ... بدمٍ وغُودر فى المكرِّ سُخَامُها (١)

---

١ ـ شرح القصائد العشر ص ١٧٤ وما بعدها ـ أفتلك : الإشارة ترجع إلى الأتان الوحشية التى شبه بها ناقته فى الأبيات السابقة ـ مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها ـ الهادية : المتقدمة والمتقدم أيضا فتكون التاء للمبالغة والصُّوار : القطيع من بقر الوحش قوامها : ما يقوم به امرها وما تعتمد عليه اى اعتمادها على الفحل الذى يتقدم القطيع خنساء : البقرة الوحشية صفة لها لتأخر أنفها عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ـ الفرير : ولد البقرة الوحشية والجمع فرار على غير قياس ـ لم ترم عرض الشقائق : لم تبرح ناحية الشقائق جمع شقيقة وهى أرض صلبة بين رملتين ـ البغام : صوت رقيق =

هكذا مضى لبيد في وصفه الفني المثير لهذه البقرة الوحشية في استقصاء دقيق لحركاتها وسكناتها ولونها وصوتها وحزنها وهلعها وقلقها واضطرابها واستماتتها في الدفاع عن نفسها وقد أيقنت أنها قاتلة أو مقتولة

= المعفر : الملقى على العفر وهو أديم الأرض - القهد : الأبيض - تنازع : تجاذب - الشلو : العضو والجمع أشلاء - الغبس : جمع أغبس وعبساء رمادية اللون والغبسة لون كلون الرماد - لا يمن طعامها : لا يقطع عنها - غرة : غفلة - المنايا : جمع منية الموت - أسبل واكف من ديمة : هطل قطر من سحابة يدوم مطرها مالا يقل عن نصف يوم وليلة - الخمائل : جمع خميلة رملة ذات نبت أو أرض ذات شجر - تسجامها : هطولها وانصبابها - طريقة متنها : خط من ذنبها إلى عنقها (الظهر) - متواتر : متتابع - كفر النجوم غمامها : غطاها السحاب والكفر التغطية والستر - تجتاف تدخل في جوف الشيء - أصلا قالصا : أصل شجرة قلصت أغصانها متنبذا متنحيا عن سائر الشجر - بعجوب أنقاء : اصول كثبان رملية والعجب أصل الذنب والمراد أصل النقا وهو الكثيب من الرمل - الهيام : ما لا تماسك به من الرمال - جمانه : درة - سل نظامها : سحب سلكها أو خبطها - أزلامها : قوائمها لأنها مستوية والتزليم التسوية والزلمة القدح - علهت : العله والهلع : الانهماك في الجزع - النهاء : جمع نهي بفتح النون وكسرها الغدير - صعائد : موضع بعينه - التؤام جمع توأم أي أيام كاملة بلياليها - أسحق : خلق وبلى - الحالق : الضرع الممتلىء لبنا - الرز الصوت الخفي الأنيس : الإنس والناس - راعها : أفزعها - سقامها أي داؤها وهلاكها على أيدي الناس الفرجين : ما بين يديها وما بين رجليها مولى المخافة أي الأولى أن تخافه أي أنها لا تدري - الغضف من الكلاب المسترخية الآذان - الدواجن : المعلمات - قافلا أعصامها أي يابسة بطونها بمعنى ضامرة وقبل بل سواجيرها هي اليابسة وهي قلائد هما من الحديد والجلد - اعتكر : عطف ، المدرية : طرف قرنها - والسمهريه من الرماح منسوبة الى سمهر رجل اشتهر بحذق صنعها من قرية يقال لها " خطا " من قرى البحرين - لتذودهن : لتدفعهن وترد هن وتكفهن - أحم : قرب - الحقوف : جمع حتف : قضاء الموت وقد يسمى الهلاك حتفا - حمامها : موتها - تقصدت منها : تعرضت للقتل من الكلاب "كساب " و " سخام " وهما كلبتان - المكر : موضع كرها .

وكأنى بها فى وقفتها الصامدة متصدية للكلاب المهاجمة فى شراسة وعنف ترمز الى معنى الصلابة والتحدى فى الدفاع عن النفس والرغبة المحمومة فى الثأر من المعتدين .... ولعلى لا أكون مغاليا اذا قلت إن هذه الأبيات بكل ما تحمله من معان وإشارات ترمز إلى صراع الكائنات فى هذه الحياة وما يقع منها أو عليها من عدوان لشراسة فيها أو لغرة منها ... فهذه هى طبيعة الدنيا وسنة الحياة ولك أن تتأمل هذه الحكمة البالغة التى جاء بها لبيد فى ثنايا وصفه عن الموت و سهامه التى لا تطيش ولا يفلت منها أحد ليتأكد عندك ما قلته لك :

صادفن منها غرة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها

ولبيد شاعر من الشعراء البارعين فى الوصف المعروفين بالدقة والاستقصاء والإحاطة بجميع صور الموصوف ولعله فى هذه الناحية يفوق كثيرا من نظرائه فى الجاهلية حتى ليستطيع دارس شعره أن يتعلم جغرافية بلاد العرب فى عصر الجاهلية من شعره .

و من الوصف البديع المتسم بالاستقصاء والتتبع ودقة الملاحظة ما قاله أوس بن حجر فى وصف آلة من آلات الصيد والحرب هى القوس وقد تناولها الشاعر مذ كانت غصنا فى شجرة بعيدة المنال فوق جبل شامخ صعب المرتقى مشيرا بذلك إلى جودتها وقدرتها وأنها من أحسن الأقواس المعدة للرماية فى صيد أو فى حرب وأن عين خبير أبصرت غصنا فى شجرة بأعلى مكان فأدركت قيمته وأصالته وتحركت بصاحبها همته فارتقى وتسلق وتشبث بالصخر حتى وصل إلى مرامه والتقط الغصن وأعمل فيه يدا صناعا قامت بصقله وإعداده وتهيئته للرماية قوسا وسطا بين الطول والقصر تملأ الكف ويسمع لصوتها نئيم ورنين فإذا شدّ النازع سهما عاد إلى المقبض ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها ... يقول أوس فى القوس :

ومبضوعة من رأس فرع شظيته ... بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه ... عللن بدهن يزلق المتنزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه ... ليكلأ فيها طرفه متأملا

على خير ما أبصرتها من بضاعة ... لملتمس بيعا بها أو تبكلا
فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن ... لتبلغه حتى تكل وتعملا
فأبصر ألهابا من الطود دونه ... يرى بين رأسى كل نيقين مهيلا
فأشرط فيها نفسه وهو معصم ... وألقى بأسباب له وتوكلا
وقد أكلت أظفاره الصخر كلما ... تعيا عليه طول مرقى توصلا
فما زال حتى نالها وهو مشفق ... على موطن لو زل عنه تفضلا
أمرّ عليها ذات حدّ غرابها ... رقيق بأخذ المداوس صيقلا
على فخذيه من براية عودها ... شبيه سفا البهمى إذا ما تفتلا
فجردها صفراء لا الطول عابها ... ولا قصر أزرى بها فتعطلا
كتوم طلاع الكفّ لا دون ملئها ... ولا عجسها من موضع الكف أفضلا
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها ... إذا انبضوا عنها نئيما وأزملا
وإن شدّ فيها النزع ادبر سهمها ... إلى منتهى من عجسها ثم أقبلا (١)

وأوس بن حجر من الشعراء السابقين إلى دقيق المعاني وإلى الحكم البالغة وهو من أوصفهم للخمر والسلاح ولا سيما القوس إذ كان أوصف الناس للقوس .

---

١ ـ المبضوعة : المقطوعة والشظية : الفلقة من الشيء والطود : الجبل وتجلله بالسحاب تعبير عن علوه الشاهق والصفوان : الجبل ـ عللن بدهن : سقين بالدهن مرة بعد المرة يعبر بذلك عن ملاسته ـ ليكلأ فيها طرفه ليجيل فيها نظره متأملا تبكلا : غنيمة ـ الإلهاب : جمع لهب بالكسر الصدع في جانب الجبل والنّيق بالكسر المكان المرتفع والمهيل كمنزل المهوى من رأس الجبل ـ أشرط نفسه : ألزمها وقد أكلت أظفاره الصخر تعبير عن المعاناة في الصعود وصموده إلى أن وصل وهو مشفق : خائف قلق أن تزل به قدمه فيهوي ـ ذات حد : السكين وغرابها : حدها ـ المداوس جمع مدوس كمنبر آلة الصيقل التي يثقف بها القسي ـ الكتوم التي لا يوجد في عودها شقوق ـ طلاع الكف : ملء الكف وطلاع كل شيء ملؤه ـ عجسها : العجس مثلث العين مقبض القوس ـ افضلا : أزيدا ـ أنبضوا عنها : حركوا وترها لترن ـ النئيم : يقول ابن قتيبة انه صوت البوم والأزمل صوت الجن ولعله يقصد بالأول صوتها عند النزع وبالثاني الرنين . ص٨٥ الشعر والشعراء .

وقد ذكرت كثيرا من الشواهد فى وصف المرأة على سبيل الغزل فى فـــن النسيب ورأينا كيف أن شعراء الجاهلية لم يتركوا شيئا فى المرأة إلا وصفـــوه ولا أمرا يتعلق بها إلا تناولوه لكننى هنا فى فن الوصف أذكر هذه الأبيـــات للنابغة الذبيانى قالها فى وصف " المتجردة " زوج النعمان بن المنـــذر لأن الوصف كان هو المقصود وهو المطلوب لا الغزل إذ يقال إن النعمان قال لـه وعنده " المتجردة " امرأته صفها لى فى شعرك يا أبا أمامة فقال قصيدته الـتى أولها (١)

أَمِن آل ميَّة رائح أو مغتـــــد ... عجلان ذا زاد وغير مـــــزوَّد
زعم البـوارح أن رحلتنا غـــدا ... وبذاك تتعاب الغراب الأســـود
لا مرحبا بغد ولا أهلابـــــه ... إن كان تفريق الأحبة فى غـــد
فى إثر غانية رمتـك بسهمهـــا ... فأصاب قلبك غير أن لم تقصـــد
بالدر والياقوت زين نحرهـــا ... ومفصل من لؤلؤ وزبرجـــد
صفراء كالسِّيَراء أكمل خلقهـــا ... كالغصن فى غلوائه المتـــأود
مخطوطة المتنين غير مفاضـــة ... ريَّا الروادف بضَّـــة المتجـــرد
قامت تراءى بين سجفى كِلَّـــة ... كالشمس يوم طلوعها بالأسعـــد
أو درَّة صدفية غواصهـــا ... بهج متى يرها يهـــل ويسجـــد
أو دمية من مرمر مرفوعـــة ... بنيت بآجر يُشاد بقرمـــد
سقط النصيف ولم ترد إسقاطـــه ... فتناولته واتقتنـــا باليـــد
بمُخَضَّب رخْص كأن بنانـــه ... عنم على أغصانـه لم يعقـــد

---

١ ــ الشعر والشعراء ص ٦٦ .

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السقيم الى وجوه العوّد (١)

هكذا وصف النابغة " المتجردة " فأحاط وأبدع ، وأجاد وأطرب وخاصة حين شبهها بالشمس في طلعتها بين الستور بهاء وجمالا وحلال ... وحين أتى بهذه الصورة الحركية المثيرة عندما سقط عنها النصيف فتناولته بأصابعها الرخصة الفاتنة ... وتحاشت النظرات بيدها الأخرى ..... والنابغة بديع المعاني جميل التشبيه واسع الخيال دقيق الوصف مشرق الديباجة صافي الأسلوب موافق لهوى النفوس متلطف في أداء معانيه وخواطره وإهدائها لكل الأذواق . وقد فضله بعضهم على جميع الشعراء لأنه أوضحهم كلاما واقلهم سقطا وحشوا وأجودهم مقاطع وأحسنهم مطالع ولشعره ديباجة إن شئت قلت ليس بشعر مؤلف من تأنقه ولينه وإن شئت قلت صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها . (٢)

ومن الوصف الطريف البارع الذى أبدعه خيال الحطيئة الشاعر الجاهلى الإسلامى المخضرم هذه الأبيات التى يصور فيها على سبيل التجسيم والتكبير والتضخيم بخيلا نصب له شراكه واحتال عليه فلم يصب منه شيئا بعد طول جهد وإعياء فيقول :

---

١ ـ البوارح من الطير ما مر من ميامنك الى مياسرك ـ السَّيَراء بفتح الياء ثوب من حرير فيه خيوط ـ غلواء الغصن امتداده والمتأود : المنعطف ـ بضّة المتجرد : أى بضّة عند التجرد من الثياب ـ السجف : بالفتح والكسر الستر الرقيق المشقوق الوسط ـ الكِلّة بالكسر ستر رقيق يتوقى به من الهوام كالناموسية وصوفة حمراء في رأس الهودج ـ آجُر : معرب اللَّبِن إذا طبخ ـ يشاد : يطلى والقَرْمَد الخزف المطبوخ ـ النصيف الخِمار تغطى به المرأة رأسها ـ المخضّب الرَّخْص : الأصابع المخضوبة بالحناء الناعمه الطرية البنان وأطراف الأصابع والعَنَم ثمر دقيق مستطيل أحمر يشبه أطراف الأصابع وتشبه به .

٢ ـ الشعر والشعراء ص ٦٧ .

كدحتُ بأَظْفَارى وأَعملتُ معولـــى ... فصادفت جلمودا من الصخر أملســـا
تشاغل لما جئت فى وجه حاجتـى ... وأطرق حتى قلتُ قد مات أو عســـى
وأجمعت أن أنعاه حيـن رأيتـه ... يفوق فُواق الموت حتى تنفّســـا
فقلت له لا بأس لست بعائـــد ... فأفلح يعلوه السمادير ملبســـا (١)

إنها صورة " كاريكاتورية " طريفة أبدعها خيال بارع وفن أصيـــل وشاعرية موهوبة وشاعر فحل هو أبو مليكة جَرْول بن أوس الملقب بالحطيئـــة راوية زهير بن أبى سُلمى وتلميذه المقتدى به فى مذهب التجويد والصقـــل والروية والأناة والإتقان والإبداع ، ومن هنا كان شعره قوى الديباجة ، مستوى الصفحة ، مشرق البيان ، سلس الأسلوب ، رائع اللفظ ، سهل العبـــارة قريب المأخذ ، دقيق الوصف ، ساحرا أخّاذا فى تعبيره وتصويره ، بديعـــا فى معانيه ، لاذعا فى سخريته ، متينا فى أدائه ، موهوبا فى فنه بكل المقاييس.

وقد أوردت له فى فصل سابق وصفا قصصيا تصويريا هو أدخل فى بـاب القصة الشعرية بما ساقه من أحداث ، وصاغه من مواقف ، وأجراه من حوار ، وأثاره من أزمة ، وارتآه من حل ، وبرع فيه من حبكة ونمّقه من فكر وأبدع فيـــه من سحر البيان .... ارجع إذا شئت إلى هذه القصة الشعرية التى يصـف فيها أعرابيا بائسا ألمّ به ضيف ولم يجد ما يقدمه إليه حتى عرض ابنه عليـــه أن يذبحه وييسر للضيف طعامه لكن الله منّ عليه بسرب من حمر الوحـــش اصطاد منها نحوصا ذات جحش سمينة أشبع منها ضيفه وأشبع عياله وأحس الأعرابى وأفراد أسرته أنهم قاموا بحق الضيافة وما غرموا غرما وقد غنمـــوا غنما .

---

١ ــ الفواق : الذى يأخذ المحتضر عند الموت ــ السمادير : ضعف البصر أو شىء يتراءى للإنسان من ضعف بصره عن السكر وغشى الدوار والنعاس .

ثالثا : فى الحماسة والفخر :

لعل الحماسة لم تجد طريقها إلى الأدب إلا بعد أحقاب طوال حين وجد الفرسان الأبطال الذين يتحدثون عن بطولاتهم وأمجادهم وخصالهم حديثا فنيا يجمع إلى جمال الفكرة وروعة الصورة جمال الإيقاع وروعة الأداء ... ومن هنا نشأ أدب الحماسة الذى اتخذت به هذه الكلمة مدلولها الفنى وكان لها منه تراث خصب حفلت به الآداب الأجنبية وحفل به الأدب العربى على مدى عصوره وبخاصة العصر الجاهلى الذى يطلق عليه بعض مؤرخى الأدب أنه عصر الحماسة الذهبى فقد فرضت ظروف الحياة العربية على الشعراء الجاهليين أن يكون فن الحماسة هو الفن الذى يدور حوله أكثر شعرهم فقد سعرتهم الحروب المتوالية وحرمتهم نعمة الأمن والطمأنينه والسلام وأمدها الشعراء بوقود لا ينفذ من التغنى بالبطولة والشجاعة والجرأة والاندفاع نحو الموت بلا خوف ولا وجل وكأنهم يجدون المتعة والهناءة فى العيش تحت ظلال السيوف وشوابك الرماح ..... وطبيعة العربى وعقليته تساعد على هذا الصراع فهو يهتاج إذا استثير فى عرضه وكرامته وكبريائه أو أحس بعدوان عليه واذا اهتاج العربى بادر إلى سيفه وانتضاه واحتكم إليه حتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة (١) .

ولم تكن الحماسة مجرد تعبير عن النفس أو تسجيل لحدث أو تَرْداد لأنشودة وانما كانت مادة حياة تفاعلت معها فتأثرت بها وأثرت فيها وألهبتها المعارك فزادت من حرارتها ووقدتها وكان الشعراء يتنقلون من سوق إلى سوق ومن ماء إلى ماء ينشدون أهازيجها على أوتار العصبية فيؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل . (٢)

---

١ ـ فجر الإسلام لأحمد أمين ص٤٦ الطبعة الثانية
٢ ـ تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص١٧

والحماسة تحمل فى مدلولها اللغوى معانى الشجاعة والشدة والصلابة وهى مصدر حمس بمعنى اشتد وقوى والأحمس هو الشجاع الجرئ ويقال حمس الرجل اذا اشتد وصلب فى الدين والقتال ٠

والحماسة فى الشعر التغنى بصفات البطولة والشجاعة والشهامة ، والمروءة والنجدة والاستهانة بالصعاب وخوض غمار الحروب وذم الجبن والخور والضعف والتحذير من الفرار وتولية الأدبار ٠ أما الفخر فهو تمدح المرء بكرم الخلال وطيب الشمائل وتعداد المآثر وما يشتمل عليه من الفضائل والمحامد ٠ والصلة بين الحماسة والفخر وثيقة فالمفاخر غالبا ما تدور حول معانى الفروسية والبطولة والشجاعة والإقدام والحمية والأنفة والعزة وإباء الضيم والاستهانة بالموت وتوعد الأعداء ٠٠٠٠ والبطولة التى ارتبطت بها الحماسة وارتكز عليها الفخر كانت بطولة مادية حسية ترتبط بالحرب والسيف والقتال وبطولة نفسية تتمثل فى احتمال الشدائد والحلم و الحزم والأنفة والعزة وبطولة خلقية تقوم على صيانة الشرف والعرض والجود والكرم والوفاء بالعهد وحماية الجار وبذلك تعانقت من قديم بطولة السيف مع بطولة النفس والخلق والطموح إلى المثل الرفيعة (١) ٠

وكما ارتبطت الحماسة بعقلية العربى وطبيعته ارتبطت كذلك ببيئته البدوية ارتباطا وثيقا فالصحراء مجدبة لا يجرى فيها نهر ولا تجودها السماء بغير دفعات من الغيث تنزل متفرقة هنا وهناك فتنبت عليها المراعى التى يرتادها البدو بإبلهم وأغنامهم وخيامهم ٠٠ وقد تمسك السماء فيربد وجه الأرض ويهلك الزرع والضرع ويشتد الجوع بالناس فيدفعهم إلى أن يتخطف بعضهم بعضا وأن يشن بعضهم الغارة على بعض ليستلب ما يستطيع أن يستلب ويستبى من يتمكن من استبائه وقد انضم إلى ذلك حب الغلبة والرغبة فى السيطرة والاستعلاء والاستكثار من أسباب السيادة والشرف فتحولت جزيرة العرب إلى ساحات غارات وحروب لا تنقطع إلا ريثما تبدأ من جديد ٠

---

١ ـ البطولة فى الشعر العربى لشوقى ضيف ص٧ ٠

إن طبيعة العربى وعقليته وبيئته البدوية التى يعيش فيها تكاد تحدد الملامح العامة للفروسية العربية وبطولتها ومالها من قيم ومثل فهناك الشجاعة والبأس والجلد واقتحام المهالك والحمية وإباء الضيم وعزة النفس والتناصر بالعصبية للقبيلة والأهل والعشيرة والوفاء بالعهد والحفاظ على شرف الكلمة والانحياز إلى جانب السماحة والمروءة والنجدة والكرم والبذل والسخاء والغيرة على العرض والذياد عن الحمى والتواصى بالصبر والثبات واحتمال البأساء ونبذ أسباب الخنوع والضعف والاستكانة ... وبهذه الملامح والصفات أصبح للفروسية العربية دستورها ومنهجها وأسلوبها وبالتالى أصبح للحماسة دروبها وأنماطها وأشكالها المرتبطة بصور الفروسية والبطولة ومثلها الرفيعة واتجاهاتها المختلفة ..... فهناك مثالية البطولة العربية فى افقها الرحب ونزعتها القومية تمثلها . ومثلها الرفيعة ونزعتها القومية تمثلها وقعه (ذى قار) بين العرب والفرس ويصورها شعرا حماسيا نابضا بالفخر والاعتزاز الاعشى ميمون بن قيس : (٢)

وجُند كِسرى غَداةَ الجِنْو صبَّحهم ... منَّا غَطَارِيفُ ترجو الموتَ وانصرفوا
لقوا مُلَمْلمةً شَهْباء يقدُمها ... للموتِ لا عاجزٌ فيها ولا خَرِف
فرعٌ نُمَتْه فروعٌ غيرُ ناقصة ... موفَّق حازم فى أمره أنِف
فيها فوارس محمودٌ لقاؤهم ... مثل الأسِنَّة لا ميلٌ ولا كُشُف
بيض الوجوه غداةَ الرَّوْع تحسبهم ... جنَّان عَيْن عليها البِيضُ والزُّغَف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ... ليعرفوا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقيةَ والهندىَّ يحصدهم ... ولا بقيةَ إلا السيف فانكشفوا
لو أن كلَّ معَدٍّ كان شاركنا ... فى يوم ذى قارَ ما أخطاهم الشَّرف
. . . . . .
لما أتونا كأنَّ الليلَ يقدُمهم ... مطبَّق الأرض تغشاها بهم سُدَف
بطارقٌ وبنو مَلْك مَرازبةٌ ... من الأعاجم فى آذانها النُّطَف
من كل مَرْجانةٍ فى البحر أحْرَزها ... تيَّارُها ووقاها طينَها الصَّدَف

---

١ ـ الأعشى أبو بصير ميمون بن قيس ينتمى إلى قبيلة بكر بن وائل وقد عاش فى أواخر العصر الجاهلى وهو من شعراء الجاهلية المعدودين ، ولشعره رنين وعذوبة ولذلك أطلق عليه " صنَّاجة العرب " .

وظَعْننا خلفَنا تجرى مدامعُهـــــا أكبادُها وجَلامها تـرى تَجِـــفُ
كأنما الآلُ فى حافات جمعهـــــمُ والبِيض برق بدا فى عارضٍ يَكِـــف

. . . . . .

لما أمالوا إلى النُّشّاب أيديَهـــم مِلْنا ببيض فظلّ الهام يُقْتطـــف
وخيلُ بكرٍ فما تنفكّ تطحنهـــم حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف (١)

يصور هذا النص بطولة العرب فى يوم من أيامهم الخالدة فى الجاهلية وهو يوم " ذى قار " فقد هجمت عليهم فارس بجيش كبير وكان الموقف ينذر بالخطر ولكنهم أحسوا قوميتهم وعروبتهم وسرعان ما ائتلفت القلوب وتوحدت الصفوف فانضمت قبائل بكر إلى أختها شيبان وتجمعت كلها فى جبهة واحدة للقاء العدو وساعدتها " إياد " فى اللحظات الحاسمة فكان النصر للعرب.

---

١ ــ الحِنْو : منحنى الوادى والمراد به حنو ذى قار ــ غطاريف جمع غطريف وهو السيد الشريف . مُلَمْلَمة شهباء : الكتيبة الملتئمة والتى يختلط فيها بياض السلاح بسواده .

الخرف : ضعيف العقل ــ لا ميل ولا كُشُف : الميل جمع أميل وهو من لا سيف معه والكشف جمع أكشف وهو من لا ترس له ــ غداة الرَّوْع أى عند لقاء العدو والروع الفزع ــ البيض : السيوف والزغف : الدروع ــ الهندى : السيف المنسوب إلى الهند ويقال له الهندوانى أيضا ــ مَعَدّ : عرب الشمال العدنانيون .

سُدَف : جمع سُدفة وهى الظلمة ــ البطارق : قواد جيش الفرس جمع بطريق المرازبة : رؤساء الفرس جمع مرزبان ــ النطف جمع نطفة بفتح الطاء وهى القرط أحرزها تيارها : حفظها وصانها ــ الظعن : النساء فى الهوادج جمع ظعينة ــ تجف : تضطرب ــ الآل : السراب ــ عارض يكف : سحاب يهطل مطره ــ النشاب : النبل ــ الهام : الرؤوس جمع هامة .

وقد بدأ الأعشى بوصف جموع العرب التى انبرت للقاء العدو وكلها تتمنى الموت فى سبيل الذود عن الأرض العرضى وتولى أمر هذه الجموع قائد قدير لم يقعد به العجز ولم يفسد تفكيره الكبر وانما هو قائد كريم العنصر أنجبته أصول عريقة ورث عنها أفضل الصفات فكان موفق الرأى حازم التدبير أبى النفس لا يرضى الذلة والهوان وتحت قيادته فرسان شجعان كرام الأحساب يتألقون وداعة ووقارا فى السلم فإذا كانت الحرب حسبتهم جنا مخيفة عليها الدروع والسيوف ... ودارت رحى الحرب وحميت المعركة وخلع أبطال العرب خوذهم ليعرف العدو الفارسى أنهم فرسان بكر وأن الانتصار عليهم بعيد المنال فيتخاذلوا وينصرفوا وارتاع الفرس حين رأوا أنفسهم أمام هؤلاء الفرسان ووجدوا السيوف تحصدهم حصدا فنادوا العرب أن يكفوا عنهم ويبقوا عليهم لكن السيوف العربية ظلت تحصدهم حتى أتت على معظمهم ولاذت البقية بالفرار . وكان النصر شرفا عظيما للعرب فى هذا اليوم الخالد المشهود ولو أن كل قبائل مُضَر شاركت فى هذه الحرب لنالت نصيبا كبيرا من هذا الشرف العظيم ... وانتقل الأعشى إلى وصف الجيش الفارسى فتحدث عن ضخامته ومن به من قواد ورؤساء وما أثار من رهبة فى قلوب الظعائن من النساء العربيات وما اشتمل عليه من أسلحة تلمع وسط الغبار الذى أثاره وعاد فصور ساعات المعركة الفاصلة وما ألحقه العرب بأعدائهم من هزيمة منكرة فى وقت لم يتجاوز نصف يوم وتأكيدا لروعة الموقف وجلال المشهد ومثوله فى القلب والخاطر .

ومن مظاهر الجمال والإبداع فى هذا النص التعبير عن حماسة العرب وشجاعتهم بقوله " ترجو الموت " بمعنى تتمناه ولا ترهبه فى سبيل الحفاظ على الكرامة والعزة وفى قوله " فرع نمته فروع غير ناقصة " تشبيه للقائد بفرع من شجرة طيبة تامة النمو مكتملة لاعوج فى فروعها ولا التواء ووجه الشبه بين القائد والفرع اكتمال كل منهما وهو تشبيه يصور فى قوة ووضوح كرم عنصر القائد وأثر الوراثة الطيبة فيه ـ كما نراه يشبه فرسان العرب بالأسنة وهى نصال الرماح ليصور مضاءهم وحزمهم فى حسم الأمور ، ومن الكنايات الشائعة فى العصر الجاهلى قوله : " بيض الوجوه " وقد عبر بها الشاعر عن شرفهم وكرم أحسابهم وهى كناية توحى بما فيهم من بهاء ووداعة ووقار حين يكونون خارج المعركة أما فى ساحة الحرب فإنهم يصبحون

خلقا آخر : وجوه عابسة ونظرات رهيبة وسرعة خاطفة فى الانقضاض على العدو ولهذا شبههم بجن عليها الدروع ومعها السيوف وهو تشبيه يبين مدى رهبتهم وما يثيرون من الرعب فى قلوب الأعداء ، ومن الكنايات البليغة التى تعطى المعنى فى صورة مجسمة وتؤيده بالدليل الحسى قوله " كشفنا عن جماجمنا " كناية عن الشجاعة والثقة بالنفس والاستهانة بالعدو وفى قوله " والهندى يحصدهم " استعارة بالكناية تخيل لك أن الأعداء يتساقطون صرعى تحت ضربات السيوف كما تميل الزروع تحت ضربات المناجل ، وفى قوله " لو أن كل معد كان شاركنا .... " عتاب رقيق لكل من لم يشارك فى هذه المعركة من العرب ، وفى تعبيره بقوله : كأن الليل يقدمهم " تصوير لضخامة هذا الجيش الفارسى وكثرة عدده حتى لكأن الغبار المثار قد حوّل النهار الى ليل ، كذلك عبر الشاعر عن صفاء اللآلىء بأن التيار قد سار بها إلى مكان آمن فى البحر فصانها كما وقتها أصدافها من أن يتسرب إليها الطين وهذه كناية تعبر عن الصفاء فى صورة حسية بارعة مصحوبة بالدليل وقد شبه الشاعر صورة السراب الذى يلمع فى حافات الغبار كأنه الماء والسيوف تتلألأ فى جنباته بصورة البروق تضىء خلال سحاب متراكم تهطل أمطاره وفى هذا التشبيه ما يوحى بكثرة جنود الجيش وسلاحه ، ووصف الأعشى لضخامه هذا الجيش الفارسى وقيادة كبار الفرس له ينبىء عن عظمة هذا الانتصار الذى حققه العرب بلا جدال ... وفى قوله " فظل الهام يقتطف " استعارة مكنية جميلة تخيل لك الرؤوس ثمارا تقتطف وتصور لك سهولة تطايرها ونظر فرسان العرب إليها على انها فاكهة تجنى وليست رؤوسا تتطاير وفى هذا تصوير نفسى دقيق لنشوة النصر ، ولفظة "ظل " فى هذا البيت " وما تنفك " فى البيت بعده تدلان على استمرار تساقط الرؤوس وطحن الأجساد وفى ذلك تصوير لقوة العرب وبراعتهم فى القتال وبخاصة أن المعركة لم تكلفهم أكثر من نصف يوم . وفى الطحن إيحاء بالغ بهول ما أصابهم فى هذه المعركة ، والربط بين الشرط والجواب فى قوله " لما أمالوا ... ملنا " تصوير لأقصى غاية اليقظة من جانب الفرسان العرب وقد عرض الشاعر فى نصه بعض مظاهر الحياة العربية والفارسية فى الحرب كالنساء اللاتى كن يقفن وراء الأبطال العرب فى المعركة لإثارتهم وتشجيعهم وحثهم على الثبات والاستبسال ، ورؤساء

الفرس الذين كانوا يلبسون الأقراط فى آذانهم وأنواع الأسلحة التى كانت تستخدم والخيول التى كانت تعد للحرب والملابس التى كان يلبسها الفرسان من دروع وخوذ . وفى القصيدة ما يدل على معرفة الاعشى بالبحر والأصداف والمرجان والتيار ومعرفته بالفرس ومراتبهم من البطارقة والمرازبة . ولا عجب فالأعشى ينتمى إلى قبيلة بكر التى كانت تعيش على مقربة من البحر كما أنه طوف كثيرا بأنحاء الجزيرة وخارجها . وفى القصيدة تتجلى مثالية البطولة فى إطار أوسع وأفق أرحب من التعاطف مع الجنس والإحساس بالقومية العربية وأن على الأمة العربية اليوم أن تعى هذه الحقيقة جيدا وهى أن العرب كلما تلاقوا واتحدوا ظفروا وانتصروا ... ومعنى هذا أن الشعر الجاهلى كان له توجيهه وتأثيره الإيجابى فى الحياة الجاهلية وما يكتنفها من مشكلات وما يجرى فيها من أحداث وأنه بذلك يعد الأساس المتين لتراثنا العربى التليد .

وهذه قصيدة من أجود شعر لقيط بن يعمر الإيادى يحذر فيها قومه "إياد" ويحثهم على التجمع والاستعداد لملاقاة جيوش كسرى التى تتربص بهم :

أبلغ إيادا وخلّل فى سراتهم ... إنى أرى الرأى إن لم أعصُ قد نصعا
يالهف نفسى إن كانت أموركمُ ... شتّى وأحكم أمرُ الناس فاجتمعا
مالى أراكم نياما فى بُلَهْنِيَةٍ ... وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلى برأى منكمُ حصدٍ ... يصبحُ فؤادى له ريّان قد نقعا

. . . . . .

صُونوا جيادَكم واجلُو سيوفكم ... وجدّدوا للقِسِىّ النبلَ والشرعا
لا تثمروا المال للأعداء إنهم ... إن يَظهروا يحتووكم والتّلاد معا
ياقوم إن لكم من إرث أولكم ... مجدا قد أشفقت أن يفنى وينقطعا
ماذا يُردّ عليكم عزُّ أولكم ... إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
ياقوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُرا ... على نسائكم كسرى وما جمعا
هو الفناء الذى يجتثّ أصلكم ... فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا ؟
قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا قد ينال الأمنَ من فزعا
وقلّدوا أمركم لله دَرُّكُم ... رحبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخىّ العيش ساعده ... ولا إذا عضّ مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه ... همٌّ يكاد شباه يفصِم الضّلعا

ما انفك يحلب هذا الدهرَ أشطره ... يكون مُتَّبِعا طورًا ومُتَّبَعا
وليس يشغله مال يثمِّره ... عنكم ولا ولد يبغى له الرِّفَعا
. . . .
هذا كتابى إليكم والنذير لكم ... لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحى بلا دَخَلٍ ... فاستيقظوا إنَّ خيرَ العلم ما نفعا (١)

فأنت تراه يحث قومه على اليقظة والوعى والأخذ بأسباب الوحدة والتماسك والقوة والإجماع على رأى واحد وحسن الاستعداد وهو يحذرهم نتيجة التقاعس والغفلة وما ينتظرهم من الضياع وانقطاع الأمجاد والعدوان على الأعراض ليثير غيرتهم وحميتهم ثم انه يشير عليهم أن يختاروا لقيادتهم ويعهدوا بأمورهم إلى قائد بطل واسع المقدرة خبير بشئون الحرب لا يركن إلى ترف أو نعيم ولا ينهار إذا أصابه مكروه أو نزلت به النوائب ولا ينام ولا يغفل عن شواغل قومه وهمومهم قد حنكته التجارب وعرف حلو الحياة ومرها وليس لديه ما يشغله عنكم من مال أو ولد ...

---

١ ـ دخلل فى سراتهم : خص الأشراف منهم ـ شتى : متفرقة ـ البُلَّهْنِيَة : رخاء العيش الذى يحمل على الغفلة عن احداث الدهر ـ الغليل : شدة الظمأ وحرارة الجوف ـ حَصِد : رأى محكم سديد ـ نقع : ارتوى وزالت حرارته ـ القسى : جمع قوس ـ الشرعا : الأوتار جمع شرعة ـ يظهروا : ينتصروا ـ التلاد : ما ولد عندك من مالك أو نتج ـ يجتث أصلكم : يبيدكم ويستأصلكم ـ افزعوا : هبوا للقتال واستعدوا له ـ قلدوا أمركم : اعهدوا به لله دركم : تعبير يدل على الإعجاب ـ رحب الذراع : واسع المقدرة مضطلعا : قادرا على النهوض بأعباء الحرب ـ المترف من أفسده النعيم خشع : خضع وذل ـ الشبا : جمع شباه حد السيف ومن كل شىء حده ومعنى يفصم : يقطع والمعنى أن هذا الأمر الذى أهمَّه قد شقَّ عليه حتى كاد يمزق أضلاعه ـ حلب أشطر الدهر : جربه وذاق حلوه ومره بمعنى حنكته تجارب الدهر ـ الرفعا : الشرف وعلو المنزلة .

وفى الأبيات شواهد إبداع تتمثل فى قوة الأفكار وصدق المعانى وسمو الغاية وجلال الهدف وعمق العاطفة وأصالة الرأى ومتانة الأداء وجمال التصوير وبراعة الاستثارة والنزعة الموضوعية الإيجابية فى مواجهة المواقف والأحداث وهناك المثالية البطولية للفارس المكافح المعتد بنفسه يمثلها أصدق تمثيل عنترة بن شداد العبسى الذى ورث السواد عن أمه الحبشية " زبيبة " وأنف أبوشدّاد أول الأمر أن يعترف ببنوته وألحقه بعبيده وكان عنترة يحب ابنة عمه .. عبلة بنت مالك " وهو يعلم أن الظفر بها بعيد المرام طالما ظل عبدا فى نظر قومه وخاض كفاحا عنيفا ونضالا عنيدا وأبدى ضروبا من الفروسية والبطولة مكنته من انتزاع حريته والظفر بمحبوبته يقول عنترة :

أَثْنِى عليَّ بما علمتِ فإننى ... سمح مخالقتى إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلمت فإنَّ ظُلمِىَ باسلٌ ... مرٌّ مذاقته كطعم العَلْقَمِ
ولقد شربت من المُدَامة بعدما ... ركد الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
فإذا سكِرْتُ فإننى مستهلك ... مالى وعرضى وافر لم يُكْلَمِ
وإذا صحوت فما أُقصِّر عن ندًى ... وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمِى
....
هلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمى
إذ لا أزال على رَحَالةِ سابح ... نَهْدٍ تعاوره الكُماةُ مكلَّمِ
طوْرا يُعرَّض للطعان وتارة ... يأوِى إلى حَصِدِ القِسِىِّ عَرَمْرَمِ
يخبرْكِ من شهد الوقائع أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنمِ
ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى ... إذ تَقْلِص الشفتان عن وضح الفمِ
فى حومة الحرب التى لا تشتكى ... غمراتِها الأبطالُ غير تَغَمْغُمِ
لما رأيت القومَ أقبل جمعهم ... يتذامرون كررتُ غيرَ مُذَمَّمِ
يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئرٍ فى لبان الأدهمِ
ما زلت أرميهم بثُغرة نحْرِه ... ولَبانِه حتى تسربل بالدمِ
فازورَّ من وَقْع القَنا بلبانه ... وشكا إلىَّ بعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ
لو كان يدرى ما المحاورةُ اشتكى ... ولكان لو علِم الكلامَ مُكلِّمِى

ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقْمَهَـــا قيلُ الفوارس ويـــك عنتـرَ أقدم (١)

هكذا يصور عنترة فى قصيدته بطولة الفارس المكافح الذى شق طريقـــه بين الصخر بصلابته وشجاعته وطموحه ونبل نفسه فهو يتجه إلى عبلة يناشدهـــا أن تعطف عليه ببعض الثناء والتقدير وهى تعلم من أمره الكثير الذى يستحق الثناء فهو سمح المعاشرة إذا لم يُظلم ، عفيف عنيد لا يطاق إذا ظُلِـــم ينتشى بالخمر يشربها فى هدأة الظهيرة بقدح مجلو منقوش فيجود بماله ويسخو لكنه لا يفرط فى عرضه وكرامته فإذا عاد إلى صحوه ليندم على ما بذل من مال ولم يقصر فى كرم وأخلاقه وصفاته الطيبة تعرفها عبلة تمام المعرفة .

١ــ سمح مخالقتى : سهل مخالطتى ومعاشرتى ــ ظلمى باسل : الباسل هنا بمعنى الكريه ، العلقم : الحنظل وكل شىء اشتدت مرارته ــ الهواجر : أشد أوقات النهار حرا والمراد بركود الهواجر سكون الناس فيها ــ المشـــوف : المجلو ــ المعلم : المنقوش والمشوف المعلم القدح الذى يشرب به الخمـــر ــ عرضى وافر : تام سليم ــ لم يكلم : لم يجرح ــ شمائلى : أخلاقى الطيبـــة وصفاتى الكريمة ــ الرَّحَالة : سرج يتخذ من جلود الغنم وأصوافها للجـــرى الشديد لا حاجز له من الأمام ولا من الخلف ، السابح : الفرس السريـــع السهل السير ــ النهد : المرتفع ــ تعاوره : تتناوبه بالطعن ــ الكماة : جمع كمى وهو الفارس التام السلاح ــ الحصد من القسى الذى أحكم فتـــل أوتاره وربطها ــ العرمرم : الكثير والمراد أنه فرس مهيأ للمعارك ــ أغشى الوغى : أدخل الحرب وأباشر القتال ــ وأعف عند المغنم : اتأخر واتخلـف عند توزيع الغنائم ــ تقلص الشفتان ــ تقصر وترتفع ــ وضح الفم : الأسنـــان يعبر عن ثباته فى المعركة حين تتقلص شفاه الأبطال فزعا منها ــ حومة الحرب : ساحتها ــ غمراتها : شدائدها ــ التغمغم : الصوت يسمع ولا يفهم ــ القوم المراد الأعداء ــ يتذامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال ــ غيـــر مذمم : غير مذموم ــ الأشطان : الحبال ومفردها شطن ــ واللبان : الصدر ــ الأدهم : فرسه ــ تسربل بالدم : تغطى به كأنه ثوب ــ ازور : مـــال واعرض ــ العَبْرة : تردد البكاء فى الصدر قبل نزول الدمع ــ التحمحم : صوت الفرس فى حنين ــ ويك للتعجب .

ويتحدث عنترة عن فروسيته وخوضه المعارك غير هياب ولا وجل يعرض فرسه لطعنات الرماح وضربات السيوف ولا يبالى والكل يعرف أنه يلقى بنفسه فى غمار الوغى لا يحسب للموت حسابا فاذا كان المغنم أعرض عنه ولم يتهافت عليه ومما أراح نفسه وأرضاها تعلق فرسان قومه به وتطلعهم إليه فى المأزق الحرج هاتفين به أن يقدم ليحقق أملهم فى النصر ، ثم انه يعرض صورة من نضاله حين يندفع أبطال طيىء نحو عبس يحض بعضهم بعضا على القتال فتصرخ فى عروقه حينئذ غيرته على نساء قبيلته ومحارمها وشرفها ويلقى بنفسه وجواده فى خضم المعركة - لا يبالى بما يواجهه من موت ولا بما أصاب فرسه من جراح ونزف من دماء حتى كاد ينطق بالشكوى ويجار بما يحتمله من عذاب إنها صورة رائعة للبطولة والفروسية فى الجاهلية وهى ليست فروسية الجسم والسيف والحرب وحدها وإنما هى أيضا فروسية الخُلُق والنفس وحسبك ما يردده عن سماحة المعاشرة وعن شمائله وصفاته الطيبة وجوده وكرمه وعفته عن الأسلاب والمغانم وعن إنسانيته التى تظهر فى حنوه على جواده وإحساسه بخلجاته وتعاليه على آلام نفسه فى سبيل نصرة قبيلته مع ظلمها له وجحودها حقه فى الحرية والحياة الكريمة لا لشىء إلا لأنه أسود وهكذا نرى مسحة الأسى على أبياته تشيعها روح لهيفة وتبعثها مرارة نفس حزينة - لكنها اللهفة والمرارة التى تدفع صاحبها دفعا إلى أشرف الغايات وأنبل المقاصد وخلق الفارس يغلب على عنترة حتى فى حبه فأنت تراه نبيلا فى مشاعره وأحاسيسه نبيلا فى دوافعه وأسبابه التى يتقرب بها إلى محبوبته نبيلا فى ألفاظه وعباراته لا يخدش حياء ولا يؤذى شعورا ولا يجرح كبرياء نبيلا فى اعتداده بنفسه وارتفاعه بها عن الصغار والهوان .... هذه هى فروسية عنترة التى تحولت إلى أسطورة من أشهر الأساطير العربية الشعبية على مر الزمان والتى استرعت أنظار الصليبيين فيما بعد فاتخذوا منها مثالا لفروسيتهم وما انطوى فيها من حب عفيف (١)

---

١ - شوقى ضيف " فى العصر الجاهلى " نقلا عن (قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع الفصل الخامس الخاص بالفروسية ص٤٤٦ وما بعدها .

ومن شواهد الإبداع في هذه الأبيات ما تمثله من " ذاتية " متميزة بخصائصها وسماتها فهي نابعة من أعماق الشعور والإحساس وهي بكل ما تحمله من المعاني والأفكار وضروب التصوير تعد تعبيرا عن أدق خلجات النفس ونبض القلب وفيض الخاطر وصفو الوجدان وسلامة الطبع ونقاء الفطرة وقوة الروح وسمو الشخصية في نبلها وعزتها وإبائها أضف الى ذلك ما تتسم به من صدق العاطفة وسلامة المبنى وجلال المعنى وجمال الصياغة وسلاسة الأسلوب وعذوبة الإيقاع وإيحاء الألفاظ وتعبيرها عن معانيها أدق تعبير وملاءمتها لمواقفها أحسن ملاءمة ... ومن أروع ما تضمنته القصيدة هذه الصورة الممتدة الرائعة لحصانه النهد الأصيل وهو ينطلق ويندفع بفارسه وسط الحشود المعادية محتملا أشد احتمال طعنات الرماح وضربات السيوف ووخزات الأسنة وهو يتقدم ويعلو وينحدر ويزور ويميل ويثب ويصهل ويحمحم ويتحرك في كل اتجاه والدماء تتدفق منه بغزارة وفارسه المغوار لا يكل ولا يبالي ولا يهدأ فهذه لوحة فنية متكاملة بما فيها من عناصر حركية ولونية وصوتية وقدرة تصويرية وبراعة أسلوبية وطاقة إبداعية وحاسة واعية مرهفة كان لها الفضل في إخراج هذا المشهد المثير .

وهناك المثالية البطولية للفارس المغامر الشريد الهائم على وجهه في الصحراء لا يخضع لقيود قبيلة ولا يرتبط بأهل أو عشيرة ويحتال لانتزاع أسباب عيشه انتزاعا يعتمد على القوة وروح المغامرة والجرأة وما يجده من عون من رفاقه الفرسان الصعاليك الذين تربط بينهم الصعلكة برباط وثيق متين ، وتصور المثالية البطولية للفرسان الصعاليك هذه القطعة لتأبّط شرا ثابت بن جابر بن سفيان أحد الفرسان الفاتكين العدّائين المعدودين في أغربة العرب إذ كان ابن أمة حبشية سوداء (١)

إني لمُهْد من ثنائي فقاصد ... به لابن عمّ الصّدق شمس بن مالك
أهزُّ به في ندوة الحي عِطْفَه ... كما هزّ عطفي بالهجان الاوارك
. . . . . .
قليلُ التّشكي للمُهمّ يصيبه ... كثيرُ الهوى ، شتّى النّوى والمسالك

---

١ ـ الأغاني جـ ١٨ ص ٢٠٩ ، الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٧١ .

يظل بمَوْماةٍ ويُمسي بغيرها ... جَحيشا ويعْرَوْرِى ظُهورَ المهالك
ويسبق وفدَ الريح من حيث ينتحى ... بمُنْخَرق من شدة المتدارك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... الى سِلْه من حد أخلق صائك
إذا هزَّه في عظْمِ قِرْن تهلّلت ... نواجذُ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشةَ الأُنسَ الأنيسَ ويهتدى ... بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوابك (١)

إن الشاعر يفخر بابن عمه الفارس المغامر الصعلوك إذ وجد فيه ابن عم الصدق الذى اكتملت فيه الصفات المرجوة فى مثله واهتزت نفسه فرحا بما أسدى إليه من إبل كريمة فرأى أن يرد إليه جميله ثناء ينشده فى ندوة الحى فيملأ قلبه رضاء وابتهاجا ...

ويأخذ الشاعر فى تصوير شخصية ابن عمه التى يراها نموذجا كما ينبغى أن يكون عليه الفارس الصعلوك فهو فارس جلد قلما تنفرج شفتاه بشكوى طموح كثير المآرب ، له إلى مآربه مسالك ووسائل شتى لا يستقر بمكان فقد يأتى عليه الضحى بمفازة ويدركه المساء وهو فى غيرها لا يهاب المخاطر ولا يبالى

---

١ ــ ابن عم الصدق : الذى اكتملت فيه الصفات المرجوة فى ابن العم ــ أهز به عطفه أسره به والعِطْف الجانب ــ ندوة الحى : مجتمع الحى ــ الهجان الإبل الكريمة ــ الأوارك : التى ترعى شجر الأراك كثير الهوى : بعيد الهمة واسع الأمل ــ شتى النوّى : كثير التحول من مكان إلى مكان ــ المومــاة : المفازة التى لا ماء فيها ــ جحيشا : وحيدا ــ يَعْرَوْرَى ظهور المهالك يركب المخاطر وفد الريح : أولها ــ المنخرق : السريع ــ المتدارك : المتلاحق اى بعد وه السريع المتصل ربيئة قلبه : دليد بانه ورقيبه ــ اخلق : املس ــ صائك : شديد والمعنى أنه إذا صحا كانت عيناه الرقيب الذى يدفع إلى سلة السيف القاتل ــ القِرْن : المماثل فى الشجاعة النواجذ : أقصى الأضراس ــ الوحشة : الانفراد ــ أم النجوم الشمس ــ الشوابك : المشتبكة .

بها وهو يمضى فى فجاج الصحراء وحيدا ، وهو عداء لا تباريه الريح لأنه يسبقها فى أى اتجاه بعدوه المتلاحق وهو يقظ لا تنام عيناه وإنما هواديد بان قلبه وحارسه الأمين تنقلان إليه ماتريانه ..... فإذا هجس هاجس بخطر بادر فاستل سيفه الصارم البتّار الذى تتهلل لضرباته المنايا ضاحكة مغتبطة لما هيأ لها من أسباب الفتك والافتراس وقد ألِف الوحدة واطمأن إليها حتى صار يرى فيها أنس نفسه ومتعة قلبه ، كما أنه خبر الصحراء وعرف شِعابها فهو يهتدى فى مسالكها إلى مقاصده كما تهتدى الشمس فى مسارها إلى غايتها .

ومن شواهد الإبداع فى هذه الأبيات ما تراه فيها من فيض العاطفة وصفاء الفطرة وصدق التعبير ووضوح القصد والغاية وبراعة الصورة وما يضفيه عليها الشاعر من مظاهر الحياة والحركة وما يشيعه فيها من أجواء البيئة وما يضيفه اليها من جمال النغم ووحدة الإيقاع ودقة التوازن " كثير الهوى ، شتّى النوَى " " يظل بمَوْماة ويُمسى بغيرها "

والنص فى لفظه وعبارته وصوره تعبير صادق ورسم واضح ماثل لشخصية الفارس المغامر فى الصحراء الممتدة المترامية بأهوالها وقسوتها ووحشتها وما ينبغى أن يتصف به من شجاعة وجرأة واقتدار وخبرة وسعة حيلة وصبر وقوة احتمال وقهر لأسباب الخوف والاستيحاش وبراعة فى استخدام السلاح .

ومن الكنايات الجميلة القوية المعبرة قوله " ابن عم الصدق " بما يجتمع فيها من الخلال الكريمة التى ينشدها الشاعر فى ابن عمه " وهز العِطْف " كناية عما يغمر النفس من سرور وطرب يهز عِطْف صاحبه هزًّا " أم النجوم الشوابك " كناية عن الشمس وواضح انها تسير بحسبان وقدر وأنها لا تضل ابدا طريقها ... وفى قوله " يَعْرُورى ظهورَ المهالك " و " تهللت نواجذ أفواه المنايا " استعارتان مكنيتان : الأولى تصور المهالك دواب مسخرة يمتطيها هذا الفارس الفاتك عارية الظهور ثقة بنفسه واستهانة بالأخطار والثانية تصور لك المنايا ضاحكة متهللة حتى تبدو نواجذها ثقة منها بضربة شمس بن مالك التى لا تخيب أبدا ولا تخطئ مقصدها وغايتها .

وهناك مثالية الفروسية القبلية والفخر بأمجادها وأيامها ومما يصور هذه المثالية أدق تصوير ما جاء فى معلقة عمرو بن كلثوم :

وقد علِم القبائلُ من مَعَدٍّ ... إذا قُبَب بأبطحها بُنينا
بأنّا المُطعِمون إذا قدرنا ... وأنا المُهْلِكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا ... وأنا النازِلون بحيث شينا
وأنا التّاركون إذا سخطنا ... وأنا الآخذون إذا رضينا
وأنا العاصمون إذا أُطِعْنا ... وأنا العازمون إذا عُصِينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدِرا وطينا
اذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفا ... أبينا أن نُقِرّ الذل فينا
ملأنا البرّ حتى ضاق عنا ... ونحنُ البحرَ نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيعُ لنا فطاما ... تحر له الجَبابرُ ساجدينا (١)

وما ينسب إلى المرقّش الأكبر عمرو بن سعد أو إلى بشامة بن حزن النَّهْشَلى :

إنّا مُحَيُّوكِ ياسلمى فحيينا ... وإن سقيتِ كرامَ الناس فاسقينا
وان دعوتِ إلى جُلّى ومكرُمة ... يوما سَراة كرام الناس فادعينا
إنا بنى نهشل لا ندّعى لأب ... عنه ولا هو بالآباء يَشْرينا
إنْ تُبتدر غايةٌ يوما لمكرمة ... تلق السّوابقَ منا والمُصَلّينا
وليس يَهلِك منا سيدٌ أبدا ... إلّا افتلينا غلاما سيّدا فينا
إنّا لنُرْخص يومَ الرَّوْع أنفسَنا ... ولو نُسام بها فى الأمن أغلينا
شُعْثُ مفارقنا تغلى مراجلنا ... نأسو بأموالنا آثار أيدينا
لو كان فى الألف منا واحد فدَعَوْا ... من فارسٌ خالهم إيّاه يعنونا
إذا الكُماةُ تنحّوا أنْ يُصيبهمُ ... حدُّ الظبات وصلناها بأيدينا
ولا تراهم وان جلّت مصيبتهم ... مع البكاة على من مات يبكونا

---

١ ـ نعصم ونمنع من العدوان إذا أُطعنا ونعزم بالعدوان إذا عُصِينا ـ سام الناس خسفا : أذلهم.

ونركب الكُره أحيانا فيُفْرِجُـه عنا الحِفاظُ وأسياف تُواتينـا (١)

وفى هذه الأبيات نرى شخصية الفرد قد ذابت فى قبيلته أو قـل إنه قد ركز كل ما تحمله القبيلة من معان فى شخصيته التى أصبحت شخصيـة قبيلة بأسرها فتحول بفخره إليها وإلى محامدها فنراه يغلو فى إطرائهـا ويبالغ فى التعبير عن أمجادها فقومه هم أسبق الناس إلى المآثر وكـل غلام لهم يصلح سيدا والواحد منهم لو كان فى ألف لاعتبر نفسه الفارس المرموق وحده .... أما عن العاطفة والخيال والتصوير والمعانى والأفكار وجمـال الصياغة وسلاسة الأسلوب وعذوبة الموسيقى فإنى أدع القارئ الكريـم يرتادها بنفسه ويتلمسها بإحساسه ووجدانه وله فيما قدمته ما يعينه فى تلمسه وارتياده .

وعلى ضوء النماذج السابقة يمكن القول بأن للحماسة ما يميزها مـن ناحية المضمـون .. أما من ناحية الشكل فإنها تأتى فى صـورة مقطوعات تدور كل منها حول مفخرة أو مفاخر يتغنى بها الشاعر ، وربمـا تخللت الحماسة المعلقات والقصائد الطوال وربما سادت الحماسة هـذه المطولات .... ومن سماتها الشكلية كذلك متانة الأداء وإحكام الصياغة وقوة الجرس وفخامة الأساليب وجزالة الألفاظ مع ما يشوبها من مسحة الخشونـة وخاصة حين يشتد ارتباطها بالبادية وحياة الصحراء ... وللحماسة إيقاعها الموسيقى المتميز فهى بين أهازيج توقع على ركضات الخيول ووثبات الفرسان وحركات السيوف وطعنات الرماح ، وبحور طويلة تتسع للأنفاس المديـدة والانطلاق فى التعبير والاسترسال فى أداء المعانى وذلك فى المواقـف التى يكون لها خطرها وشأنها .

---

١ ـ تُبْتَدر غاية : يعجل إليها ـ السوابق جمع سابق ما يجىء من الخيـل فى الحلبة أولا والمصلى التالى للسابق ـ افتلينا : فطمنا من الرضاع أى نشـأ فينا بدله حالا ـ شعث مفارقنا : كناية عن خشونتهم وجدهم لاشتغالهـم بالحرب عن ترجيل الشعر وتمشيطه ـ تغلى مراجلنا : كناية عن الكرم الذى يجعلهم مستعدين دائما لقرى الضيفان ـ نأسو بأموالنا آثار أيدينـا : بمعنى أنهم يداوون بأموالهم ما جنت أيديهم من ترات فهم أهل ثراء واقتدار الكماة : جمع كَمِىّ وهو الفارس بسلاحه والظبات جمع ظُبة وهى حد السيف ـ الحِفاظ : الإباء والدفاع عن المحارم والمحافظة على الحسب .

أما من ناحية المضمون فقد استمدت الحماسة معانيها وصورها من البادية وطبيعة الحياة فيها وما تفرضه على أهلها من تقاليد وما تطبعهم به من صفات وشمائل وما تدفعهم اليه من شجاعة وإقدام وما تحشهم عليه من معانى الفروسية والبطولة والشهامة والنجدة والمروءة والوفاء دون تكلف للمغالاة أو إمعان فى المبالغة أو جنوح عن المعقول ... وكانت معانيهم قوية وافكارهم متدفقة تتسم بالصراحة والوضوح وتنأى عن الغموض والتعقيد والالتواء .. وكذلك كانت أخيلتهم قريبة ميسورة لا تصنُّع فيها ولا تعسف ولا جموح لأنها من وحى البادية وما تجود به من مشاهد ومرئيات ظاهرة للعيان ماثلة فى الخاطر والوجدان يغلب عليها نقاء الفطرة وصفاء الطبيعة وسرعة الاستيعاب وسهولة الإدراك .

وربما كان طبيعيا أن يعرض من المعانى والصور ما هو متشابه أو مكرور وذلك لتشابه المواقف وتكرار المشاهد وتماثل الرؤى وتلاقى الخواطر ..

رابعا : فى المديح

المدح الإشادة بفضائل الإنسان ومحامده والثناء عليه بخلاله الكريمة وخصاله العظيمة وأخلاقه النفسية كرجاحة العقل والشجاعة والعفة والعدل ومحاسنه الجسدية والشكلية كالجمال وبسطة الجسم وسمات الهيبة والوقار وما إلى ذلك.

ولم يكن يُقصد بالمديح فى أول الأمر مغنم أو استدرار هبة أو رغبة فى جائزة أو عطاء وإنما كان فى بدء أمره إحساسا بفضيلة أو شعورا بجميل صنيع أو إسداء يد أو نحو ذلك مما يدفع عامة الناس إلى الإشادة والتعبير عن الامتنان والتقدير ، فإذا كان الأمر مع شاعر انطلقت شاعريته بما يمليه عليه شعوره وإحساسه بكل الصدق والاعتزاز والتقدير ... وهذا هو المديح النقى الخالص الذى ليست وراءه غاية أو منفعة أو رغبة فى عطاء ... ومن دلائل هذا الصدق أنهم كانوا يتجهون بهذا المديح إلى قبيلة بأسرها أو عشيرة بذاتها يشيدون بما يجدون فيها من كريم الخصال وعظيم الخلال وشريف الفعال من شجاعة وكرم ومروءة ونجدة

وشهامة وعزة وإباء ونصرة للضعيف وحماية للجار ..... ويمثل ذلك ما قاله ابن دارة احد بنى عبدالله بن غطفان مشيدا بطيء وحمايته له :

جزَى اللهُ خيرا طيِّئاً من عَشِيرةٍ ... ومن صاحب تلقاهُمُ كلَّ مَجْمَعِ
هم خلطونى بالنفوس ودافعوا ... ورائى بركن ذى مناكب مِدْفَعِ
وقالوا : تعلَّم أنَّ مالكَ إنْ يُصَبْ ... نُفِدْك وان تُحبس نزُرْك ونَشفعِ (١)

ومن القبيلة والعشيرة انتقل المديح إلى أفراد بأعيانهم ذوى سيادة وحسب ومروءة ونجده وشهامة وحمية وفضل وكرم ممن تمتد مآثرهم وأفضالهم الى من حولهم فيتلقى الشعراء مكرماتهم بفيض من المديح والثناء اعترافا بحسن الصنيع وجميل اليد وشرف الفعل ومن ذلك ما قاله " المُثَقِّب العبدى " فى مدح خالد بن انمار الذى عمل على فك إسار شاس ابن أخت المثقب :

إنَّما جاد بِشَأْسٍ خالدٌ ... بعد ما حاقت به إحدى الظُّلَمْ
من منايا يتخاسَيْنَ به ... يَبْتَدِرن الشخص من لحم ودم
مُتْرِع الجَفنة رِبْعىُّ الندَى ... حَسَنٌ مجلسُه غير لُطَمْ
يجعل الهِنء عطايا جمَّةً ... إن بعض المال فى العِرْض أَمَمْ
لا يبالى طيِّب النفس به ... تلفَ المال إذا العِرْض سَلِمْ (٢)

---

١ ـ الكامل للمبرد جـ١ ص٤٧ ط القاهرة ١٣٥٥هـ .
٢ ـ المفضليات ص٢٩٤ قصيدة رقم ٧٧ ط السادسة دار المعارف ـ شأس هو شاس بن نهار المعروف بالمزق العبدى ـ حاقت به : حلت به ـ يتخاسين به : يأتينه واحدة بعد واحدة كأنها تتقاذفه من لحم ودم : يأخذن أخص أهلى وأنفسهم عندى ـ المتزع : الملآن ـ الجفنة : القدر ـ ربعى الندى : بمعنى أن نداه مبكر ـ لطم : ليس بسيفه او ان مجلسه ليس بمجلس سفه ـ الهنء : العطاء والهبة ـ الأمم : القصد .

ولم يتح لفن المديح ان يظل على هذا المستوى من الصدق والعرفان إذ داخلته الدواعى والدوافع والأطماع وأصبح طريقا للكسب والارتزاق ونيل الهبات وأكثر الشعراء من المديح وبالغوا فى الزلفى وتفننوا فى النفاذ الى قلوب ممدوحيهم وانقطعوا للملوك والأمراء يثيرون فيهم كوامن الغرور ويوقظون هواجع الكبرياء بما يضفون عليهم من صفات ويسبغون من نعوت ويما يفتنون ويبدعون فى التعبير عن شمائلهم وسجاياهم وتصوير أصالة أحسابهم وجوانب العظمة فيهم ... ولم يكن عجيبا بعد ذلك ألا يهتز هؤلاء السادة الأكابر طربا لما يلقى بين أيديهم من قصائد إلا إذا كانت على مستوى رفيع من الإجادة والإشادة فلم تعد ترضيهم هذه الصفات التقليدية المعروفة ولا هذه النعوت المألوفة التى لهجت بها ألسنة الشعراء فى كل ساحة وفى أى مجال .... لذلك كان لزاما على الشعراء المادحين أن يراجعوا أشعارهم وأن يتأنوا ويتروووا فيها وأن يجودوا ويهذبوا ما شاء لهم التجويد والتهذيب حتى أطلق عليهم " عبيد الشعر "

ومع أن اتخاذهم الشعر أداة للارتزاق ومهنة للتكسب قد عاد على الشعر بالجودة إلا أنه عرض مكانته للانتقاص ... يقول الجاحظ : (١)

" فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ، وكذلك قال الأول " الشعر أدنى مروءة السَّرِى وأسرى مروءة الدَّنِى " .

ومن هؤلاء الشعراء النابغة الذبيانى زياد بن معاوية الذى مدح الملوك وقبل الصلة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر فسقطت منزلته وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة وأوانيه ... (٢) .. والأعشى ميمون بن قيس الذى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان وقصد حتى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته علما بقدر ما يقول عند العرب واقتداء بهم فيه على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له بل استهجنه واستخف به لكنه احتذى فعل ملوك العرب (٣) .. وزهير بن أبى سُلمى الذى وقف نفسه على أشراف قومه وكان سيدا شريفا حتى

---

١ ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٤١
٢ ـ العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٦٤
٣ ـ المرجع السابق .

فى مدائحه فلم يكن يمدح إلا السادة الأشراف الذين يشتهرون بين النـــاس بجليل الأعمال وعظيم الفعال من مثل هَرِم بن سنان والحارث بن عـــــوف اللذين سعيا فى الصلح بين عبس وذُبْيان وتحمّلا ديات القتلى بعد حـــرب " داحس والغَبْراء " التى استمرت طويلا وكثر فيها القتلى من الفريقين وكـــان ذلك منهما صنيعا كريما هزّ زهير بن أبى سُلمى فأنشأ فيهما معلقته المشهورة التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْ فى دِمْنـــةٌ لم تَكَلَّـــم ... بحوْمانةِ الدَّرّاج فالمُتثلَّـــم
ودارٌ لها بالرَّقْمتين كأنهـــا ... مراجيع وَشْم فى نَواشِر مِعْصَـــم
بها العِين والآرام يمشين خِلفةً ... وأطلاؤها ينهضْ من كل مَجْثَـــم
وقفتُ بها من بعد عشرين حِجَّـــةً ... فلأْيا عرفتُ الدار بعد توهـــم (١)

وفى هذه المعلقة يقول :

سعى ساعيا غيظ بن مرّةَ بعد مـــا ... تبزّل ما بين العشيرة بالـــدم
فأقسمتُ بالبيت الذى طاف حولَـــه ... رجالٌ بنوْه من قريشٍ وجُـــرْهـــم
يمينا لنعم السيدان وُجدتمـــا ... على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْـــرَم
تداركتما عبسا وذُبيان بعد مـــا ... تفانوْا ودقّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِـــم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من القول نسلـــم
فأصبحتما منها على خير موطـــن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثـــم
عظيمين فى عُلْيا معدٍّ هُديتمـــا ... ومن يستبح كنزا من المجد يعْظُـــم

---

١ ـ أم أو فى كنية حبيبته ـ الدمنة ما اسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهـــا وحومانة الدراج والمتثلم موضعان والرقمتان حرتان إحداهما قريبة من البصرة والأخرى قريبة من المدينة ـ مراجيع وشم : الوشم المجدد ـ نواشر المعصم عروقه الواحد ناشر أو ناشره ـ العين : البقر وأحدها أعين وعيناء لسعـــة عيونها وأرءام الظباء وأطلاؤها أولادها الواحد طلا ـ والمجثم الموضـــع الذى يجثم فيه أى يقام فيه وخلفة فوج بعد فوج أو مختلفة هذه مقبلة وهـــذه مدبرة وهذه صاعدة وهذه نازلة .

تُعفَّى الكلومُ بالمئين فأصبحت ... يُنجِّمها من ليس فيها بمُجْرِم
ينجمها قومٌ لقوم غرامةً ... ولم يُهرِيقوا بينهم ملءَ مِحْجَم
فأصبح يجرى فيهمُ من تِلادِكم ... مغانم شتى من إفالٍ مُزَنَّم (١)

وفى هذه الأبيات يتحدث زهير عن سعى هَرِم بن سِنان والحارث بن عوف إلى التوفيق بين عَبْس وذُبْيان بعد أن تمزقت الصلات والروابط بينهما بسبب إراقة الدماء ثم يقسم بالبيت الحرام أنهما خير سيدين فى حالى الشدة والرخاء فقد تداركا بمسعاهما فى الصلح عبسا وذبيان بعد أن أفنى بعضهم بعضا فى هذه الحرب المشئومة وقد قالا إن اتفق لنا إتمام الصلح بين القبيلتين ببذل المال وإسداء المعروف من الخير سلمنا من تفانى العشائر ..... إنكما طلبتما الصلح بين العشائر وظفرتما به وبعدتما عن قطيعة الرحم وأنتما فى الرتبة العليا من شرف معد وحسبها هديتما إلى طريق الصلاح والفلاح إذ كان المجد بين أيديكما كنزا أخذتما منه إلى غايته وتمامه فعظم أمركما بين الناس ، وهذه الجراح تمحى وتزال بالمئين من الإبل يعطيها نجوما من هو برئ الساحة بعيد عن الجرم فى هذه الحروب . هؤلاء الذين ينجمون الدِّيات لم يريقوا مقدار ما يملأ محجما من الدماء وقد اصبح يجرى فى أولياء المقتولين من نفائس أموالكم القديمة الموروثة غنائم متفرقة من إبل صغار مميزة .

ولم يكن زهير يقصد بمديحه هذا نوالا أو ينشد كسبا وانما هو سيد شريف هزه فعل سادة شرفاء .. يروي أن هَرِم بن سِنان حلف ألا يمدحه

١ــ غيظ بن مرة : بطن من ذبيان كان منه هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذان سعيا فى الصلح ــ تبزل ما بين العشيرة : تشقق وتصدع استعارة تمثل وحدتهما بناء كان متماسكا قويا ثم اصابه التصدع بسبب الحرب البيت الكعبة ــ جُرْهم كانوا ولاة البيت قبل قريش ــ السَّحِيل : الحبل الذي يفتل فتلا واحدا واستعير لوقت الرخاء والمُبْرَم الذى أحكم فتله واستعير لوقت الشدة ــ ودقوا بينهم عطر مَنْشِم : مثل يضرب فى الشر العظيم ومنشم امرأة تبيع العطر وقد تعطر قوم بعطرها وخرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعا الكلوم جمع كَلْم وهو الجرح وتعفى بمعنى تمحى يهريقوا : يريقوا ــ المحجم : آلة الحجام التى يمتص بها دم المريض ــ التِّلاد : المال القديم الموروث الإفال جمع أفيل وهو الصغير السن من الإبل ــ المزنَّم : المعلم بزنمة .

زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه فكان زهير يستحى منه ويقول إذا رآه فى ملأ : عِمُوا صباحا غير هرم وخيركم استثنيت ..[1] فزهير إذن يختلف عن غيره من الشعراء الذين كانوا يبغون التكسب بالمدح ويتعرضون للنوال تعرضا ممقوتا أزرى بهم وحط من مكانتهم ودفعهم دفعا إلى المبالغات المستهجنة فى مدائحهم واصطناعهم الصفات التى يتوجون بها هام الملوك والسوقة على حد سواء بينما كانت مدائح زهير تمتاز بالصدق والاعتدال وتجنب المبالغات الممقوتة والمغالاة فى الإشادة والمديح ، تأمل معنى قوله فى بنى حارثة قوم هرِم بن سنان :

وفيهم مقاماتٌ حِسان وجوهُها ... وأندية ينتابُها القولُ والفعل
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم ... مجالسَ قد يُشفى بأحلامها الجَهْل
على مُكثريهم حقُّ من يَعْتريهم ... وعند المُقِلّين السماحةُ والبذل
سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم ... فلم يفعلوا ولم يُليموا ولم يألُوا
فما كان من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل
وهل يُنبِتُ الخطّى إلا وشيجَة ... وتُغرس إلا فى منابتها النخل[2]

وصفهم بحسن الوجنه وصباحتها وقول الجميل وفعل الجليل وسعة الصدر ورجاحة العقل وأنهم جميعا أهل بر وفضل وسماحة وجود يستوى فى ذلك الموسرون منهم والمقلون وقد بلغوا فى المجد غاية لم يستطع أحد غيرهم أن يلحق بها مع الحرص الشديد والجهد البالغ وما ذلك إلا لأنهم ورثوا المعالى والامجاد عن الآباء والأجداد فليس بوسع أحد أن يدركهم فيها ، لأنهم نتاج أصول كريمة وغرس منابت طيبة فالرمح لا ينبته إلا الوشيج وهو القنا الملتف فى منبته . وغراس النخل لا تفلح إلا فى منابتها وذلك على

---

١ - اغانى ساسى جـ ٩ ص ١٤٦ .

٢ - العمدة جـ ١ ص ١٢٧ - المقامات جمع مقامة بمعنى المجلس أو الجماعة يجتمعون فى مجلس والأندية المجالس ينتابها : يقصد إليها ويحل بها مكثريهم : اغنيائهم - يعتريهم : يقصدهم وينزل بهم - يليموا : يقعوا فى اللوم يالوا : يقصروا - الخطى : الرمح نسبة الى الخط وهى جزيرة فى البحرين - الوشيج : شجر الرماح أو القنا الملتف فى منبته واحدة وشيجة والمعنى أنه لا تنبت القناة إلا القناة أى لا تكون الرماح إلا من القنا .

سبيل الاستعارة التمثيلية .... فانت لا ترى فى هذا المديح غلوا ولا مبالغة ولا إغراقا وانما هو انتقاء للصفات التى اشتهروا بها والتى يعتز بها العربى وينسب لأصحابها الفضل والمجد دون تزييف أو ادعاء .

وإن زهير ليبلغ حدا عاليا من الدقة والالتزام فى مدحه حتى لو أنه احس بشىء من المبالغة فى قوله أو تعبيره علقه بلفظة " لو " أو ما يشبهها حتى لا يتجاوز القصد ويكون قوله مقبولا .... تأمل قوله وهو يشيد بكرم هرم ابن سنان وشجاعته :

من يلق يوما على علاّته هرما ... يلقَ السماحة منه والنَّدى خُلُقا
ليثٌ بعثَّر يصطاد الرجال إذا ... ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صدقا
يطعنُهم ما ارتموا حتى إذا طعنُوا ... ضارب حتى إذا ماضاربوا اعتنقا
فَضَّل الجواد على الخيل البطاء فلا ... يُعْطى بذلك ممنونا ولا نَزِقا
هذا وليس كمن يَعْيا بخُطْبته ... وسط النَّدى إذا ما ناطق نطقا
لو نال حيّ من الدنيا بمكرمة ... أفق السماء لنالت كفُّه الأفقا (١)

فهو كريم سخى يجزل العطاء حتى حين تضيق ذات يده وهو يجمع الى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة حتى ليتفوق على الليث فى جرأته وطلبه لفريسته فأنت تراه إذا ترامى المتحاربون بالنبال على البعد لجأ هو إلى الطعن بالرمح فإذا ما تطاعنوا بالرماح لجأ إلى سيفه يضرب به عن قرب أكثر من الرمح فإذا ما تضاربوا بالسيوف عمد إلى اعتناق خصمه واعتبطه فصرعه لتوّه فهو سابق فى كل حال ثم إنه يبهرك ببلاغته وبيانه فى مقاله كما يبهرك بطعناته ونزاله ولو قدّر لحى أن ينال بمكرمة من مكارمه أفق السماء ، لنالت كفه هذا الأفق بلا مراء ... (٢)

---

١ ـ على علاته : على فقره وضيق ذات يده ـ ليث : أسد عثَّر : موضع ـ كذب الليث : نكل عن لقاء أقرانه ـ اعتنقه : أخذ بعنقه وصرعه النَّدِى : مجتمع القوم " العمدة جـ ٢ ص ١٢٨ " .

٢ ـ فقد امتنع وقوع المبالغة بنيل كفيه الأفق لأن أحدا من الأحياء لم يصل إلى ذلك و " لو " كما تعلم حرف امتناع لامتناع .

وإنك مع هذه النماذج لتحس إحساسا عميقا بأن زهيرا يحاول بكل ما أوتى من اقتدار وفن التركيز على الخلال الكريمة والصفات الأصيلة لممدوحه بغية الكشف عن جوهر شخصيته وتجسيد مثاليته الخلقية والنفسية والسلوكية لتكون نموذجا يحتذى ومثلا أعلى تطمح إليه النفوس وتتعلق به القلوب .... وهنا يكون للشعر دوره الجليل فى تحريك المشاعر وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق وجميل الصفات . استمع إليه يقول فى حصن بن حذيفة سيد بنى فزارة :

وأبيض فيّاض يداه غمامة ... على مُعْتَفيه ما تُغِبُّ فواضلُه
بكرتُ عليه غُدوةً فرأيته ... قعودا لديه بالصَّريم عواذلُه
فأقصرن منه عن كريم مُرزَّأ ... عزوم على الأمر الذى هو فاعله
أخى ثقة لا تُتلف الخمرُ مالَه ... ولكنه قد يُهلك المالَ نائله
تراه إذا ما جئته متهلِّلا ... كأنك تعطيه الذى أنت سائله (١)

فأنت تراه يمدحه بنقائه من العيوب وكرمه البالغ حتى أن يديه تهطلان على قاصديه بالعطايا كسحابة لا ينقطع ماؤها وقد خاب مسعى عواذله ولائميه أن يكف عن كثرة النوال .. إنه مثال للشريف الأصيل ذى الخلق الرفيع لا ينفق أمواله فى لهو أو خمر إنما ينفقها جودا وكرما لمن يستحقون البذل والعطاء وإنه ليقبل على معتفيه وقاصدى بره وكرمه ببشر وطلاقة وجه وكأنه هو الذى يتلقى العطاء ... ولو أتيح لنا المضى مع قصيدته التى اخترنا منها هذه الأبيات لرأيناه يتابع مديحه لحصن بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحلمه مشيرا إلى وراثته الطيبة عن آبائه وأجداده وإلى بلائه فى حروبه مع الغساسنة ... ولعمرى أن تكون هذه الخصال هى تلك التى كان يشغف بها العربى الجاهلى ويرى فيها أمارة السيادة والشرف ويعتبرها المثل الأعلى لما ينبغى أن يكون عليه الرجال .

---

١ ـ أبيض كناية عن نقائه من المساوئ ـ المعتفون : السائلون ـ الفواضل العطايا وتغب تنقطع الصريم : الصباح ـ عواذله : لائموه ـ أقصرن : كففن مرزأ : مصاب فى ماله لكثرة ما يبذل منه ـ النائل : العطاء ـ مستهلا : طلق الوجه .

هذا هو زهير بن ابى سلمى وما يمتاز به فى مدائحه من عاطفة قوية جياشة ومشاعر فياضة واحساس مرهف والتزام بجانب الصدق فى التعبير والتصوير والمحتوى والمضمون وسياج من عفة وترفع واباء يمنعه من التصريح بالسؤال وطلب النوال ... وتتجلى هذه السمات بوضوح حين توازن بين زهير وشاعر آخر كالأعشى مثلا فى المديح فإنك تحس المبالغة والمغالاة فى مديح الأعشى وهو يمزج هذه المبالغة بالتبذل فى السؤال والتعرض للنوال تبذلا لم يعرف مثله فى عصره وتعرضا تأباه العزة العربية مع ما يمتاز به الأعشى من رقة اللهجة وعذوبة النغم وجمال الإيقاع .. يقول الأعشى فى مديحه لهوذة بن على سيد بنى حنيفة :

إلى هوذةَ الوهابِ أهديتُ مِدْحَتى ... أُرجِّى نوالا فاضلاً من عَطَائكا
سمعتُ برَحْبِ الباعِ والجُود النَّدى ... فأدليتُ دلوى فاستقتْ برشائكا
فتى يحملُ الأعباءَ لو كان غيرُه ... من الناس لم ينْهَضْ بها متماسكا
وأنتَ الذى عوَّدتنى أن تَريشنى ... وأنت الذى آويتنى فى ظلالكا
وإنك فيما نابنى بىَ مُوزَعٌ ... بخير وإنى مُولَعٌ بثنائكا
وجدت عليا بانيا فورثتَه ... وطلقا وشيبان الجوادَ ومالكا
بحور تقوتُ الناسَ فى كل لَزْبَةٍ ... أبوك وأعمام هُمُ هؤلائكا
وما ذاك إلا أن كفيك بالندى ... تجودان بالإعطاء قبل سؤالكا
يقولون فى الأكفاء أكبر هَمِّه ... ألا رُبَّ منهم من يعيش بمالكا
وجدتَ انهدام ثَلْمةٍ فبنيتَها ... فأنعمت إذ ألحقْتَها ببنائكا
وربَّيْتَ أيتاما وأنعشتَ صِبْيَةً ... وأدركتَ شأوَ السَّبْق دون عنائكا
ولم يَسْعَ فى العلياء سعيك ماجدٌ ... ولا ذو إِنًى فى الحى مثل إنائكا (١)

---

١ ـ أرجى نوالا فاضلا : أرجو عطاء زائدا ـ رحب الباع : كناية عن الاقتدار فى المنح والعطاء الرشاء : حبل الدلو ـ تريشنى : تعيننى وتغنينى ـ موزع : مولع ـ طلق وشيبان ومالك : أعمام هوذه كما يدل على ذلك الشطر الثانى من البيت التالى ـ لزبة : شدة وأزمة ـ يقولون فى الأكفاء ... الخ : لعله يقصد أنه فاق أمثاله ونظراءه ببره وجوده ـ الثلمه : فرجة المهدوم أو ما فيه من شقوق والمقصود أنه يسد الخلل ويجبر الكسر ويأسو الجراح ـ ولم يسع فى العليا ... : المعنى أن أحدا مهما بلغ فى المجد لم يفعل فعلك ولم يصل إلى منزلتك ولا كريم يماثلك فى كرمك ، والإنى مقصور إناء .

وإذا انتقلنا إلى شاعر آخر كالحطيئة مثلا واجهتنا شخصية قلقة جشعة لا تشبع ولا تقنع فقد كان سوءولا ملحفا ينتقل من مكان إلى مكان ويتجول من قبيلة إلى قبيلة سدًّا لأطماعه وانتجاعا لرزقه وكان من اعترافه على نفسه بالجشع والطمع ما قاله لابن عباس" والله يا ابن عم رسول الله لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضيين أما الباقون فلا تشك في أني اشعرهم وأصردهم " أنفذهم " سهما إذا رميت " وكان الحطيئة يذهب مذهب أستاذه زهير في التجويد والصقل والمراجعة واصطناع الأناة والروية فلا تخرج إلى الناس قصائده إلا بعد أن تكون قد استوفت حظها من العناية والإتقان والإبداع ولكنه مع ذلك كان على النقيض من زهير في كثير من خلاله وسماته فقد كان زهير وفيا كريما وكان الحطيئة فحاشا غادرا شحيحا لا يدع عِرْضا إلا نهشه ولا يترك حرمة إلا هتكها ومزقها ، وكان زهير يكره الشر ويمقت الفتن ويحاول أن يخمد نار العداوة والبغضاء بين الناس أما الحطيئة فطالما أذكى نار الفتنه وأشعل ضرام البغضاء بين الناس وكان زهير حييا خجولا يقنع بما يُعطَى ولا يطلب بلسانه ويستحي أن يلقى التحية على ممدوحه حتى لا ينفحه بهبة أما الحطيئة فكان جشعا لا يشبع ولا يقنع وكلما أتخم بالرِّفد تاقت نفسه إلى مزيد من العطاء وإلا انقلب المديح إلى هجاء وصب على ممدوحيه سياط العذاب ثم انه في مديحه بعد ذلك قوى الشعر عذب الأسلوب خبيرا بأطواء النفوس يستطيع أن يكتسب رضاها ويستثير إعجابها (١) استمع إليه وهو يمدح آل شماس بأبيات قال عنها أبو هلال العسكرى " لعمرى إن معانى هذه الأبيات أبكار ليس للعرب مثلها وكل من تناولها فإنما استعارها من الحطيئة وهى جامعة لخصال المدح قال الحطيئة :

ألا طرقتنا بعد ما هَجَعُوا هند ... وقد جُزْنَ غَوْرا واستبان لنا نَجْدُ
ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأى والبُعد

---

١ ـ أعلام الأدب العربى للمسلوت وجاد وخفاجى جـ ١ ص ٣٧ .

وانّ التي نكّبتُها عن معاشـــــر ... على غضابٍ أن صددتُ كما صَدُّوا
أتت آلَ شماس بن لأى و إنمـــــا ... أتاهم بها الأحلامُ والحَسَب العَدُّ
فإن الشَّقِي من تعادى صدورُهـــم ... وذا الجَدّ من لانوا إليه ومَـن ودُّوا
يسوسون أحلاما بعيدا أناتهـــا ... وان غضبوا جاء الحفيظةُ والجِـدُّ
أقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكـــــم ... من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنـــا ... وإن عاهدوا أوْفَوا وإن عقدوا شدُّوا
وان كانت النعماءُ فيهم جزَوا بهـــا ... وان أنعموا لاكدّروها ولاكَـــدُّوا
وان قال مولاهم على جل حـــادث ... من الدهر ردُّوا فضل أحلامكم ردُّوا
مطاعين في الهَيْجا مكاشيف للدُّجَى ... بنى لهم آباؤهم وبنى المجـــد
وتَعْذلنى أفناء سعدٍ عليهـــمُ ... وماقلت إلا بالتى عَلِمَت سعـــد (١)

فأنت تراه يبدأ بنسب رقيق وغزل لطيف بهند وقد هزته نشوة وطربا بطيفها الزائر له فى المنام فيردد اسمها تلذذا واشتياقا ويبدي لهفة وهياما بهند وأرض بها هند ويخلص بسهولة ويسر إلى مدحته التى تجاوز بها قوما غضبوا عليه وأعرضوا عنه فصد بدوره وأعرض لكنها أتت آل شماس بن لأى طائفة منقادة لما يتصفون به من رجاحة العقول وآيات

---

١ ـ طرقتنا : من الطروق وهو الزيارة ليلا والمراد طرقنا طيفها أى فى المنام هجعوا : ناموا جزن : من الجواز والعبور ونون النسوة تعود على النوق أو الركائب ـ غورا : مكان بعينه النأى : البعد والعطف للتفسير ـ التى نكبتها : كناية عن المدحة ـ غضاب : صفة لمعاشر ـ الأحلام : العقول جمع حِلم بالكسر ـ الحسب : المجد والشرف ـ ودُّوا : اى ودوه من الود وهو التقرب بحب ـ لا أبا لأبيكم : دعاء عليهم بانقطاع الأصل أو هجاء لهم بنفى نسبهم وقوله " من اللوم " متعلق بـ " أقلوا " .

أو سدوا المكان .. الخ : يمثل لقيامهم بحاجة المحتاج بسد الثغرة فى البناء ـ بنوا .. الخ : تمثيل لصنع المكارم والمآثر ـ عقدوا تمثيل للوفاء بالعهد بعقد الحبل والعطف للتفسير ـ كانت النعماء فيهم : أى عليهم ـ جزوا بها : كافاوها ـ لاكدروها : أى بالمنع أو المن والأذى ولا كدوا : لا شقوا على المنعم عليه ولا شددوا =

المجد والشرف فهم في أعلى مكان وأسمى منزلة يشقى من تعاديه صدورهم ويحظى ويسعد من تميل إليه قلوبهم فيأيها اللائمون أقلو من لومكم أو انهضوا بمثل ما نهضوا به من جلائل الأعمال، إنهم صناع المكارم والمآثر وأهل العهد والميثاق وان عقدوا ألوية الحرب فهم أهل الشجاعة والإقدام وهم أرباب مروءة يردون الجميل و لايشقون على من أنعموا عليه بمنع أو تسويف أو أذى وفي أحلامهم متسع إذا كان ثمت ما يستوجب الحلم وإلا حلت غضبتهم وثارت حميتهم وهذه صفات ليست عارضة فيهم وإنما هي صفات أصيلة ورثوها عن الآباء والأجداد وكل ما نسبته إليهم من محامد ومكارم يعلمه أعداؤهم تمام العلم. هكذا كان الحطيئة قوة في معانيه وتدفق في خواطره وفيض في إبداعه وبراعة في عرضه وتعبيره ودقة في تصويره وعذوبة في موسيقاه.

ومن الشعراء المادحين الفحول نذكر حسان بن ثابت الذي أدرك الجاهلية والإسلام وعمّر طويلا، والذي ألهبت شاعريته عوامل متعددة من وراثة وبيئه وملكات وكثرة خصومات ومنافسات وتشجيع من أمراء الغساسنة وتقديرهم لمدائحه ثم ما كان من صقل الإسلام له وإمداده إياه بقوة الفكر وجلال الهدف وسمو المبدأ ورقة الأساليب

= بانتظار أو طلب ـ مولاهم: وليهم بالقرابة أو الحلف ـ على جل حادث: على الحادث الجليل من إضافة الصفة إلى الموصوف ـ ردوا فضل أحلامكم: ردوا أحلامكم الفاضلة والمعنى لا تعجلوا ولا تنتقموا ـ مطاعين: جمع مطعان صيغة مبالغة من الطعن أي بالرمح ـ الهيجا: مقصور الهيجاء أي الحرب وثورتها ـ مكاشيف: جمع مكشاف ـ الدجى: الظلم تمثيل لتفريجهم الكرب وبنى لهم: تمثيل لصنيع آبائهم وأجدادهم للمكارم ـ تعذلني: تلومني ـ أفناء: جمع فناء الجماعة من الناس ـ سعد: قبيلة من تميم من قرابة المهجو وهو "الزبرقان".

٠٠٠٠ وكان أكثر مدحه فى الجاهلية لبنى غسان وللنعمان بن المنذر وأقله لبعض سادة قومه فلما أسلم أصبح يشدو بالاسلام ومبادئه ويشيد برسول الله وصحابته الذين أبلوا فى الدفاع عن الاسلام بلاء حسنا ٠٠٠ لقد كان حسان فحلا بين فحول الشعراء وكان شعره الجاهلى فى منزله عالية من البلاغة والإجادة وقوة التعبير والتصوير وجزالة الألفاظ ومتانة الأداء وعدم الإسراف فى الغرابة والوحشية والخشونة فلما جاء الاسلام لان أسلوبه يقول الثعالبى " كان حسان يقول الشعر فى الجاهلية فيجيد جدا ويغبر فى نواصى الفحول ويدعى أن له شيطانا يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء ٠٠٠ فلما أدرك الاسلام وتبدل الشيطان ملكا تراجع شعره وكاد يرك فى قوله ليعلم ان الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب فى طريقه من الملك (١) ٠

ونحن هنا نستشهد بكلام الثعالبى عن شعر حسان الجاهلى أما حديثه عن شعره الاسلامى فلنا فيه موقف وكلام ٠٠٠ وحسان بن ثابت يخالف الأعشى والنابغة والحطيئة وزهيرا وسواهم من الشعراء ذوى الصنعة والتجويد والتنقيح والتهذيب لأنه كان يرسل الشعر على سجيته كما تجود به فطرته وقريحته لا يعتمد صنعة ولا يقصد إلى تجويد أو تهذيب وإنك لتراه معتدا بنفسه وعشيرته حتى فى مدائحه فتراه ينساب منها إلى التفاخر بأصوله وأرومته فى كثير من الأحيان وكان حسان يفد على ملوك الغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة فينال رفدهم وجوائزهم ويفاخر شعراءهم من أمثال النابغة وعلقمة بن عبدة وظل كذلك حتى أسلم ٠

---

١ ـ خاص الخاص ص ٨٠ ٠

يـروى أن حسانا وفد على الأمير الغساني عمرو بن الحـارث فوجد عنده النابغة وعلقمة بن عبدة فوقف حسان وأنشد قصيدته التى يقول فيها :

للّه درُّ عِصَابة نادمتهـــــم ... يوما بِجِلّق فى الزّمـــــان الأول
يمشون فى الحُلل المضاعف نسجها ... مشى الجمال الى الجمال البـذل
الضاربون الكبش يبرق بيضـــه ... ضربا يطيح له بنان المفصـــل
والخالطون فقيرهم بغنيهـــم ... والمنعمون على الضعيف المُرْمـل
أولاد جفنة حول قبر أبيهـــم ... قبر ابن مارية الكريم المفضـــل
يُغْشَون حتى ما تَهِرُّ كلابهـــم ... لا يسألون عن السَّواد المُقْبِـــل
يسقون من ورد البريص عليهـــم ... بردى يصفق بالرَّحيق السَّلْسَـــل
بيض الوجوه كريمة أحسابهـــم ... شم الأنوف من الطـــــراز الأول (١)

ولما انتهى حسان من إنشاد قصيدته زحف عمرو بن الحارث عن موضعه سرورا وهو يقول : " هذا وأبيك الشعر لا ما يعللانى به منـذ اليوم ، احسنت يا ابن الغريعة هذه والله البتارة التى قد بتـــرت المدائح ومنحه ألف دينار مكافأة له على مدحته المحبرة على أن يكون له فى كل سنة مثلها ... وتروى هذه القصة له مع جبلة بن الأيهـــم

---

١ ـ العصابة : الجماعة من الناس والمراد أمراء الغساسنة وجفنة جدهم ـ جِلّق : دمشق ـ البذل : جمع البازل البعير اذا طلع نابه ومن الرجال الكامل فى تجربته واختياره ـ الكبش : سيد القوم ـ البيـض جمع البيضة خوذة الرأس فى الحرب ـ يطيح : يسقط ـ المرمـــل الفقير الذى فنى زاده ـ ابن مارية أمير توفى على عهد الشاعر فأقـام أبناؤه يعقرون الإبل على قبره ـ يغشون : ينزل الأضياف بساحتهم لا تهر كلابهم : لا تنتج لأنها تعودت رؤياهم ـ البريص : نهـر يتشعب من بردى ـ يصفق : يمزج والسلسل : السهل المســاغ.

الغسانى آخر ملوكهم وكان جبلة يقسم ألا يطيف به ذكر حسان إلا بعث إليه بجائزته ولا يمر به غاد أو رائح إلا أرسل معه ما يطرف به حسانا ... الى ذلك كله كان حسان بن ثابت من المادحين الذين يتحرون الصدق و ويتخذونه لهم مذهبا يؤيد ذلك قوله :

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس إن كيسا وإن حمقا (١)

ولعل ذلك يثير تساؤلا حول ما قيل عن شدة خوفه وجبنه وأنه لم يشهد مع رسول الله مشهدا ولا غزوه وحديثه مع ذلك فى شعره عن شجاعته وبطولته فأنى له الصدق إذن !!! وفى الرد على ذلك يمكن أن يقال إنه كان فى الجاهلية بطلا شجاعا وانه أدركه مرض أصاب أعصابه فأصبح لا يرجى لقتال فهو حينئذ يتحدث عن بطولة كانت متحققة .... قد يقال من الوجهة الفنية البحتة إن الشاعر ليس مطالبا بصدق الواقع ووصف دقائقه كما يراها ويشعر بها بل إن مقياس براعته هو اقتداره على الصناعة والصياغة بمعنى أن يقصد الشاعر إلى صياغة الصفات العامة دون الصفات الخاصة والى اختيار خير الصفات بحيث يصف الموصوف على خير ما يؤلف من الصفات المثلى دون مبالاة بصدق الموقف أو مراعاة للواقع والنقاد يذكرون ذلك تحت عنوان شرف المعنى والإصابة فى الوصف (٢) وهم يقولون ان زهيرا مثلا كان مصيبا لا لأنه مدح هرم بن سنان بصفاته الخاصة بل لأنه مدحه بالصفات العامة للرجل الكريم من حيث انه مثال كريم ولذا فإنهم يروون عن عمر رضى الله عنه انه قال عن زهير " كان لا يمتدح الرجل الا بما يكون فيه (٣) ومعنى ذلك انه يقف أمام المثل الرفيعة فيصورها بشعره ولا يتجاوز بها الحقيقة - بذلك تكتمل عناصر الصورة فى فن المديح وهى بحق صورة قوية معبرة عميقة وممتدة ليست بسطحية ولا ساذجة كما أنها ليست فارغة ولا متهافتة بل انها

---

١ - الشعر والشعراء ٢٣-٥ ٢ أسرار البلاغة ص٢٣٦ ، الموازنة للآمدى ص٣٩٥ .
٢ - المدخل ص١٨٥ - ص١٨٧ .
٣ - الأغانى جـ١٠ ص٢٩ وانظر نقد الشعر ص٢٠

ذات أهداف بعيدة وغايات سامية ومثل عليا بكل المقاييس وان الشعر الجاهلي في هذا الفن قد احتوى هذه الأهداف والغايات والمثل واهتدى إلى هذه الفضائل النفسية التي كانت تعد من مقومات السيادة والشرف في عرف الجاهليين بكل اعتبار دون أن ينبههم أحد أو يلفت أنظارهم إليها ودون أن يقرأوا لأرسطو أو لغيره من الفلاسفة الأقدمين .. ومعلوم أن أرسطو من قديم الزمان قد تحدث طويلا عن الفضيلة والرذيلة والجميل والقبيح وربط ذلك بالمديح والهجاء إذ يقول : (١) " لنتحدث عن الفضيلة والرذيلة ، عن الجميل والقبيح لأنها أهداف من يمدح أو يهجو .... والفضيلة ـ كما يبدو ـ هي حاسة البحث عن الخير والمحافظة عليه . وهي كذلك حاسة تدفع إلى أداء الخدمات الجليلة الكثيرة بكل أنواعها وفي كل الحالات وأجزاء الفضيلة هي : العدل والشجاعة والعفة والسخاء وعلو الهمة والكرم والحلم والكياسة والفطنة ... " .

خامسا : في الهجاء ....

الهجاء هو الفن المقابل للمدح وهو يعني الذم وتعديد المعايب وسلب المرء ما يعتز به من فضيلة تصريحا أو تعريضا أو تلميحا أو تشكيكا .....والمدح والهجاء مظهران لصفات طبيعية في النفس البشرية تتعلق بالرضا والإعجاب من جانب والغضب والنفور من جانب آخر ، وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير " الزِّبْرِقان بن بدر " حين سئل كيف يمدح ويهجو في آن واحد فقال : " رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أسوا ما علمت " ..

والهجاء أساسا يعتمد على سلب الفضائل والرمي بالنقائص وتصوير مواقف الخسة والضعف والذلة والهوان التي يتعرض لها المهجو ومن النقائص التي ينفر منها العربي الجاهلي : الجبن والبخل والذلة وفتور الهمة والتقاعس والتخاذل والغدر والحمق والسفاهة ... الخ

---

١ ـ المدخل هامش ص ٢٠٠

ولعل بعض المظاهر الجسدية والنواحى الشكلية فى الانسان كانت تتخذ مادة للهجاء باعتبارها ذات دلاله على الخصال النفسية وذلك مثل القبح والدمامه والقماءة والحدب والعور والبرص والعشى وغير ذلك مما قد يتخذ وسيلة للهجاء .

ويبدو أن شعراء الجاهلية قد غلب عليهم فى أول الأمر الترفع عن الإقذاع وتجاوز حد الإسراف فى السب والشتم ولعلهم اكتفوا فى كثير من الأحيان بالتهكم والتشكيك والتعريض والتلميح إذ كان لذلك وقع سىء على المهجو وتأثير بالغ فى نفسيته من مثل قول الحطيئة معرضا بالزبرقان ومدافعا عن بغيض بن عامر بن شماس إذ أكرمه وآواه :

والله ما معشر لاموا امرأً جُنُبا ... فى آل لأى بن شمّاس بأكياس
ما كان ذنب بغيض لا أبا لكمو ... فى بائس جاء يحدو آخر الناس
لقد مَرِيْتُكمُ لو أن دِرَّتكمْ ... يوما يجىء بها مَسْحى وإبْسَاسِى
وقد مدحتكمُ عمدا لأرشدكم ... كيما يكون لكم مَتْحى وإمْراسى
لما بدا لى منكم عيبُ أنفسكم ... ولم يكن لجراحى منكمو آسى
أزمعت ياسا مبينا من نوالكم ... ولن ترى طاردا للحر كاليأس
ماكان ذنب بغيض أن رأى رجلا ... ذا فاقة حلّ فى مستوعر شاس
جارا لقوم أطالوا هوّن منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوِ قراه وهرّته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرفُ بين الله والناس(١)

---

١ ـ جنُبا : غريبا أو مبعدا ـ أكياس : عقلاء ـ يحدو آخر الناس : كناية عن ضعفه وسوء حاله والحداء الغناء للإبل ـ مريتكم من المرى وهو مسح ضرع الناقة لتدر اللبن والإبساس التلطف بها يقال بس بس تسكينا لها ضرب ذلك مثلا لاستجداء معروفهم ـ متحى : مصدر متح الدلو جذب رشاءها وأمراس مصدر أمرس الحبل خلصه من وقوعه بين البكرة والخطاف ضرب ذلك مثلا لإعمال الفكرة فى مديحهم ـ آسى طبيب يداوى =

فلما سمع الزبرقان هذا الهجو المرير استطاره الألم والغيظ فذهب إلى عمر وشكا إليه فاستنشده ماقال فأنشد : دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... البيت فحاول عمر أن يخفف من حفيظته ويلطف من ضغينته وقال : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، فقال الزبرقان . أو ما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس . فقال عمر : علىّ بحسان فجيء به فسأله ، فقال : لم يهجه ولكنه سلح عليه ، ويقال إنه سأل لبيدا عن ذلك فقال : ما يسرني أنه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأن لي حمر النعم. هكذا كان التعريض والتهكم أوقع في النفس وأشد إيلاما من الشتم والسباب ولقد قيل إن الأعشى هجا علقمة ابن علاثة بقوله :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

فلما سمع علقمة هذا البيت بكى وقال : أنحن نفعل ذلك بجاراتنا ؟! (١)

ويقال إن زهيرا بلغ بالتهكم والتشكيك مالم يبلغه أحد بهجائه في قوله :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء ؟! (٢)

بل وبأقل من ذلك يقع الإيلام من مثل قول الحطيئة لعتيبة بن النهاش العجلي من عظماء بكر وقد أكرمه واسترضاه :

= أزمعت : عزمت ـ متوعر شاس : مكان خشن كني بذلك عن منزل الزبرقان أرماس : جمع رمس وهو الحبر ـ ملوا إطعامه ـ هرته كلابهم اى فحته كناية عن قلة غشيانه منازلهم ـ وجرحوه بأنياب ـ تمثيل لسوء معاملتهم له بفعل الوحوش أو استعارة مكنية لبغيتها اى لطلبها ـ الطاعم الكاسي ذو الطعم وذو الكسوة اى ليس لك من المكارم شيء .

١ ـ الادب العربي بين الجاهلية والاسلام ص١٤٦ ـ العصر الجاهلي ص٣٥١ وما بعدها ـ المشتى : زمن الشتاء غرثى : جائعة ـ خمائص : ضامرات البطون .

٢ ـ العمدة جـ ٢ ص ١٦٣ .

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلا فسيان لا ذم عليك ولا حمد
وانت امرؤ لا الجود منك سجية فتعطى ولا يعدى على النائل الوجد

فهو في نظره لا يستحق ذما ولا حمدا والجود ليس طبيعة فيه والغنى لا يعين على العطاء انما الذى يعين هو كرم النفس وسماحتها ....

ومن أمثلة الهجاء بالتعريض بمدح الأعداء ما قاله قريط بن أنيف العنبرى يهجو قومه .

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا
لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شئ وإن هانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركبانا (١)

وهذا المذهب الجاهلى فى الهجاء من التهكم والتعريض والتلميح والتشكيك وسلب الفضائل النفسية فيه من ملامح العبقرية ما فيه إذ أجمع النقاد وأهل البصر بالشعر أن التعريض أهجى من التصريح وأن طريقة التشكك والتجاهل من أشد الهجاء وأمضه يقول ابن رشيق " وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن فى التعريض وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته فإذا كان الهجاء تصريحا أحاطت به النفس علما وقبلته يقينا فى أول وهلة فكان كل يوم فى نقصان لنسيان

---

١ ــ مازن تميم ــ الاستباحة أخذ الشىء مباحا ــ وإن هانا : وان كان يسيرا ــ شدوا الإغارة : حملو من أجل الإغارة مفعول لأجله ــ المشر ابدى ناجذيه : كشر عن أنيابه على سبيل الاستعارة المكنية وطاروا إليه زرافات اى جماعات جماعات وأفرادا أفرادا كناية عن حميتهم وشجاعتهم وفى قوله كأن ربك لم يخلق .. الخ تهكم مرير بقومه .

أو ملل يعرض . . هذا هو المذهب الصحيح على أن يكون المهجو ذا قدر في نفسه وحسبه فأما إن كان يوقظه التلويح ولا يؤلمه إلا التصريح فذلك . . (١)
ويقول صاحب الوساطة " فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن . . . (٢)

كما أجمع النقاد وأهل البصر بالشعر أن أجود ما في الهجاء أن يسلب المهجو الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض فأما ما كان في الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم بل إن قدامة لا يراه هجوا البتة كما أنه لا يرى التعيير بالآباء والأمهات عيبا ولا يعد الهجو به صوابا والكثيرون على خلاف رأيه في ذلك . . (٣)

كذلك أدركوا أن أشد الهجاء أعفه وأصدقه وما عف لفظه وصدق معناه لأن الصدق في الهجاء من أعظم أسباب قوته لأن المرء يخشى أن يدرك الناس ما فيه من نقص حقيقي فإذا أدرك الشاعر ذلك وأذاعه في الناس كان ذلك أشد إيلاما للمهجو إذ يخيل إليه أن الناس جميعا قد أدركوا ما فيه من نقص وعرفوا ان الشاعر صادق فيما قاله أما إذا كان الهجاء كاذبا فان واقع الامر يجعل الناس لا يصدقون الشاعر ويعدونه بذيء اللسان وقد حقق علماء النفس ذلك ورأوا أن الإيجاع في العيب يتوقف على مقدار الصدق فيه . . (٤) . . ولم يكن جمهور هجائهم يفرد بالقصائد بل كانوا يسوقونه غالبا في تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية أو في مدائحهم وإشادتهم بممدوحيهم ولذلك كان قصر الهجاء سمة مميزة لهذ الفن لدي غالبية الشعراء ومما يبرر هذا المنهج أن الهجاء يعتمد أساسا على الإيحاء والتخيل والتلميح وإدراك ما وراء كل كلمة ولفظة

١ـ العمدة جـ ٢ ص ١٦٤
٢ـ نفسه ص ١٦٢ وما بعدها
٣ـ نفسه ص ١٦٦
٤ـ أسس النقد الأدبي عند العرب لأحمد بدوي ص ٢٥٤

من معان ومرام وإشارات وهذه كلها انطلاقات فكرية وتخييلية يحد منهـــا التطويل .

وقد روى أن " عُقَيْل بن عُلَّفَة " الشاعر الأموى سئل : لم لا تطيـــل الهجاء ؟ فكان جوابه " يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق " (١) بمعنـى أن الهجاء إذا احاط بمثالب المهجو وسجلها فى عبارة موجزة كان ذلـــك أوقع وكانت الإطالة غير مجدية .. وقد أجاب على نفس السؤال أبو المُهَوِّش الأسدى فقال : " لم أجد المثل السائر إلا بيتا واحدا " (٢) بمعنـــى أن تقصير الهجاء يجعله أذيع على الألسنة وأجرى بين الناس وفى ذلـــك تحقيق لما يهدف إليه الشاعر من تشويه لسمعة من يهجوه وإثارة المشاعـــر ضده واذا كان الهجاء يثير فى النفوس مشاعر التهكم والسخرية أو الكراهيـــة والاشمئزاز أو الغضبة والحمية فإنه يثير أيضا مشاعر الإعجاب بالشاعـــر الذى استطاع أن يعبر بأسلوبه وكلماته عن جوانب النقص التى يلمحها فيمن يهجوه ويلقى عليها من فنه ومهارته أضواءً وظلالا تبرزها فى وضوح وجـــلاء وتجسدها باقتدار وبراعة أداء .

فالهجاء فن له قواعده وأصوله وطرائقه وأساليبه وليس بلازم أن يستطيع الإجادة فيه كل من يجيد المدح لأن له رجاله الذين يجيدونه ويتقنونـــه ولهذا لم يقبلوا قول نُصَيْب الشاعر حين سألوه لم لا تهجو كما تمدح وقـــد أقرت لك الشعراء بالمدح ؟ فقال : تُرانى (تظننى) لا أحسن أن أقول مكان (عافاه الله) : (أخزاه الله) ولكنى أدع الهجاء لخلتين إمـــا أهجو كريما فأهتك عرضه وإما أهجو لئيما لطلب ما عنده فنفسى أحـــق بالهجاء إذ سولت إلى لئيم .... وهم إنما أنكروا على نصيب فهمـــه أن يكون الهجاء مجرد وضع أخزاه الله مكان عافاه الله لأن للهجاء منهجـــه وأسلوبه وطرائقه الخاصة التى لا يجيدها إلا من تهيأت نفسه لذلك مـــن الشعراء ولم يقبلوا أيضا قول العجاج فى نفس المعنى : وهل رأيت بانيا لا يحسن أن يهدم وكأنه يرى أن المدح بناء وأن الهجاء هدم والهـدم

١ــ الشعر والشعراء ص ١٩ ط بيروت تحقيق د مفيد قميحه

٢ــ المرجع السابق .

أسهل من البناء وقد علق ابن قتيبة على ذلك بقوله " وليس هذا كما ذكره العجاج ولا المثل الذى ضربه للهجاء والمديح بشكل لأن المديح بناء والهجاء بناء وليس كل بان بضرب بانيا بغيره .. (١)

واذا كنا قد تحدثنا عن العفة والصدق فى الهجاء وتجنب القذف والفحش والسباب لأن ذلك لا يمت إلى الفن بصلة ولأن العامة قد يتفوقون فيه على الشعراء (٢) فليس معنى ذلك أن الشعر الجاهلى قد خلا تماما من هذا الفحش فإن بعض الشعراء كانوا لا يكتفون بسلب الفضائل والرمى بالرذائل والتذكير بالمخازى بل كانوا يقذفون الأعراض ويطعنون فى الأنساب ويتعرضون للأمهات بفحش وإسفاف على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدى وهو يهجو بنى عامر لغدرهم بخالد بن نضلة الأسدى وقتله فيقول :

فِدًى لسلمى ثوباى إذ دَنِسَ الـ ... ـقومُ وإذ يَدّ سُمُون ما دَسَمُوا
أنتم بنو المرأة التى زعم الـ ... ـناس عليها فى الغَىّ ما زعموا
يَمْرُج جارُ استها إذا ولدت ... يَهْدِر من كل جانب خُصُمُ
وأمها خَيْرَةُ النساء على ... ما خان منها الدَّحاقُ والأَتَمُ
تشمذ بالدرع والخمار فلا ... تخرج من جوف بطنها الرحم (٣)

فأنت لا ترى فى هذه الأبيات سوى فحش مغلف بالتهكم البالغ إذ يجعل نفسه فداء لأمهم سلمى لما أصيبت به ثم يقول لهم أنتم بنو المرأة التى لاكت افواه الناس سمعتها وقالوا ما قالوه فى شأنها ، وإذ يجعل أمها خيرة النساء مع مالحق بها من دحاق وأتم وما يحتمله ذلك من وصم بشع والواقع أن من يسمع مثل هذا الشعر يمتلئ نفورا واشمئزازا لا من بنى عامر ولا من أمهم سلمى وانما من الشاعر نفسه الذى هوى بشعره إلى هذا

---

١ ـ الشعر والشعراء ص ٢٨
٢ ـ أسس النقد الأدبى ص ٢٥٠
٣ ـ المفضليات القصيدة رقم (٧) ص ٤٢ وما بعدها ـ ثوباى : أراد نفسه يد سمون : يسدون بالدسام وهو ما يسد به الجرح

بمناقبه وشمائله وماثره ، والتعزى عن المصيبة فيه بما تبتلى به سائر الأمم والملوك وكافة الناس والمخلوقات من فناء وزوال إذ لا يفلت كائن من نفس المصير والمآل ... وبالتأمل فى هذا المعنى نرى أن لفن الرثاء عناصر ثلاثة تدور حول :

١ــ بكاء الميت وندبه والتفجع عليه .

٢ــ تعداد مآثره ومناقبه .

٣ــ التوسل إلى التعزى عن فقده بما هو معروف عن الدنيا من تقلب وأن كائنا لن يخلد فيها وأن كل شىء فيها إلى زوال .

وبهذه العناصر تتكامل صورة الرثاء باعتباره فنا شعريا يشغل جانبا عظيما من الشعر الجاهلى وكان له فرسانه وأقطابه من الرجال والنساء على السواء ، وكما بينا فإن مثالية الرثاء تتحلى فى العناصر الثلاثة : الندب والتأبين والعزاء أو بعبارة أخرى التفجع وتعداد المآثر والتعزى ، وقد يكتفى بعنصر أو عنصرين أو يتغلب أحد العناصر فيركز عليه الشاعر ويوجه إليه موهبته وفنه وهذا راجع أساسا إلى العاطفة الغالبة وتوجهات المشاعر ونبضات الأحاسيس .

وليس صحيحا من الوجهة الفنية البحتة ما يراه ابن رشيق وغيره من أنه ليس هناك فرق بين الرثاء والمديح إلا أن يخلط بالرثاء ما يدل على أن المقصود به ميت مثل " كان " أو " عد منابه كيت وكيت " أو ما شاكل هذا ... (١)

وكأنه بذلك يرى أن الرثاء إشادة وتعداد للمكارم تماما كالمديح غير أن الرثاء يختص بالأموات وأن على الشاعر أن يذكر فى شعره ما يدل على أنه يرثى ميتا لا انه يمدح حيا وكما قلت فان هذا ليس صحيحا بكل المقاييس لأن هناك من العوامل النفسية والمقومات الأساسية ما يجعل الرثاء شيئا

١ــ العمدة جـ ٢ ص١٣٩ وانظر قدامة فى " نقد الشعر " ص٣٣

يختلف تماما عن المديح لما فيه من الالتياع والحزن والأسى والاستعظام والحرقة والتوتر والصدمة المذهلة ـ ولما قد يكون فيه من التأسى والتسلى بأحداث الحياة ومصائب الزمن وعبر الأيام ... وهذه أمور لا أثر لها فى المديح بل إنها مما يفسد المديح لو وقع منها شىء فيه ... بل إن تعداد المحاسن والمآثر فى الرثاء يختلف عنه فى المديح لكونه نابعا من عاطفة حزينة ومشاعر ملتاعة وتفجع مرير مما يكون له تأثير بالغ فى التعبير والتصوير والمذهب والاتجاه بل إن جانب الصدق والوفاء والإخلاص والتجرد من الأغراض والأطماع يتمثل بوضوح فى الرثاء ولن نجد أثرا له فى المديح الذى تدفع إليه غالبا رغبات وأهواء وتحركه غايات وتوقعات للمنح والعطاء وقد التفت ابن رشيق نفسه إلى هذا الجانب دون أن يرتب عليه ما يستوجبه من مغايرة تامة بين المديح والرثاء إذ يقول " وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بيّن الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا (١)

لكننا نخالفه مرة أخرى إذ يجعل التفجع والحسرة والتلهف والأسف والاستعظام قاصرا على الملوك والرؤساء الكبار ! ! فهل كانت العواطف والمشاعر والأحزان والدموع وقفا على هؤلاء فى يوم من الأيام ؟ !

نعم قد يكون لهؤلاء الملوك والرؤساء دور عظيم ومنزلة عالية ومكانة رفيعة ولكن ليس معنى هذا أن تكون الدموع وقفا عليهم أو أن تكون الأحزان مرتبطة بهم وإن كان الاستعظام لفداحة الخطب بفقدهم أمرا مقبولا باعتبارهم لا يمثلون أشخاصا وانما يمثلون أمما وأقواما ...

وقد حفل شعرنا العربى برثاء متفجع متلهف يقطر أحزانا ودموعا على الشقيق والرفيق والحبيب والزوج والابن والأب والأم والعم والخال والصديق .... الخ ففى عالم الدموع والأحزان متسع للملوك والسوقة والأمراء والصعاليك والخاصة والعامة والأقرباء والغرباء والرجال والنساء والكبار والصغار لكلٍّ فى قلبٍ من القلوب مودة ووفاء ولكلٍّ فى عينٍ من العيون

---

١ ـ العمدة جـ٢ ص ١٤

دمعة حزن ورثاء. ومن شواهد التلهف والاستعظام على الرؤساء الكبار ما قاله النابغة في حِصْن بن حُذَيْفَة بن بدر :

يقولون حصنٌ ثم تأبى نفوسهم ... وكيف بحصن والجبالُ جُنُوحُ
ولم تلفظ الموتى القبورُ ولم تزل ... نجومُ السماء والأديم صحيح
فعمَّا قليلٍ ثم جاء نَعِيُّه ... فظل نَدِيُّ الحي وهو ينوح (١)

ففي هذه الأبيات تفجع واستعظام : أما التفجع ففي حديث الناس عن حصن والأسى يملأ قلوبهم فلا يستطيعون أن يخبروا بموته بل تظل الكلمة متجمدة على الشفاه لأنهم لا يصدقون أن " حصنا " مات .. وكيف ضجّ القوم في ناديهم بالبكاء والعويل حين جاء النعي بخبر موته ..... وأما استعظام موته فقد أبان عنه عندما تعجب أن يموت حصن ثم تظل الجبال راسية والموتى مستقرين في قبورهم لم تلفظهم هذه القبور ، وتبقى النجوم ثابتة مستقرة في أماكنها ووجه السماء صحيحا كما كان العهد به وكأنه توقع لهول المصاب أن يختل نظام الكون كله ...

ومن شواهد التأبين وتعداد المآثر والإشادة بالفضائل النفسية ما قاله كعب بن سعد الغَنَوِي(٢) من قصيدة مشهورة له يرثي بها اخاله قتل في حرب " ذي قار " :

---

١ ـ العمدة جـ٢ ص ١٤٠ ـ ثم تابى نفوسهم : ترفض ان تصدق ـ جنوح : قائمة راسية تلفظ الموتى : تلقى بهم خارجها ـ نعيه : من يخبر بموته ـ ندى الحي : النادى والمراد المجتمعون فيه ـ وأديم السماء : وجهها وما ظهر منها .

٢ ـ شاعر جاهلي توفي نحو سنه ١٠ ق هـ . أشهر شعره هذه القصيدة

لعَمْرِى ، لئن كانت أصابت منيـــــةٌ أخى ، والمنايا للرجال شعـــوب
لقد كان أما حلمه فمـــــــروح علينا وأما جهله فعزيـــــــب
أخى ما أخى ؟! لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيـــــوب
حليم إذا ما سورة الجهل أطلقـــت حيا الشيب ، للنفس اللَّجوج غلوب
كعالية الرمح الرُّدَيْنِيّ لم يكـــن إذا ابتدر القوم العلاء يخيـــب
فإنى لباكيه وإنـــى لصـــادق عليه وبعض القائلين كـــذوب
ليبكك شيخ لم يجد من يعينـــه وطاوى الحشا نائى المزار غريـــب
جموح خلال الخير من كل جانـــب إذا جاء جياء بهن ذهـــوب
فتى لا يبالى أن يكون بجسمـــه إذا نال خلات الكريم شحـــوب
حليم إذا ما الحلم زين أهلـــه مع الحلم فى عين العدو مهيـــب
إذا ما تراءاه الرجال تحفظـــوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريـ (١)

هكذا بدأ الشاعر أبياته بما يدل على أنها مرثية لهالك وأن هـــذا الهالك أخوه وهكذا شأن المنايا تفرق شمل الرجال ... وأخذ بعـــد ذلك يصور لنا أخاه رجلا حليما على أهله لا تملكه سورة الغضب بل يكظـــم غيظه ويغلب غضبه طالما كان الحلم زينا له ... رجلا عاقلا سباقا إلى المجد لا يتأخر عن نيله ولا يقصر باعه عنه ولذا عاش حياته مرفوع الرأس عالى الجبين

١ــ المنايا جمع منية : الموت ــ شعوب : مفرقة ــ روّح على فلان حقه : ردّه عليه ــ غريب : بعيد غائب ــ الورع : الجبان الضعيف لا غناء عنده ــ سورة الجهل : حدة الغضب ــ اللجوج : كثيرة العناد ــ عالية الرمح : أعلاه ــ الرُّدَيْنى : نسبة إلى "رُدَيْنة" امرأة شهرت بتقويم الرماح وتثقيفها ــ طاوى الحشا : جائع ــ نائى المزار : بعيد ــ جموح خلال الخير من كـــل جانب : يحرزها ويجمعها فلا تند منها واحدة ــ شحوب : تغيـــر لون من جوع أو مرض أو وجل ــ العوراء : الكلمة القبيحـــة ....
(نقد الشعر ص ٣٢ وما بعدها) .

ومثل هذا الفتى الكريم جدير بالشاعر أن يبكيه وأن يصدق القول فيه والحزن عليه إذا لجأ آخرون إلى كذب وافتعال للفضائل وإثباتها لمن لا يستحقونها .... ولن يكون هو وحده الذى يبكيه وانما يشاركه فى البكاء أولئك الذين كانوا يجدون العون فى رحابه كهذا الشيخ الضعيف الذى فقد بموته من يعينه على صعاب الحياة وكهذا الجائع الغريب النائى عن أهله ودياره .... ولم لا يبكيه هؤلاء جميعا .. أليس هو الفتى الذى جمع خلال الخير واستقصاها فلم تشرد منها واحدة .... أو ليس هو الذى لا يبالى بما يعود على جسمه من شحوب وضنى إذا كان ذلك فى سبيل المجد وسيرورة القول الجميل ... أوليس هو الحليم طالما كان الحلم زينا لصاحبه من غير أن يطمع هذا الحلم عدوه فيه لأنه مهيب فى عين أعدائه بل هو مهيب فى أعين الناس جميعا يحتشمون فى حضرته ولا ينطقون إلا بمهذب الكلام .... ومن شواهد الإبداع فى القصيدة ما التفت إليه الشاعر من هذه المشاركة الوجدانية بين المرثى ومن كان يتصل به ممن كانوا يتلقون عونه وغوثه وإحسانه وهذا الباب — أعنى المشاركة الوجدانية — مفتوح على مصراعيه لكل من تتأتى منه هذه المشاركة سواء أكان ممن يتلقون العون والإحسان أم من غيرهم من الأحباب والأصدقاء والمخالطين بل وتمتد هذه المشاركة إلى الحيوان والطير أيضا كالفرس والناقة والكلب والطير التى كانت تتبعه فى سيرته إلى أعدائه فتضمن لنفسها غذاء وفيرا ومما يذكر من مشاركة الفرس قول الخنساء عن " حذفة " فرس أخيها صخر :

فقد فقدتك حذفة فاستراحت ... فليت الخيل فارسها يراها

عبرت باستراحتها بعد موته عن فروسيته وشجاعته وعدوه الدائب بها وخوضه معها الغمرات والصعاب فهى الآن قد استراحت من كل هذا العناء ... وقدامة يرى أن الخنساء أحسنت لأنها تذكر اغتباط حذفة بموت فارسها صخر ولو أنها قالت : فقدتك حذفة فبكت لأخطأت لأن من شأن ما كان يوصف فى حياة المرثى بكده إياه أن يذكر اغتباطه

بموته لا بكاءه عليه [١] .. ونحن نرى أن الخنساء لم تقل إن حذفة اغتبطت بموت فارسها وانما قالت " استراحت " لغاية تقصدها كما بينت وإلا فإنه من المعلوم الذى لا يجهل والمعروف الذى لا ينكر ما يكون بين الفارس وفرسه من مظاهر الألفة والمودة والحب العجيب مالا ترقى إلى مثله الألفة بين البشر وقل أكثر من هذا فى العلاقة بين الكلب وصاحبه واقدام الكلب على الموت بالامتناع عن الطعام إذا أصاب صاحبه مكروه ...

ومن الرثاء الجيد ما قاله أوس بن حجر [٢] فى رثاء فضالة بن كلدة الأسدى :

أيتها النفس أَجْمِلى جزعا ... إنَّ الذى تحذرين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنَّجْـ ... ـدةَ والحزم والقُوَى جمعا
الألْمَعِىُّ الذى يظن بك الظـ ... ـنَّ كأن قد رأى وقد سمعا
والمخلف المتلف المرزَّأ لـ ... ـم يُمْتَعْ بضعف ولم يمت طبعا
أُوْدَى فلا تنفع الإشاحة مـ ... ـن أمر لمن قد يحاول البدعا
ليبكك الشَّرْبُ والمدامة والفتـ ... ـيان طُرًّا وطامع طمِعا
وذاتُ هِدْمٍ عار نواشـ ... ـرُهـا تُصْمِتُ بالماء تَوْلبا جَدِعا
والحىَّ إذ حاذروا الصباح واذ ... خافوا مغيرا وسائرا تَلِعا [٣]

وقد تتجسد الروعة والبراعة فى عبارة تهتز لها القلوب والمشاعر وتدور على الألسنة ويكون لها من الوقع والأثر ما ليس لعشرات الأبيات ومن ذلك

١ــ نقد الشعر ص ٣٣
٢ــ أوس بن حجر من فحول شعراء الجاهلية وكان شاعر مضر حتى ظهر زهير والنابغة فأخلاه كان وصافا للسلاح وبخاصة القوس .
٣ــ الجزع : شدة الحزن على الفقيد ــ الألمعى : حاد الذكاء جيد الفراسة ــ المرزأ : السخى المصاب فى ماله لكرمه البالغ : لم يصب ــ الطبع اللئيم ــ أودى : هلك ومات ــ الإشاحة : الجد فى طلب الشىء ــ البدع : الأمور الغريبة ــ الشَّرْب جمع شارب كركب جمع راكب المدامة ــ الخمر ــ طرا : جميعهم ــ الهدم : الثوب الخلق ــ النواشر : عروق ظاهر الكف ــ تصمت تسكت والتَّوْلَب ولد الأتان أى الأنثى وجدع على وزن كتف سىء الغذاء يريد البائسة المعدمة التى تعلل ابنها بالماء لفقرها وعدمها ــ تلع على وزن كرُم وفرِح بمعنى طلع . ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ .

ما يروى لعبدة بن الطبيب [١] في رثاء قيس بن عاصم احد اشراف العرب وسادتهم الموصوفين بالحلم والشجاعة :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء ان يترحما
تحية من ألبسته منك نعمة إذا زار عن شحط بلادك سلما
فلم يك قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما [٢]

فقد جعل الشاعر " قيس بن عاصم " عماد قومه عليه ترتكز دعائم حياتهم وبه تأتلف وحدتهم وتجتمع كلمتهم وتكتمل سيادتهم فإذا هلك تهدم بنيانهم وانفرط عقدهم وتبدد شملهم ... أرأيت إلى هذه العبارة الموجزه كيف صورت لك كل هذه المعانى ؟!!.

ولم يكن من عادة الشعراء أن يقفوا فى أناة وتأمل أمام ظاهرة الموت والتعمق فيها والكشف عما وراءها لأن ذلك لم يكن فى مقدورهم بحكم وثنيتهم وأميتهم وظروفهم وعدم اشتغالهم بعلوم فلسفية وعقلية تدفعهم إلى تفكير عميق وأحكام صائبة فى هذا المجال ولم يكن ذلك أيضا يشغلهم أو يصرفهم عن أحزانهم فالموت قد وقع وكان لابُدَّ مما ليس منه بُدّ وقد أنشب الوحش أظافره فى فريسته وقضى الأمر فليكن التوجه إلى الفريسة والضحية بالبكاء والرثاء أما الموت ذاته فأمره مألوف وقضاؤه حتمى وحكمه لا رجعة فيه ... ومعلوم أن غالبية القوم على وثنية وشرك وأنهم لا يؤمنون ببعث أو حساب أو آخرة وانما هى حياتهم الدنيا يحيونها بخيرها وشرها وحلوها ومرها ثم يكون الهلاك والفناء والعدم ... ولعل الإحساس بهذه النهاية المحتومة وهذا الضياع الأبدى كان وراء هذا الالتياع البالغ واللهيب الناشب فى الصدور والجوانح والحزن الرابض فى القلوب والضمائر والأسى السارى فى الأحاسيس والمشاعر ... أما بعد أن اعتنق العرب الاسلام وآمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره وعرفوا أن هناك بعثا وحسابا وجنة وناراً فقد كان هناك وجه آخر للأمر كله ... كان هناك التسليم بأمر الله والامتثال لحكمة والإذعان لقضائه وقدره ... كان هناك الرجاء فى حسن المآل والمصير والاعتقاد فى حياة أخرى باقية هى خير

١ــ شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام توفى نحو سنه ٢٥هـ
٢ــ العمدة جـ ٢ ص ١٤٥ ، الشعر والشعراء ص ٣٧٣

من حياتهم الدنيا بكل ما تحمله من شرور وهموم وآلام وأحزان ... كان هناك الأمل الكبير فى تلاقى إخوة الإيمان وعباد الرحمن فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ... وقد يبدو هذا المعنى بكل الوضوح فى رثاء الخنساء لأخويها صخر ومعاوية وما كان لشعرها من اللوعة والأسى والحرقة واللهيب والجزع الغريب العجيب ثم ما كان منها بعد إسلامها واطمئنان قلبها بالإيمان من تحريضها لبنيها الأربعة على خوض معركة القادسية وحثهم على القتال فيها ... وحين نعوا إليها جميعا تقبلت مصرعهم برباطة جاش ورحابة صدر وقلب عامر بالإيمان ونفس صابرة محتسبة ولم تزد على أن قالت : " الحمد لله الذى شرفنى بموتهم ، وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته "(١) إيه خناس ... !! ما هذه العظمة الإنسانية ؟! وما كل هذا الجلال وكل هذا الإيمان ؟! إنه الإسلام ... !! الإسلام الذى بدّل وغيّر وبنى وشيّد وأرسى دعائم الإيمان ، ورفع لواء القرآن فكانت هذه النماذج البشرية المضيئة رمزا خالدا للمثل العليا على امتداد الزمان .

وكان من عادة شعراء الجاهلية أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى قلل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها ، وذلك فى أشعارهم كثير لا يكاد يخلو منه شعر ...(٢) والقدماء عندما ينهجون هذا النهج فى الرثاء كانوا يلتمسون العزاء والسلوى فى هذه المخلوقات والكائنات التى كانوا يشاهدونها فى بيئتهم تعتصم برؤوس الجبال وتأوى إلى شعابها وتنطلق فى الوهاد والنجاد وتعمر ما شاء الله لها أن تعمر ثم يدركها الموت لا محالة وتمضى كأن لم تكن شيئا ذا بال فى يوم من الأيام وهكذا كانت تصاريف الأقدار مع الأمم السابقة ، والشعوب والأقوام ، والملوك العظام ، وكبار الرجال ، الكل

---

١ ـ أعلام الأدب العربى ص ٨٦ وما بعدها .
٢ ـ العمدة جـ ٢ ص ١٤٣

حتما إلى زوال ٠٠٠٠٠ وقد يتضح هذا المعنى فى هذه الأبيات التى أوردها ٠٠٠ قس بن ساعده الإيادى فى خطبة له بسوق عكاظ ٠

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا ... يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر (١)

ولم يكن من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء وابن رشيق يقرر (٢) أن المتعارف عند أهل اللغة انه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة " دُرَيْد ابن الصِّمَّة " أحد الشعراء الفرسان المعمرين فى الجاهلية ٠٠٠ التى يرثى بها أخاله قد قتل ومطلعها :

دعانى أخى والخَيْلُ بينى وبينه ... فلما دعانى لم يجدنى بقُعْدَدِ
أخ أرضعتنى أمُّه من لِبَانها ... بثدى صفاء بيننا لم يُحَدَّدِ
فجئت إليه ، والرِّماح تَنُوشه ... كوقع الصَّياصى فى النَّسِيج المُمَدَّد
فطاعنتُ عنهُ الخيلَ حتى تنهنهت ... وحتى علانى حالك اللون أسودى
تنَادَوْا فقالوا : أردت الخيل فارسا ... فقلت أعبد الله ذلكم الردى
فإن يك عبدُ الله خَلَّى مكانَه ... فما كان وقَّافا ولا طائشَ اليدِ
قليلُ التشكِّى للمُصيبات ذاكرٌ ... من اليوم اعقاب الاحاديث فى غد
تراه خميصَ البطنِ والزاد حاضر ... عتيد ويغدو فى القميص المقدد

---

١ ـ انظر الخطبة فى فصل الخطابة من قسم النثر الجاهلى .
٢ ـ العمدة جـ ٢ ص ١٤٤

وإن مسّه الإقواء والجَهْدُ زاده سماحا وإتلافا لما كان في اليد
صَبَا ما صَبَا حتى علا الشيبُ رأسَه فلما علاه قال للباطل : ابْعَدِ
وطيّب نفسي أنني لم أقل لـه كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي (١)

وابن رشيق يعلل لهذا البدء بالغزل في قصيدة " دريد بن الصِّمَّة " بأن الشاعر قد أدرك ثأر أخيه عبد الله الذي مضى على قتله سنة ومعنى ذلك أن المصيبة قد خفت حدتها ، وربما كان الشاعر مبتهجا بأخذ الثأر لأخيه مما سمح له بهذا الغزل الذي يجب على الآخذ في الرثاء أن يتجنبه ، وأن يكون مشغولا عنه بما هو فيه من الحسرة والاهتمام بالمصيبة (٢)

وأرى أن البدء بالنسيب قد يكون بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار والتحسر على الأيام الخالية والذكريات الفائتة ومثل هذا النسيب ـ فيما أرى ـ لا يجافي الرثاء بحال من الأحوال بل هو مما يلائمه ويقاربه ويدانيه ..

وقد التفت الباحثون إلى أن صوت الشعر إنما يعلو ويمتد بالرثاء في الغالب إذا كان المرثي مقتولا فيكون الرثاء بذلك وسيلة إثارة وتحميس للثار والانتقام وهنا قد يختلط الرثاء بالفخر والحماسة تحقيقا لهذه الإثارة وقد يكون مع ذلك هجاء لاذع للخصوم والأعداء على نحو ما نجد في قصيدة المرقّش الأكبر :

---

١ ـ القعدد : الجبان اللئيم والخامل ـ يحدد : يقطع ـ تنوشه : تتناوله الصياصي : جمع صيصاه شوكة يسوى بها الحائك نسجه ـ تنهنهت : كفت واسودى نسبة إلى الأسود أى الدم وخفف للضرورة ـ خميص البطن ضامره ـ عتيد / مهيأ المقدد : الممزّق ـ الإقواء : الفقر ـ اتلاف ما في اليد إنفاقه ـ صبا ماصبا : من الصبوة بمعنى اللهو وطيش الشباب ـ الوقّاف بمعنى المحجم عن القتال القصيدة رقم (٢٨) الأصمعيات ص ١٠٦ وما بعدها .
٢ ـ العمدة ص ١٤٤

هل بالديار ان تجيب صمم لو كان رسم ناطقا كلم

فقد بدأها بالغزل وخرج منه الى الرثاء ثم مدح بعض ملوك الغساسنه ثم اخذ بعد ذلك يفخر بقومه ويهجو اعداءهم .(١)

وهناك الرثاء الذى يغلب عليه التفجع والتحسر ويصاحبه التعزّى والتأسّى ومن ذلك ما قاله لبيد بن ربيعة فى رثاء أخيه " أَرْبَد " :

بَلَيْنا وما تَبلي النجومُ الطوالعُ وتبقى الديار بعدنا والمصانع
وقد كنتُ فى أكنافِ جارِ مَضنَّةٍ ففارقنى جار بأربدَ نافع
فلا جَزِعٌ إن فرَّق الدهرُ بيننا فكل امرئ يوما به الدهر فاجع
وما النَّاسُ إلا كالدِّيارِ وأهلها بها يوم حلّوها وغدوا بَلاقِع
وما المرءُ إلا كالشِّهابِ وضوئه يحُورُ رمادَ ابعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ولابدَّ يوما أن تُرِدَّ الودائع
وما الناس إلا عاملان : فعامل يتبرُّ ما يبنى وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع (٢)

ومن ذلك أيضا ماقاله أبو ذؤيب الهزلى فى رثاء بنيه الخمسة الذين هلكوا بمصر فى عام واحد بالطاعون وكانوا رجالا ذوى بأس ونجدة :

أَمِنَ المنُونِ وريْبِها تتوجع والدهر ليس بمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ
قالتْ أُمَيْمةُ : مالَجسمك شاحبا ! منذ ابْتُذلت ومثلُ مالكَ ينفع
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقضَّ عليك ذاك المضجع
فأجبتها : أما لجسمى أنَّه أودى بنى من البلاد فودَّعوا

---

١ ــ المفضليات ص ٢٣٧ قصيدة رقم (٥٤)
٢ ــ بلينا : من البلى وهو الهلاك والفناء ــ المصانع : المبانى من القصور والحصون ــ أكناف : ظلال ــ جار مَضنَّة : يُضَنُّ به ويُتَنافس فيه ــ بأربَد أى هو أربَد ــ الغدو : الغد ، والبلقع ــ الأرض القفر والجمع بلاقع ــ يحور : يرجع ــ يتبرّ : يُهلك ويَهدم .

أَوْدَى بنيَّ وأَعْقبونى غُصَّةً ... بعد الرُّقاد وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
سبقوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لهواهم ... فتُخُرِّمُوا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ
فغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ ... وإخَال أنِّى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ
ولقد حَرِصتُ بأن أدافع عنهمُ ... فإذا المَنِيَّةُ أنشبت أظفارَها
ألفيت كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ
فالعين بعدهمُ كأنَّ حِداقَها ... سُمِلت بشوكٍ فَهْىَ عُورٌ تَدْمَعُ
حتى كأنى للحوادث مَرْوَةٌ ... بصفا المُشَرَّق كلَّ يوم تُقْرَعُ
وتَجلُّدِى للشَّامتين أُرِيهِم ... أنى لرَيْبِ الدَّهر لا أتَضَعْضَعُ
والنفسُ راغبة إذا رغَّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليل تَقْنَعُ
ولئن بهمْ فجع الزمانُ وريبُه ... إنِّى بأهل مودَّتى لمُفَجَّعُ
كم من جميلِ الشَّمل مُلتئم القُوى ... كانوا بعيش قبلنا فتصدَّعوا (١)

وهى قصيدة رائعة طويلة تحفل بالتعبير والتصوير والمعانى والحكم ومما يسترعى النظر فيها أن الشاعر بدأ ثلاثة أبيات منها بمطلع واحد

---

١ ـ المفضليات ص ٤٢١ وما بعدها قصيدة رقم (١٢٦) ـ المنون : الموت والدهر ايضا وريبها حوادث الدهر وصروفه ـ والدهر ليس ... الخ يعنى الدهر لا يترضى من نالته المصيبة ولا يرجع اليه ما يحبه ـ ابتذلت : أهنت نفسك ولزمت العمل والسفر ـ ومثل مالك ينفع : مالك يسد حاجتك ويعز نفسك ـ أقض عليك المضجع : خشن المضجع وصار تحت جنبك مثل قضيض الحجارة أى الحجارة الصغيرة ـ أما لجسمى : اصلها ان ما ، وما موصولة اى ان الذى لجسمى أنهم أودى بنى أى هلكوا ـ ودعوا : فارقوا أى ما أصاب جسمى بسبب هلاك أبنائى وفراقهم لى ـ هَوَىّ : هواى بلغة هذيل أى ماتوا قبلى أعنقوا ـ أسرعوا تخرموا ! أخذوا واحدا واحدا ولكل انسان نهايته فغبرت اى بقيت والغابر الباقى ـ بعيش ناصب ذى نصب جهد ومشقة الحِدَاق : جمع حدقة ـ سملت : فقئت ـ المروة : حجرة بيضاء يقدح منها النار والصفا : حجر صلد ضخم لا ينبت والمشرَّق المصلَّى وجبل لهذيل وسوق الطائف أصبح كمروة يقرعها بالصفا مرور الناس بها والتورية جميلة.

هو " والدهر لا يبقى على حدثانه " ففى الموضع الأول تحدث عن هلك حمار الوحش ونعته نعتا عجيبا ثم هو فى الثانى يفيض القول فى هلك الثور وينعته وينعت الصائد والكلاب وفى الموضع الثالث يتحدث عن مصرع البطل الفارس الكامل السلاح وينعت هذا البطل وموقفه إزاء بطل آخر يصطرعان ويتشاجران بالسلاح فإذا به قد خرّ صريعا قتيلا وأبو ذؤيب يتخذ من هذه الأنماط الثلاثة عزاء لنفسه وتسلية لها وحضًّا على الصبر ... فهذه الضروب الثلاثة من مظاهر القوى الحيوية لا تُجدى شيئا أمام الموت فهو أقوى وأقدر . ولهذا المنهج الجاهلى أوردت هذا النموذج من شعر الرثاء مع أنه من شعر أبى ذؤيب الإسلامى ، فأنت ترى فى هذه القصيدة نفثة من قلب جريح ونفس حزينة إنه أب فجع فى أبنائه الخمسة الذين كانوا ملء العين والفؤاد إذ طواهم الموت وعدت عليهم المنية فى عام واحد فانطلقت شاعريته بهذه القصيدة الرائعة التى تصور جانبا إنسانيا مأساويا خالدا فى حياة البشر ، وقد جعل الشاعر صدر قصيدته حديثا بينه وبين امرأة تسائلة عن شحوبه وأرقه فيروى لها أحزانه وآلامه ويصور ماحلّ بنفسه من جزع وهَمٍّ لفقد أبنائه ... لقد رآهم والموت يتخطفهم واحدا إثر واحد فلم يستطع له ردًّا ولا دفعا فالموت لا يُغلب وأمره لا يُرد ولابد من الاستسلام لما تأتى به المقادير فليتجلد وليصبر حتى لا يشمت به الشامتون وليُعَزِّ نفسه بأن المنية لا مفر منها ولا منجاة ...

ومن أشد شعر الرثاء لوعة وأسى وحرقه ولهيبا ماجادت به قرائح النساء فقد كان لهن دور كبير فى رثاء القتلى وإثارة الرجال وإشعال نار الحرب والدعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر .. فما يزلن ينحن على القتيل ويبكين فيه شجاعته ونجدته ومروءته وفروسيته حتى تنهض القبيلة وتثأر له ، وكانت لهن تقاليد فى هذا المجال القصد منها الوصول الى الدرجة القصوى فى الإثارة وإلهاب المشاعر وتحريك الأحقاد فكن يحلقن شعورهن ويقفن على القبور ويدرن على مجالس القبيلة ويشهدن المواسم والأسواق ويلطمن الخدود بالأيدي وبالنعال والجلود ... والنساء

كما يقول ابن رشيق (١) أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك لما ركّب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة ، وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء .

فهذه جليلة بنت مرة ترثي زوجها كليبا حين قتله أخوها "جسّاس" وتصور وضعها الحرج بين أهل زوجها وعشيرته وهم جميعا ينظرون إليها باعتبارها أختا للقاتل ولم يفكر واحد منهم ولو للحظة واحدة أنها الزوجة التي ترملت وفجعت في حليلها وشريك حياتها وأنها الحائرة القلقة المترقبة فقد شقيقها وذويها في معركة الثأر التي قد لا تُبْقي ولا تَذَر وياليت الدم المسفوك كان دمها هي إذن لاستراحت ولقرّت عينها ولهذا قلبها بافتداء زوجها وشقيقها والعشيرة كلها .. تقول جليلة :

يا ابنة الأقوام إن لُمْتِ فلا ... تعْجَلي باللَّوْم حتى تسألي
فإذا أنت تبيّنتِ التي ... عندها اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أختُ امرئ ليمت على ... جزع منها عليه فافعلي
فعل جسّاس على ضنّي به ... قاطع ظهري ومدى أجلي
لو بعين فُدِيَتْ عيني سوى ... أختها وانعقات لم أحفل
تحملُ العين قذى العين كما ... تحمل الأم قذى ما تفتلي
إنني قاتلة مقتولةٌ ... فلعلَّ الله أن يرتاح لي
يا فتيلا قوضى الدهر به ... سقف بيتيَّ جميعا من عل
ورماني فقدُه من كثب ... رمْيةَ المُصْمَى به المُسْتأصَل
هدم البيتَ الذي استحدثته ... وسعى في هدم بيتي الاول
مسَّني فَقْدُ كُلَيْبٍ بلظى ... من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن ... إنما يبكي ليوم ينجلي
درَكُ الثائر شافيه وفى ... دركي ثأرىَ ثُكْلُ المُثكل

---

١ ـ العمدة جـ٢ ص ١٤٥ وما بعدها

ليته كان دمى فاحتلبـــــوا دِرَرًا مِنهُ دَمِى من أَكْحَلِـــى (١)

إن أروع ما تمتاز به هذه القصيدة هو ذلك الجانب الانسانى الفـــذ الذى تبرزه من خلال هذا الموقف المأساوى الحرج الذى تعرضت له هـــذه المرأة المنكوبة المعذبة وهذا الثقل الجاثم على صدرها من الحيرة البالغـة والقلق الرهيب مما تنوء بحمله مثلها ... من ترثى ياتُرى؟ أترثى فارسهـا وزوجها ورجلها وحبيب قلبها ؟؟ أم ترى ترثى قاتله وهوشقيقها وأليف روحها وابن أبيها وأمها ؟ ؟ وعلى من تتحسر ؟؟ أتتحسر على زوجها وما أصابه ؟ أم تتحسر على مصير أخيها وعشيرتها ؟ أم تُرى تتحسر على نفسها وقـــد حطت على رأسها كل المصائب ؟ لقد أصبحت هى القاتلة وهى المقتولـــة وهى الظالمة وهى المظلومة وهى اللائمة وهى الملومة فيالرحمة اللـــــه ولطفه بهذه البائسة المنكوبة التى ألقت بها تعاستها على أنقاض بيـــت مستحدث غاب صاحبه ورحل ولن يعود وسعت بها مصيبتها بيـــــن أطلال بيت آخر شهد طفولتها ونشأتها وتعرض بدوره للهدم والانهيار .

---

١ ـ العمدة جـ٢ ص ١٤٦ يا ابنة الأقوام : تشريف وتعظيم للمرأة وفيه تلميـــح لابنة الأصل والحسب أن تراعى الأصول ـ العذَل : اللوم ـ ليمت على جـزع .. الخ تعنى أنها لا تلام على جزعها وإشفاقها على مصير أخيها ـ قاطع ظهرى ومدن أجلى : تصوير لما سببه لها جسّاس من وجيعة وفجيعة تكـاد تودى بحياتها ـ لم أحفل : لا أهتم ولا أبالى ـ القذَى : مايقع فـــى العين وفى الشراب ـ ما تفتلى : الطفل الذى تفطمه وتعزله عن الرضـاع كثَب : قرب ـ المُصْمَى به : أصمى الصيد رماه فقتله فكان ـ الثكـــــل : الموت والهلاك وفقدان الحبيب أو الولد والمثكل من لزمها الثكل ـ الأكحل عرق فى اليد أو هو عرق الحياة .

وفى هذه القصيدة تتمثل روح المرأة برقتها وشجنها ، وأساهـــا وحسرتها ، ولهفتها وحيرتها ، وجزعها وشكايتها ، واستسلامها ومعاناتها وصبرها وتحملها ، واخلاصها ووفائها ، وتضحيتها بنفسها فى سبيل الأهل والعشيرة .. واقتدارها على تصوير فجيعتها ومأساتها وآلامها وأحزانها بصدق وعمق وارتكازها فى أفكارها ومعانيها على ما يتصل بطبيعتها كبنت وأخت وزوجة وأليفة ورفيقة حياة وربيبة بيت نشأت فيه وعاشت طفولتهـــا وشبابها ، وربة بيت تزوجت فيه واتخذته ذخرا لغدها ومستقبلها فهى وفية لكلا البيتين : بيت الأهل وبيت الزوجية ومخلصة لكلا الرجلين : الزوج والشقيق ثم إنها بعد ذلك تتمنى أن لو كان بيدها أن تفتدى الجميـــع بالدم والنفس والروح .

ليته كان دمى فاحتلبوا درر امنه دمى من أكحلـــى

وسيدة أخرى كان لها القدح المعلّى فى الرثاء ألا وهى الخنساء (١) التى جمع شعرها فى رثاء أخويها صخر ومعاوية فى ديوان ويعتبر هـــذا الشعر مثلا حيا للوعة والأسى وغلبة الجزع والإصرار على الأحزان ورفـــض التعزى والسلوان ومن مراثيها الخالدة فى أخيها صخر هذه القصيـــدة التى تقول فيها :

يؤرّقنـى التذكّر حيـن أُمسـى فأُصبح قد بُليت بفَرْط نُكْـــس
على صخرٍ وأىّ فتى كصخـــر ليوم كريهةٍ وطعان خَلـــس ؟
فلم أر مثله رُزءً الجـــن ولم أر مثله رُزءا لإنـــس
أشدُّ على صروف الدهر أيْـدا وأفضل فى الخُطوب بغير لَبْـس
وضيف طارق أو مستجيـــر يروّع قلبه من كلّ جَـــرس
فأكرمه وأمّنه فأمســـى خليًّا باله من كل بـــؤس

---

١ ــ هى تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمى ادركت الاسلام وكان اخوها معاوية وصخر من سادات العرب وقد قتل معاوية فى غزاه فحزنت عليـــه ورثته فلما قتل صخر اشتد بها الجزع وفاض بها الحزن فاندفعـــت تنشىء مراثيها الخالدة تسكب فيها آلامها ودموعها ونفثات قلبها المكلوم وقد استشهد اولادها الاربعة فى حرب القادسية وتوفيت فى خلافـــة معاوية .

يُذَكِّرُنِي طلوعُ الشمس صخرا ... وأذكرُهُ لكلِّ غروب شمس
فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسي
ولكن لا أزال أرى عَجُولا ... ونائحةً تنُوح ليوم نَحْس
هما كلتاهما تبكي أخاها ... عشيَّةَ رُزْئه أو غِبَّ أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن ... أعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي
. . . . . .

فلا واللَّهِ لا أنساك حتى ... أفارِقَ مُهْجَتِي ويُشَقَّ رَمْسي
فقد ودَّعتُ يوم فراق صخرٍ ... أبَى حسانَ لذَّاتي وأُنسي
فيالَهفي عليه ولَهْفَ أمِّي ... أيُصبح في التراب وفيه يُمْسي ؟ ! (١)

تصور الخنساء فداحة مصابها في أخيها صخر وتعبر عن أرقها وسُهدها حين يقبل الليل وتنتابها الذكرى فهي حزينة على صخر وليس أحد كصخر في خوض المعارك ونزال الأعداء وأن مصيبتها فيه مصيبة لم يصب بمثلها إنس ولا جن لقد كان أيْدا قويا في مواجهة الشدائد ونوائب الزمن وأفضل من يتصدَّى للخطوب والأحداث .. يجد الأضياف قِراهم في رحابه كما يجد المروَّعون في حماه الأمن وراحة البال وإنها لتذكره كل صباح ومساء وفي سائر الأوقات فتبكيه في كل حين لا كهذه المروَّعة برزء حديث ولا كتلك الناتجة على زرء قديم وكلتاهما تحزن وتبكي على فقيدها يوما أو بعض يوم وليس من فقدته واحدة من كصخر ولكنها التعزية والسلوى للنفس الجازعة وهي

---

١ - النكس : عودة المرض بعد النقه - يوم كريهة : يوم حرب - طِعان خَلْس الطعن السريع في مهارة وخفاء - الرزء : المصيبة - صروف الدهر : نوائبه الأيْد : القوة - الخطوب : المصائب والاحداث جمع خطب - لبس : شبهة طارق : آت ليلا - يروع : يفزع - العجول : الثكلى المولهة - غِبّ أمس : بعد أمس : التأسي : التصبر - الرمس : القبر - أبي حسان : كنية صخر .

لن تنسى صخرا ما ظلت على قيد الحياة وقد ودعت لذتها وأنسها يوم ودعته وفارقته وفي لهفة بالغة وصيحة والهة تعبر عن جزعها وضيقها لكون أخيها في التراب صباح مساء . ومن شواهد الإبداع في هذه القصيدة ما نجده في البيت الثاني من استفهام بقصد تعظيم صخر ونفي أن يكون غيره مثله شجاعة وغناء في الحرب " وأى فتى كصخر " وفي قولها " يوم كريهة " كناية عن الحرب تصور بشاعتها وآلامها وفي البيت الثالث " فلم أر مثله رزءا . . . . " مبالغة شديدة دفع إليها الحزن البالغ والتعبير بأنه أفضل في الخطوب دون ذكر المفضل عليه يشعر بأن أحدا لا يشاركه هذا الفضل ، وتذكرها لصخر عند طلوع الشمس ولدى غروبها إشعار بما كانت متعودة عليه من وداع لأخيها حين سعيه وانطلاقه في الصباح واستقباله والطمأنينة عليه لدى عودته في المساء أو لعلها تذكر بالشروق والغروب دورة الحياة والموت بالنسبة للإنسان .

وما أشد وقع هذه الصيحة النابعة من أعماق قلب جريح " يالهفي عليه ولهف أمي . . " إنها صيحة ملتاعة لا تقدر عليها إلا امرأة مكلومة كالخنساء أما الاستفهام بعد ذلك فإنه يحمل من معاني العجب والذهول والاستهوال والتحسر ما يحمل " أيصبح في التراب وفيه يمسى ؟ ! " وقد أتم الطباق بين يصبح ويمسى هذه الصورة المؤلمة بما أفاده من معنى الدوام والاستمرار في التراب وهو الذى كان من قريب ملء السمع والبصر والفؤاد والنص يعبر عن روح المرأة وما تتسم به من طغيان العاطفة وحدتها وصدقها وتوهج إحساسها وتدفق مشاعرها ورقة أسلوبها وما تحمله كلماتها من إيحاء بوقدة الأسى ولهيب الالتياع وما تدور حوله معانيها وأفكارها من هذه الجوانب الإنسانية والخواطر الفطرية والفضائل النفسية التي مزجتها بإحساسها الحزين وحققت بها مثالية الشخصية التي ترثيها وتبكيها وتحاول أن تختصها بما يرفع قدرها عن سائر الشخصيات وبذلك تكون مصيبتها لا تدانيها مصيبة وهكذا بلغت برثائها الغاية القصوى من التأثير . .

وأخيرا فان هناك لونا طريفا من الرثاء يندب فيه الشاعر نفسه ويصف ما يصنعه به أهله بعد موته من ترجيل شعره ووضعه فى مدارج الكفن ثم لحده ودفنه وكان الشاعر بذلك ينعى نفسه إذا أحس داعى الموت ويكون ذلك منه على سبيل العظة والاعتبار والتذكير بالحقيقة الكبرى فى حياة كل إنسان ألا وهى الموت ... وهذا اللون من الرثاء يحمل فى ذاته إثارة قوية ويحرك فى النفوس مشاعر متعددة وأحاسيس ثرية لأن الشاعر يرثى نفسه وهو على قيد الحياة ويواجهها بالمصير المحتوم دون رهبه أو وجل مما يتيح له المزيد من الأفكار والطريف من الخواطر والمثير من المشاعر مع مافيها من صدق العاطفة ومرارة الإحساس بالنهاية بعد هذه المرحلة الطويلة الشاقة فى الحياة وتلك لعمرى تجربة قلما يتاح مثلها للشعراء ... ومن هذا اللون الطريف من الرثاء هذه الأبيات التى تنسب للمزق العبدى أو ليزيد بن الخذّاق والتى يقول فيها :

هل للفتى من بناتِ الدّهر من واق ... أم هل له من حِمام الموتِ من راق
قد رجّلونى وما رُجِّلْتُ من شَعَثٍ ... وألبسونى ثيابا غيرَ أخلاق
ورفعونى وقالوا : أيُّما رَجُلٍ ... وأدرجونى كأنّى طىُّ مِخْراق
وأرسلوا فتيةً من خيرهم حسبا ... ليُسْنِدُوا فى ضريح التُّرب أطباقى
هوِّن عليك ولا تَوْلَع بإشفاق ... فإنما مالُنا للوارث الباقى
كأننى قد رمانى الدهرُ عن عُرُضٍ ... بنافذات بلا ريشٍ وأفواق (١)

---

١ ـ المفضليات ص ٣٠٠ قصيدة رقم (٨٠) بنات الدهر : احداثه ومصائبه ـ حمام الموت : دنوه ـ راق : من الرقية لدفع الشر ـ رجلونى : من الترجيل وهو تسريح الشعر وتمشيطه ـ الشعث : تغرق الشعر وانتفاشه ـ الأخلاق : الممزقة البالية ـ طى مخراق : عمامة يلهو بها الصبيان ويضرب بها بعضهم بعضا ـ الاطباق : المفاصل واحد ما طبق ـ تولع من ولع بالشىء اذا لزمه ولج فيه ـ رماه عن عرض : أى عن شق وناحيه لا يباليه ـ النافذات : السهام ـ الأفواق : جمع فوق مجرى الوتر من السهم.

هكذا حم قضاه وواتاه أجله ومصيره دون أن يكون هناك من يحميه أو يدفع عنه عادية الموت ... وبادر أهله وذووه فمشطوا شعره ولفوه في ثياب جديدة ثم رفعوه وأودعوه لحده تتلقفه يد من يد وكأنه شيء يتلهى به في أيدي صبية إذ لا يملك من أمر نفسه شيئا ... فهون عليك ولا تخش موتا أو فقرا فكل مالك إنما هو للوارث الباقي والدهر يرمي يسهامه فيصيب بها ولا يبالي ... والأبيات مؤثرة بما فيها من الصدق العاطفي والخواطر الفطرية المؤثرة والإدراك الواعي لمصير الإنسان ، وبما فيها من إشارات وتلميحات إلى بعض مظاهر البيئة التي تأثر بها وعاش فيها ... ومما تجدر الإشارة إليه أن شعرنا الإسلامي يحتفظ بقصيدة رائعة لمالك بن الريب وهو يرثي نفسه ويوصي صحبه أن يترفقوا به ويحسنوا رعايته إلى أن يواروه التراب وهي قصيدة إسلامية تفطر عذوبة ورقة وتتسم بصدق العاطفة ومرارة الإحساس بالغربة والموت في مكان قفر بمنأى عن الأهل والأبناء والاقتدار العجيب على تصوير هذه اللحظات الحرجة في حياة الإنسان .

يقول مالك :

فيا صاحِبَيْ رَحْلي دنا الموتُ فَاحْفِرا ... برابية إني مقيم لياليا
وخُطَّا بأطراف الأسنَّةِ مضجعي ... ورُدَّا على عينيَّ فضلَ ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما ... من الأرض ذات العَرضِ أن تُوسِعا ليا
تذكرتُ من يَبكي عليَّ فلم أجد ... سوى السيفِ والرمحِ الرُّدَيْنيِّ باكيا
وبالرمل مني نسوة لو شَهِدْنني ... بَكَيْن وفدَّين الطبيبَ المداويا (١)

---

١ ــ الشعر والشعراء ص ١٦٦

سابعا : فى الاعتـــــذار

الاعتذار فى اللغة قد يكون من المحو والازله من قولهم " اعتذرت المنازل " إذا درست ومحيت آثارها وأزيلت معالمها وكأن المعتذر باعتذاره قد محا وأزال آثار الغضب والموجدة من نفس المعتذر إليه ٠

وقد يكون من الانقطاع يقولون " اعتذرت المياه " إذا انقطعت وكـأن المعتذر باعتذاره يقطع المعتذر إليه عما أمسك فى قلبه من الموجـــــدة عليه وقد يكون من الحجز والمنع يقال " عذرت الدابة " اى جعلت لها عـذارا يحجزها ويمنعها من الشراد وكأن المعتذر باعتذاره يحجز ويمنع العقوبـــة والعتب عليه (١) وفى الاصطلاح الأدبى هو فن من فنون الشعر يقصـــد به استلال الموجدة من نفس المعتذر إليه وإزالة ما يكون قد علق بها مـن شوائب بإثبات حسن نيته والحرص على مودته وأن التعرض لسخطه وغضبـه ليس باستطاعته وأنه طامع فى صفحه وعفوه والتجاوز عن هفوته ٠٠٠ والاعتذار وثيق الصلة بفنى المدح والهجاء فقد يهجو الشاعر فعلا أو يتوهم من قولـه الهجاء أو يُدّعى عليه ذلك فيعتذر ويدافع عن نفسه ويكشف عن قصده ويتنصل مما رمى به ثم إنه من خلال اعتذاره يمدح من يعتذر إليه ويشيد به ويرفع مـن قدره ويعلى مكانته ومنزلته وينعته بالخلق العظيم والحلم الواسع والعفو الكريم وقد يمدح الشاعر أناسا هم اعداء الملك أو رئيس أو أمير تربطه به صلـــة فيتعرض لغضبه وسخطه وتهديده ووعيده فما يكون من الشاعر إلا أن يعتـذر ويتعلل بالأسباب ويسوق ما يشاء من الحجج التى يؤيد بها موقفه ويبرر فعله ويدافع عن نفسه حتى لا يتعرض لموءاخذة أو عقاب لا يستطيع لـــه احتمالا ولا أن يُخلىَ منه بالا ٠

وإذا كانت العاطفة الدافعة إلى المديح تتمثل فى التقدير والإعجـاب والإجلال ٠٠٠ والعاطفة المثيرة للهجاء تتمثل فى المقت والكراهية والازدراء

١ــ العمدة جـ ٢ ص ١٧١ وما بعدها ٠

فإن العاطفة التي تقف وراء الاعتذار تكمن في الخوف والرهبة والإشفاق والأمل والرجاء والرغبة الملحّة في معاودة الوُدّ والتوسل إلى التقـــرب من المعتذر إليه طمعا في عفوه وأملا في رضاه وكسب وده وصفاه ..

وليس بلازم أن يكون الاعتذار وقفا على الملوك والأمراء وذوى السلطان بل قد يكون موجها إلى الأصدقاء والإخوان وذوى القربى من عامة النـــاس ممن تربطهم بالشاعر علاقات وصلات ... غير أنه باعتباره فنا شعريا ارتبطت شهرته منذ العصر الجاهلي بالملوك وذوى الشأن والسلطـان مثل ما نـــرى من اعتذاريات النابغة للنعمان .

والاعتذار قليل في الشعر الجاهلي لم يبلغ حد المديح والهجاء ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة العربي وأنفته وإبائه للضيم وما جبل عليه من جـــرأة وصراحة وخشونة وغلظة وبخاصة شعراء البادية الذين لم ترقق طباعهـــم ليونة العيش في القرى والحضر وبيئات الترف والنعيم .

وهذا الجانب من الليونة والرقة والتلطف في القول واختيار المهـذب من الكلام يظهر بوضوح في شعر النابغة الذبياني الذي عايش الملـــوك والأمراء وسكن القصور ودخل الصروح وأكل في صحاف الذهب والفضـــة ونشأ في بيئات الترف والنعـيم ، ولذلك تكاد تكون اعتذارياته مضرب الأمثال لهذا الفن القليل النادر بل انها تعد بحق النموذج الذي ينبغـــي أن يحتذى ويتبع وينسج على منواله ويلتزم بخصائصه وقد أشار ابن رشيـــق إلى هذه الخصائص في قوله " وينبغي للشاعر أن لا يقول شيئا يحتاج أن يعتذر منه ، فإن اضطره المقدار الى ذلك واوقعه فيه القضاء فليذهـــب مذهبا لطيفا وليقصد مقصدا عجيبا وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتـــذر إليه وكيف يمسح أعطافه ويستجلب رضاه ، فإن إتيان المعتذر من بـــاب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ ، لا سيما مع الملوك وذوى السلطـــان ،

وحقه ان يلطف برهانه مدمجا فى التضرع والدخول تحت عفو الملك وإعـــادة النظر فى الكشف عن كذب الناقل ولا يعترف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه ، ويحيل الكذب على الناقل والحاسد ...» (١)

وأكاد أزعم أن ابن رشيق وضع نصب عينيه اعتذاريات النابغة الذبيانى واستنبط منها هذه الخصائص والسمات باعتبارها من أدق وأوفى ما قيل فى الاعتذار وهى القصائد الثلاث التى اعتذر بها النابغة الى النعمـــان ابن المنذر والقصيدة الأولى مطلعها :

يادارَ مَيَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَـــدِ أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَمَدِ

وفيها يقول :

فـــلا لعَمْرُ الذى مسَّحْتُ كعبتَـــه وما هُريق على الأنْصاب من جسد
جسد والمؤمنِ العائذات الطيرَ تمسَحُها ركبان مكة بين الغِيل والسَّنَـــدِ
ما قلت من سيئ مما أُتيتَ بـــــه إذًا فلا رفعت سوطى إلىَّ يـدى
إذًا فعاقبنى ربى معاقبـــــةً قرَّت بها عينُ من يأتيك بالحسـد
إلا مقالةَ أقوام شقيتُ بهـــــا كانت مقالتهم قرعا على الكبـــد
نبئت أنَّ أبا قابوس أوْعَدنـــــى ولا قرار على زَأْرٍ من الأسـد (٢)

١ــ العمدة جـ ٢ ص ١٦٧ وما بعدها .
٢ــ العمدة جـ ٢ ص ١٦٩ ــ مسَّحت : مسَحت وتمرير اليد عليها على سبيـل التبرك وهريق أى أريق بمعنى صب والأنصاب جمع نصب : حجارة أو غيرهـا كان الجاهليون ينصبونها ويذبحون القرابين عندها والجسد الدم ، العائذات : اللاجئات المعتصمات بالبيت والغيل : موضع وبمعنى الغيضة أيضا والسند ما قابلك من الجبل وعلا ــ أُتيتَ به : نقل إليك ــ يأتيك بالحسـد يأتيك بالأخبار وهو مملوء حسدا على مكانتى عندك ــ أبو قابوس : كنيـــة النعمان بن المنذر ــ أوعدنى : هددنى ــ فى هذه الأبيات يقسم الشاعـر بالله والكعبة وما أريق على الأصنام من دماء والطير المؤمنة فى حمى الكعبة =

والقصيدة الثانية مطلعها : أرسما جديدا من سعادَ تجنّب ؟
وفيها يقول :

أتانى أبيتَ اللّعْن أنّك لُمتَنى ... وتلك التى أهْتَمّ منها وأنْصَبُ
فبتُّ كأنّ العائدات فرشْن لى ... هَراسا به يُعلى فراشى ويُقْشَب
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّى خيانةً ... لمُبْلِغُك الواشى أغشُّ وأكذب
ولكننى كنت امرأً لىَ جانب ... من الأرض فيه مُسْتَرادٌ ومَهْرب
ملوك وإخوان إذا ما لَقيتُهم ... أحكّمُ فى أموالهم وأقرّب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركنّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مَطْلِىٌّ به القارُ أجرب
ألم تر أنّ اللهَ أعطاك سُورةً ... ترى كلّ مَلْكٍ دونها يتذبّذب
فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكب
ولستَ بمستبق أخا لا تلمّه ... على شَعَثٍ أىّ الرّجالِ المُهذّب؟ !
فإن أك مظلوما فعبدا ظلمتَه ... وإن تك ذا عُتْبى فمثلك يُعْتَب (١)

=أنه ما قال شيئا مما رمى به ولو قد فعل فليشل الله يده وليعاقبه عقابا يسر حساده واعداءه لقد كان لمقالة السوء ووشاية الكذب وقع سيء فى نفسه إذ ادمى قلبه وجاء وعيد الملك وتهديده فحرمه الطمأنينة والاستقرار وكيف يطمئن وزئير الاسد يصم اذنيه ويقض مضجعه ؟ !

١ - أبيتَ اللّعْن : دعاء جاهلى بأن يجتنب كل ما يذم عليه ويلعن - أهتم يصيبنى هم وأنصب : وأتعب تعبا شديدا - العائدات : زائرات المريض او الهموم التى تعاود المرء الهراس : نوع من الشوك - يقشب : يجدد - مسترادّ : مكان يتردد فيه المرء - ومذهب : مكان ذهاب - اصطنعتهم احسنت اليهم وعمرتهم بمعروفك - الوعيد : التهديد - مطلى به القار الجمل الاجرب الذى يطلى بالقار علاجا له - سورة : منزله او سطوه يتذبذب : يهتز - لا تلمه : ولا تجمعه ولا تضمه على ما فيه من عيب - شعث : تفرق وانتشار - اى الرجال المهذب : الاستفهام بمعنى النفى أى لا أحد كامل تماما من الناس .

يقول الشاعر : بلغنى وقيت كل نقص تعاب به أنك عاتب على وذلك ما يحزننى ويتعبنى حتى لكأن همومى تجدد لى شوكا أتقلب عليه كلما آويت إلى فراشى ، وانى أحلف بالله وليس بعد الله أحد أنى لم أخن عهدك و أن ما بلغك عنى من وشاية كذب وخداع وكل ما فى الأمر أننى آويت إلى مكان فيه متسع للرزق وزرت ملوكا وإخوانا أكرموا وفادتى وأطلقوا يدى فى أموالهم أنفق منها كيف أشاء فشكرتهم كما يشكرك من أحسنت إليهم فإذا كنت لا تعد شكر هؤلاء الناس لك ذنبا فكيف تعد شكرى لهؤلاء الملوك والإخوان خطيئة أحاسب عليها ؟! وانى أتوسل إليك ألا تتركنى بوعيدك وتهديدك منبوذا يبتعد عنى الناس خوفا منك حتى صرت كالجمل الأجرب المطلى بالقار تنفر منه الإبل ويبتعد عنه الناس وحق للناس أن يتحاشوه ويخشون قربه وقد أوعده بالعقاب ملك ذو بطش وجبروت ترهبه الملوك ولا تستطيع الوصول إلى منزلته ومكانته فهو بينهم كالشمس بين الكواكب إذا طلعت حجبتها وغطت عليها وهبنى أخطأت فمن من الناس من لا يخطىء ؟ أوليس النقص من طبيعة الإنسان ؟ أوليس يعز وجود الإنسان الكامل فى هذه الحياة ؟ وهبنى بعد ذلك كله ظلمت فما أنا إلا عبد ظلمه سيده أما إذا رضيت عنى فأنت الجدير بأن يبذل فى سبيل استرضائه كل شىء . هكذا وصف الشاعر حاله عند ما بلغه غضب النعمان عليه .

وهكذا تتصل من ذنبه ورد الأمر إلى نكاية الوشاة الكاذبين وبسط القول فيما حدث منه من تقرب الى الغساسنة بما لا يدع مجالا لشك ..... وهكذا توسل إلى الملك ألا يتركه بين الناس كالبعير الأجرب وأخذ يعظم من شأنه النعمان ويعلى قدره بين الملوك ويستعطفه أن يرفق به حتى لو كان قد أخطأ فليس أحد من الناس معصوما من الخطأ ثم ختم آخر الأمر اعتذاره بما يستل أى ضغينة من نفس النعمان بأن هوّن من شأن نفسه وعظم من شأن مليكه فما هو إلا عبد ظلمه سيده وما النعمان إلا الملك الجدير بأن يبذل فى سبيل استرضائه كل شىء .

والقصيدة الثالثة مطلعها :

عفا ذو حسى من فرتنا فالفوارع ... فشطا أريك فالتلاع الدوافع

وهي تمضي على النمط السابق ومنها قوله :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل بأثمن ذو إمّة وهو طائع

لكلّفتني ذنبَ امرئ وتركتَه ... كذى العُرّ يُكْوَى غيرُه وهو راتع

فإن كنت لا ذو الضّغن عنى مُكذّب ... ولا حلفى على البراءة نافع

ولا أنا مأمون بشيء أقوله ... وأنت بأمر لا محالةَ واقع

فإنك كالليل الذى هو مُدركى ... وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حجن فى حبال متينة ... تُمَدُّ بها أيد إليك نوازع

أتوعد عبدا لم يخنك أمانة ... ويترك عبد ظالم وهو ظالع

وأنت ربيع يُنْعش الناسَ سيبُه ... وسيف أُعيرتْه المنية قاطع

أبى الله إلا عدله ووفاءه ... فلا النكر معروف ولا العُرف ضائع (١)

إنه يحلف لينتزع الريبة من نفسه . واليمين الصادقة لا اثم فيها ـ انه جعله مذنبا وهو البرئ وترك المذنب الحقيقى راتعا فى امان فكان كالجمل الصحيح يكوى بينما يترك الاجرب يرتع كما يشاء واذا كنت لا تكذب الواشى الحقود ولا تصدق حلفى وايمانى فسوف يدركنى عقابك كما يدرك الليل برهبته كل كائن وانت لابد واصل الى لا استطيع الافلات منك كالدلو

---

١ ـ ذو إمة : ذو دين ـ العُرّ : الجرب ـ الضغن : الحقد ـ خطاطيف جمع خطاب : حديدة بشكل خاص تعلق بالدلو ـ حجن : جمع احجن وحجناء اى معوجه ـ نوازع : جمع نازعه من نزع الدلو اذ جذبها واستقى بها ـ ظالع : مائل عن الحق ـ ينعش الناس سيبه : يحييهم وينشطهم عطاؤه وفيض كرمه ـ ابى الله ... الخ : لا يقر الله إلا العدل والوفاء العرف : المعروف وما تبذله وتعطيه .

المعلقة بخطاف اعقف لا تستطيع منه فكاكا وما على الأيدى إلا أن تجذب وتنزع لتنقاد خاضعة مستكينة ويقرر أنه يهدده ويتوعده وهو العبد الأمين بينما يترك عبد ظالم مائل عن الحق بغير تهديد ولا وعيد ويصف الملك النعمان بأنه كالربيع يحيى الناس بفيض عطائه إذا رضى وإن غضب كان سيفا قاطعا ويسلم الشاعر أمره لعدل الله الذى لا يضيع عنده المعروف ولا يكون المنكر عنده معروفا .

وبالتأمل فى هذه القصائد الثلاث يتضح عبقرية النابغة وشاعريته الناضجة المتوهجة واقتداره العجيب على لمس أوتار القلوب وتحريك المشاعر فى اتجاه العفو والصفح والغفران مهما كانت درجة الغضب ومهما كان دهاء الوشاة الكاذبين والعجيب المثير أن النابغة يعزف على كل وتر ويشدو بكل نغم ويتحرك فى كل اتجاه ويطرق كل باب فيتسنّى له بذلك أن يغزو كل قلب ويتسلل إلى كل وجدان ويسيطر على كل شعور وإحساس ويحظى آخر الأمر بكل تقدير وإعجاب .

وممن اشتهر من شعراء الجاهلية بالاستعطاف والاعتذار عدى بن زيد العبادى الذى أجاد إجادة بالغة فى هذا الباب وكان خصوم عدى قد وشوا به إلى النعمان بن المنذر حتى اشتد غضبه عليه فلما قدم عدى من المدائن إلى الحِيرَة بادر النعمان بحبسه فأخذ عدى يقول الشعر يستعطف به النعمان ويطلب رضاه وله فى هذا الباب قصائد كثيرة جيدة منها قوله :

ألا من مبلغ النعمان عنى ... وقد تُهدَى النصيحةُ بالمغيب
أحظى كان سلسلة وقيدا ... وغُلاًّ والبيانُ لدى الطبيب
وبيتى مُقْفِر الأرجاء فيه ... أرامل قد هلكن من النحيب
يحاذرن الوشاة على عَدِىٍّ ... وما اقترفوا عليه من الذنوب
فإن أظلم فقد عاقبتمونى ... وإن أُظْلَم فذلك من نصيبى
وإن أهلك تجد فقدى ونجدى ... اذا التقت العوالى فى الحروب

وما هذا بأول ما ألاقـــــى ... من الحدثان والعرض القريـــب
فهل لك أن تدارك مالدينـــا ... ولا تغلب على الرأى المصيـــب
فإنى قد وكلت اليوم أمـــرى ... إلى ربٍّ قريبٍ مستجيـــــب

إنه يناجى النعمان وهو بعيد عنه ويوجه إليه النصيحة وهو غائب عنه كيف يكون حظه ونصيبه السلاسل والقيود والأغلال والأمراض فى السجـــن وقد أقفر بيته وخلا من مظاهر الحياة وارتفع فيه نحيب النساء على من كان لهن عائلا وحاميا وسندا متينا وهن مشفقات من أقوال الوشاة وما يدعونه عليـــه من أكاذيب فإن كنت ظالما فقد عاقبتمونى على ظلمى وإن كنت مظلومـــا فذلك نصيبى ولما قُسم لى وإن هلكت فسيذكرنى الجميع فى الشدائد والحروب وما أصابنى ليس بأول ما أصبت به من أحداث الحياة ومصائب الزمـــن ويتوسل عدى إلى النعمان أن يتدارك الأمر ويرجح كِفَّة الرأى الصواب أمـــا هو فقد وكل أمره إلى الله وهو قريب يجيب دعاء من ناداه ... ونلحـــظ أن عديا يأخذ بطرف مما جادت به قريحة النابغة فى اعتذارياته لكنه لا يبلغ شأوه ولا يصل إلى مداه ..

ولذلك يقول عنه صاحب الأغانى " عدى شاعر فصيح من شعراء الجاهلية وليس ممن يُعَدّ فى الفحول وهو قروى وكان الأصمعى وأبوعبيدة يقولان : عدى فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها مجراها "(١) ويقول ابن سلام الجمحى " وعدى كان يسكن الحيرة ويراكز الريف ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحمل عليه شىء كثير وتخليصه شديد واضطـــرب فيه خلف وخلط فيه المفضّل فأكثر ..."(٢) فقد امتازت ألفاظه بالرقـــة والسهولة فليس فيها جزالة الشعر البدوى وقوته كما كثرت الألفاظ الأعجميـــة المعربة فى شعره ومع ذلك كان شعره رائع المعنى بارع الخيال يحلـــق

---

١ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، جـ٢ ص٩٧
٢ ـ طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٠ .

به في آفاق الحضارة الوارفة الظلال ، ولسهولة شعر عدى وعذوبة موسيقاه كثر العناء به وقد عدد أبو الفرج الأصفهانى بعض الألحان التى صنعت فى شعره . (١)

ثامنا : فى الحكمة :

الحكمة وخلاصة الخبرة والتجربة والمعانى الخلقية التهذيبية التى تحتاجها الجماعات كما يحتاجها الأفراد من الأمور المعروفة من قديم الزمان لدى جميع الأمم التى لها آداب تروى وفنون قولية تنسب إليها ....

ولم تكن أمة العرب فى جاهليتها بمعزل عن هذه الحكم والمعانى الخلقية التهذيبية كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان لكثرة ما يتردد عن حياة العرب فى الجاهلية من ضلال وبغى وعدوان ووثنية وشرك وجهالة وسفاهة وعصبية وفساد وسفك دماء ... الخ .

وذلك لأنه فى مثل هذه البيئة التى تتصف بهذه الصفات تنشأ الحكمة وتنمو ويعظم قدرها ويعلو شأنها وتنمو معها الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والدعوة إلى التمسك بالمبادئ والقيم والفضائل ونبذ السوء والشر ومدافعة الرذائل .. وقد ظهر فى هذا العصر رجال من ذوى الأحلام والسيادة والشرف ينطقون بالقول الفصل ، ويدعون إلى الخير ، ويحثون على الفضائل ، وينفرون من الرذائل ، وينشدون الحق والعدل ، وينشرون دعوة السلام والوئام ، ويبثون هذه المعانى فيما ينظمون من شعر ، وما يصدر عنهم من قول ، ولذلك كثرت فى الشعر الجاهلى هذه الحكم والمعانى الخلقية التهذيبية يبرزونها من خلال أغراضهم المختلفة وموضوعاتهم المتعددة بل قد تصادفنا مقطوعات ممتدة فى إطار القصيدة تنفرد بالحكمة وخلاصة التجربة وذلك إذا خرجت مخرج الوصية والموعظة الحسنة من مثل ما صنع " عمرو بن الأهتم " فى

---

١ - الأغانى جـ ٢ صـ ١٤٦

وصيته لابنه " رِبْعِيّ بن عمرو " إذ يقول :

لقد أوصيتُ رِبْعِيَّ بن عمرو ... إذا حزبتْك عشيرتك الأمورُ
بأنْ لا تُفْسِدن ما قد سعَيْنا ... وحفظ السُّورة العليا كبير
وإن المجدَ أوله وُعُورٌ ... ومصدر رغبةٌ كرَمٌ وخير
وإنك لن تنال المجدَ حتى ... تجودَ بما يَضَنُّ به الضمير
بنفسك أو بمالك في أمورٍ ... يهاب ركوبَها الورِع الدَّثُور
وجارى لا تُهينَنَّه مضيفي ... إذا أمسى وراء البيت كُورُ
يؤوب إليك أشعث جرَّفتْه ... عَوَانٌ لا يُنَهْنِهها الفُتُور
أصِبْه بالكرامة واحتفظه ... عليك فإن مَنْطِقَه يسير
وإنَّ من الصَّديق عليكَ ضِغْنا ... بدا لي إنني رجل بصير
بأدواء الرجال إذا التقينا ... وما تُخْفي من الحَسَكِ الصُّدور
فإن رفعوا الأعِنَّةَ فارفعَنْها ... إلى العُليا وأنت بها جَدير
وان جَهَدُوا عليك فلا تهبهم ... وجاهدهم إذا حَمِيَ القَتِير
فإن قصدوا لِمُرِّ الحق فاقْصد ... وإن جاروا فَجُرْ حتى يصيروا (١)

---

١ ـ المفضليات قصيدة (١٢٣) ص ٤٠٩ وما بعدها : حزبت : دهمت وفجئت السورة : المنزلة الرفيعة والمجد الكبير ـ عُبة : عاقبته ـ الخير : الكرم الورع : المتحرج الخائف ـ الدثور : الخامل النؤوم ـ الكور : الخشب والأداة للرجل اذا كان الضيف ينزل بأدبار البيوت حتى يهيأ له مكان وحمله إذا امسى ... كناية عن وقت العسرة والشدة إذ لا يجد الضيف من يكرمه الأشعث : الباس المفرق الملبد شعره ـ جرفته : أذهبت ماله ـ عَوَان كل ما ليس بأول والمقصود هنا مصيبة نزلت به مرة بعد مرة ـ لا ينهنها الفتور لا يردها السكون ـ احتفظه عليك : اختصه لنفسك فان منطقه يسير : ماينطق به من مدح أو ذم يسير في الناس ويحفظه الرواة . الحَسَك : الحقد والعداوة ـ فان رفعوا الأعِنَّة ... الخ مثل يريد ان سابقوك فاسبق وانت جدير بالسبق ـ القتير : رؤوس مسامير الدروع وحمي القتير كناية عن اشتداد المعركة ـ حتى يصيروا : اي حتى يعطفوا الى الحق يقول ان حادوا عن الحق فاشدد عليهم حتى يقبلوا به .

ومن مثل ما جاء على لسان زُهَيْر بن أبى سُلْمى فى معلقته :

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعِـــش ... ثمانين حوْلا لا أُبالكِ يَسْـــأَم
وأعلم ما فى اليوم والأمسِ قبلَـــه ... ولكنّنى عن علمِ ما فى غَـــدٍ عَـــمِ
رأيتُ المنايا خبْطَ عشواءَ من تُصِـــب ... تُمِتْه ومن تُخْطِئ يُعمَّر فيهْـــرَم
ومَنْ لم يُصانع فى أمورٍ كثيـــرةٍ ... يضرَّس بأنياب ويُوطَأ بِمَنْسِـــم
ومن يجعل المعروفَ من دون عرضـه ... يَفِرْه ومن لا يتق الشتمَ يُشْتَـــم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضلـــه ... علَى قومه يستغنِ عنه ويُذْمـــم
ومن يُوف لا يُذْمم ومن يُهْد قلبُـــه ... إلى مُطمئن البِرِّ لا يتجمجـــم
ومن هاب أسباب المنايا ينلْنَـــه ... وإن يرق أسبابَ السماء بسلَّـــم
ومن يجعلِ المعروفَ فى غيرِ أهلـــه ... يكن حمدُه ذمًّا عليه ويَنْـــدم
ومن يَعْصِ أطراف الزِّجاج فإنـــه ... يُطِيعُ العوالى رُكِّبت كلُّ لَهْـــذَم
ومن لم يذد عن حَوْضه بسلاحـــه ... يهدَّم ومن لا يظلِم الناسَ يُظلـــم
ومن يغترب يَحْسب عدوا صديقَـــه ... ومن لم يكرِّم نفسَه لم يُكـــرَّم
ومهما تكنْ عندَ امرئٍ من خَليقـــةٍ ... وإنْ خالها تخفى على الناس تُعْلَم (١)

---

١ ـ شرح المعلقات العشر للزوزنى ص ١٥٠ وما بعدها ـ تكاليف الحياة مشاقها وشدائدها ـ لا أبالك : الأصل فيها دعاء على المخاطب بفقد الأب او اتهام وتشكيك فى نسبته الى أبيه والمقصود هنا التنبيه والإعلام ـ عَمِ : اى عمى قلبه عن الإحاطة بما سوف يحدث ـ العشواء : الناقة التى لا تبصر ليلا وخبطها مشيها على غير هدى ـ يعمَّر : يعيش طويلا ـ يهرم : يشيخ ويعجز ـ يصانع الناس : يداريهم فى كثير من الأمور ـ يضرَّس بأنياب : يعض عليه بالضروس ـ يوطأ بمنسم : يداس بخف البعير والمَنْسِم كمجلس خف البعير ـ يَفِرْه : يحفظه ويكثره يعنى من يبذل المعروف يصن عرضه ومن يوف اى بالعهد والبر الخير لا يتجمجم لا يتردد فى فعله ـ الزجاج جمع زج وهو الحديد المركب اسفل الرمح واللَّهْذم السنان الطويل يركب فى عوالى الرماح ولمعنى من ابى الصلح ذللته الحرب اذا التقت فئتان سددت كل منهما زجاج الرماح نحو الاخرى انتظارا للتصالح فان لم يتم قلبت الرماح ووقع الاشتباك بالاسنة . يذود : يكف ويردع والحوض ما يجمع فيه الماء ومن لا يظلم الناس يظلم : اى من لم يحم نفسه ويتسلح بالقوة ويدفع اى رغبة فى العدوان عليه يظلم ومن يغترب يحسب الأعداء فعلا اصدقاء لانه لم تكن له معهم تجارب تكشف عن طبائعهم الخليقة : الخلق والطبيعة .

وكما رأينا فإن هذه الحكم مع امتدادها لم تأت مستقلة بقصائدها وانما جاءت في إطار أغراض أخرى حفلت بها قصائد الشعراء -

وأبيات زهير هذه في الحكمة تعزى بالقول بأن التقديم والتأخير فيها ممكن وجائز دون حرج بل ان حذف بعض الأبيات لا يؤدى إلى خلل في البناء الفني للقصيدة ... وهذا صحيح إلى حد كبير ولكني أود أن أشير إلى حقيقة أرجو أن تكون واضحة ... وهي أن هذه الحكم مع امتدادها وطولها لا تمثل الأساس الذى بنيت عليه القصيدة بقدر ما هي حلية عقلية وزينة معنوية وزخرفة في البناء من شأنها أن تبهر وتأخذ بالقلوب والأبصار وتستحوذ على العقول والأفكار بل إنها تفيض على البناء رونقا وبهاء وان كان البناء بغيرها قائما لكنه بها يزهو ويزدان ويزداد تألقا ورواء ... على أن القيمة الفنية لهذه الحكم الممتدة تكمن - فيما رأى - في سيرورة الشعر واشتهاره بين الناس بحيث تتناقله الألسنة وتتلقفه الآذان وتأتلف حوله القلوب وتتلاقى عليه العقول ... وللحكمة القدح المُعَلَّى في هذا المجال بلا جدال .... كما تكمن أيضا في اشتمالها بمجموعها على ما يلائم المواقف والأحداث التي يتناولها الشاعر توضيحا لها وإبرازا لجوانبها المختلفة وتاكيدا لمضمونها وتأييدا لافكاره وخواطره فهي إذن مجتمعة أو متفرقة متقدمة أو متأخرة تحقق هذه الغاية وتؤدى هذا الغرض بأتم وأوفى ما يكون التحقيق وبأحسن ما يكون عليه الأداء ..

ولأن شعر الحكمة في الجاهلية جاء على هذه الصورة التي أوضحتها لم يقف عنده النقاد والباحثون لأنه لم يكن غرضا خاصا من أغراض الشعراء يقصدون اليه بل كانوا يبعثون الحكمة في ثنايا أشعارهم أو أواخر أشعارهم ... ودرجوا على هذا المنوال فضمنوا قصائدهم نظرا تهم في الحياة مركزة

فى جمل قصيرة (١) .

وحين ظهر من الشعراء من خالف هذا المنهج وافرد للحكمة قصائد خالصة كصالح بن عبد القدوس م ١٦٠هـ عاب النقاد هذه الطريقة وقالوا " : " لو كان شعر صالح بن عبد القدوس مفرقا فى أشعار كثيرة " ، لصارت تلك الاشعار ارفع مما هى عليه بطبقات ، ولصار شعره نوادر سائرة فى الآفاق ، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر .. " (٢)

وممن كثرت الحكمة فى شعرهم عَلْقمة بن عَبدَة وهو القائل فى ميميته :

والحمدُ لا يُشْترَى إلاله ثَمنٌ ... مما يَضِنُّ به الأقوامُ مَعْلوم
والجُودُ نافِيةٌ للمال مَهْلكَةٌ ... والبخلُ باقٍ لأهليه ومَذْمُوم
والجهل ذو عَرَضٍ لا يُسْتَراد له ... والحِلْمُ آونةً فى الناس معدوم
ومن تعرّض للغِربان يزجُرها ... على سلامته لابُدَّ مشئوم
وكل حِصْنٍ وإن طالت سلامته ... على دعائمه لابُدَّ مهدوم (٣)

وهو القائل أيضا :

فإن تسألونى بالنساء فإننى ... بصير بأدواء النِّساءِ طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قَلَّ ماله ... فليس لمن ودهن نصيب
يُرِدْن ثراء المال حيث علِمْنَهُ ... وشرخُ الشباب عندهن عجيب (٤)

١ـ أسس النقد الأدبى ص٢٨٦
٢ـ البيان والتبيين جـ ١ ص ١٥٠
٣ـ المفضليات قصيدة ١٢٠ ص٤٠١ لا يستراد له اى لا يراد ولا يطلب
٤ـ المفضليات قصيدة (١١٩) ص٣٩٢ ـ شرخ الشباب أوله .

ومما يستجاد لأوس بن حجر فى الحكمة قوله :

وإنى رأيت الناس إلا أقلهم ... خفاف العهود يكثرون التنقلا
بنى أم ذى المال الكثير يرونه ... وإن كان عبدا سيد الأمر جحفلا
وهم لمقل المال أولاد علة ... وإن كان محضا فى العمومة مخولا
وليس أخوك الدائم العهد بالذى ... يسوءك إن ولى ويرضيك مقبلا
ولكن أخوك النائء ما كنت آمنا ... وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا (١)

ولطرفه بن العبد البكرى قوله :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى ... بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود (٢)

وللأقوه الأودى قوله :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأى ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

وقد كثرت الحكمة فى شعر عدى بن زيد العبادى لتعدد ثقافته وكثرة رحلاته وطول خبرته ومعرفته بأحوال الناس ومن مجمهرته فى الحكمة قوله :

وعاذلة هبت بليل تلومنى ... فلما غلت فى اللوم قلت لها اقصدى
أعاذل إن الجهل من لذة الفتى ... وإن المنايا للرجال بمرصد
أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى ... وأبعده منه إذا لم يسدد
أعاذل من تكتب له النار يلقها ... كفاحا ومن يكتب له الفوز يسعد

---

١ — الشعر والشعراء ص ٨٧ لا عهد لهم ، يخضعون لذى المال وان كان خسيسا ويحتقرون عديم المال وان كان شريفا أصيلا ، ليس الاخ الحق من يرضيك فى وجهك ويطعنك وهو بعيد عنك ، الاخ الحق من يبعد عنك وأنت فى رخاء ويقرب منك وأنت فى الشدة .

٢ — الطول : الحبل وثنياه طرفاه والأعداد جمع عد بكسر العين وهو الماء الجارى بلا انقطاع أى انه مورد دائم لكل النفوس .

اعاذل ما يدريك أنّ منيّتـــــــى ... إلى ساعة فى اليوم او فى ضُحَى الغَدِ
ذريني فإني إنما لى ما مضـــــى ... أمامى من مالى إذا خفّ عُــــوّدى
وللوارث الباقى من المال فاتركـى ... عتابى فإنى مُصلح غيرُ مُفســـــد
كفى زاجرًا للمرء أيامُ دَهْـــــره ... تروح له بالواعظات وتغتـــــدى

هكذا يتأكد لنا بما لا يدع مجالا لشك أن شعرنا الجاهلى فيه الفكر العميق وفيه العقل الناضج وفيه خلاصة الخبرات والتجارب وفيه هذا الجانب الإنسانى الراغب فى الحياة الأفضل والعيش الأمثل فى ظلال القيم والمبادئ وأنه بعد ذلك وقبل ذلك شعر نابض بالحياة يتأثر بواقعها وإيقاعهـــا ويؤثر فيها فنا وإبداعا وإقناعا وإمتاعا ، وإرشادا وتوجيها ....

والنقاد والباحثون وأهل البصر بالشعر يرون أن شعر الحكمة والأمثال أظهر مثال لهذا اللون من الأدب الذى يحمل تجارب الماضين وثمـــرات عقولهم وهو يعد بذلك مصدرا من مصادر الثقافة وينبوعا من ينابيع المعرفة لأنه يحمل ثقافات العقول ويؤديها إلى النفوس فى صورة تثيرها وتحركها على أن تنشر هذه الحكم فى ثنايا القصيدة كما قدمنا .

وقد يقول قائل : أين الحكمة وأين العقل ، وأين المبادئ والمُثُـل ونحن نقرأ للجاهليين شعرا كثيرا فيه فحش وفيه لهو وعبث ؟ ؟ !

ونرد على هذا القول بأن شعر اللهو والعبث والفحش يمثل جانبـــا واحدا من الشعر الجاهلى وليس هو كل الجوانب ولا أكثرها ... وهـذا الجانب العابث اللاهى يعد طبيعيا فى مثل هذه الحياة التى كانوا يحيونها فى صراع وحروب وقتال وتوتر وقلق تحت وطأة ظروف صعبة وطبيعة قاسيـــة وحركة دائبة ورحلة مستمرة ... نعم كان طبيعيا أن يفزع بعضهم إلـــى حياة اللهو والخمر والنساء ينشد فيها شيئا من السلوى والمتاع ..... بيد أن هذه الحياة العابثة لم تحجب عنهم الحقيقة الماثلة ولا الواقـــع المُرّ الذى لا مفر منه ولا مهرب .... بل إن هذه الحياة لم تقعـــــد

بهم عن الاستجابة لدواعي الهمم العالية من الفروسية والشجاعة والبطولة والإقدام والمروءة والنجدة والكرم والوفاء ، والبذل والعطاء .

ومع ذلك فقد كانت هذه الحياة اللاهية العابثة وما تستدعيه من طيش ونزق تُقابل بالإنكار الشديد والامتعاض البالغ من الأهل والعشيرة والقبيلة لدرجة جعلت شاعرا كطرفة بن العبد يشكو مرّ الشكوى من قسوة معاملة الأهل والعشيرة له لانسياقه وراء شهواته ولذاته فيقول :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلُّها ... وأُفْرِدتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّد

يعنى أن عشيرته كلها تجنبته كما يتجنب البعير الأجرب المطلى بالقطران لأنه لا يكف عن الاشتغال باللذات وشرب الخمور وإتلاف الأموال ..

إذن فقد كان هناك رد فعل عنيف لهذه الحياة العابثة التى يحياها بعض الشباب .... ولم يكن رد الفعل هذا من الشيوخ وكبار السن وحدهم بل كان أيضا من اللِّدات والأقران ممن هم فى سن الشباب .

يقول طرفة :

فمالى أرانى وابن عمى مالك ... متى أدن منه يَنْأَ عنّى ويبعُدِ
يلومنى وما أدرى علام يلومنى ... كما لامنى فى الحى قُرْط بن مَعْبَدِ

على انه قد كانت هناك جوانب أخرى كثيرة فى الشعر الجاهلى تتدفق بالحماسة والبطولة والفروسية والحمية والشهامة والمروءة والإشادة بالفضائل والتنديد بالرذائل والدعوة إلى الخير والسلام ... وهذه هى سنة الحياة بطبيعتها وظروفها وكما خلقها الله تهيئ عناصر الصراع فيها لمن يحيونها ومن خلال هذا الصراع يتولد الخير ، وتتفجر ينابيع الحكمة ، وتنشد المبادئ والقيم وتُرْسَى دعائم الاستقرار ..